© أوراق فلسطينية

تصدر عن مؤسسة ياسر عرفات
رئيس مجلس الادارة: د. ناصر القدوة

رئيس التحرير: يحيى يخلف
مدير التحرير: غسان زقطان
مستشار التحرير: فيصل دراج

يشارك في التحرير: فيصل حوراني
عبد الفتاح القلقيلي
أحمد نجم

الهيئة الاستشارية: حلمي النمنم
كمال عبد اللطيف
محسن بوعزيزي
كريم مروة

ادارة: رفيف الأسمر
وليد زبيدي

تصميم الغلاف: زهير ابو شايب
التصميم الفني والإخراج: عاصم ناصر

جميع الحقوق محفوظة لمؤسسة ياسر عرفات

ISBN 978-9950-375-04-8

AWRAQ FELASTINIA

أوراق فلسطينية

فصليّة فكريّة عربيّة تصدر عن مؤسّسة ياسر عرفات

العدد «١٢» ربيع ٢٠١٦

المراسلات:

العنوان: ص. ب: ٥٧٣

رام الله – فلسطين

هاتف: ٢٩٥٧٣٧٣ – ٩٧٠٢ + / ٢٩٥٧٣٧٢ – ٩٧٠٢ +

Email: awraq.falastinya@gmail.com

www.yaf.ps/awraqfelastinia

الاشتراكات السنوية:

٥٠ دولاراً للأفراد، ٨٠ دولاراً للمؤسسات (بما فيها نفقات البريد)

ترسل الاشتراكات شيكاً إلى العنوان البريدي أو حوالة بنكية على حساب المؤسسة:

البنك العربي

رام الله – فلسطين

فرع الماصيون

رقم الحساب: ٥١١ – ٤٨٠٢٥٢ - ٩٠٩٠

Ps 57 arab00000000090904802525 10

الآراء الواردة تعبر عن رأي الكتّاب، وهي لا تعبر بالضرورة عن رأي المؤسسة.

الفهرس

٦ **منظمة التحرير الفلسطينية تقيم لقاءً تكريمياً في أربعين الفنان السوري نذير نبعة**

الافتتاحية

١٣ **المبادرة والمؤتمر**
هيئة التحرير

١٦ **الندوة السنوية الثانية لملتقى الحوار.. التحديات الراهنة وآفاق المستقبل**

أوراق فلسطينية

٣٥ **اسرائيل تتحدى الامم المتحدة ومحكمة العدل الدولية وتواصل بناء جدار الفصل العنصري**
تيسير خالد

٤٥ **القائمة المشتركة من أوجاع المخاض إلى الميلاد**
محمّد علي طه

٧١ **المنظور الأميركي لفلسطين (الأرض المقدسة) ... أبرياء في الخارج**
شذى يحيى

٨١ **ذاكرة الثورة: تسجيل وتوثيق تاريخ الثورة الفلسطينية شهادة الاخ فاروق القدومي "ابو اللطف"**
جمع وتحرير وتقديم: يحيى يخلف

أوراق عربية

٩١ **هل نحتاج لمستبد ..حتى لو كان عادلا؟**
محمود الورداني

٩٧ **حول علم الأولويات**
عبد الفتاح القلقيلي

١٠٥ **دور التعليم في تعزيز الهوية الوطنية**
دنيا الأمل إسماعيل

الآراء الواردة تعبر عن رأي الكتّاب، وهي لا تعبر بالضرورة عن رأي المؤسسة.

الفهرس

أوراق ثقافية

١١٣ **المثقف في رواية جبرا إبراهيم جبرا**

د. فيصل دراج

١٣١ **جمال أبو حمدان في روايته الموت الجميل قراءة في موتيف الحب والموت**

إبراهيم أبو هشهش

١٥١ **نصّان عن قوة الأدب وفن التخييل:**

تقديم وترجمة أحمد المديني

١٦٥ **تعديل في موسيقى الحجرة**

قاسم حداد

١٧٩ **فصل من رواية "الصخرة"**

فيصل حوراني

١٩٧ **عشب قادم من الشرق**

ليزا خضر

٢٠١ **هاني أبو أسعد .. علامة فارقة في السينما الفلسطينية**

يوسف الشايب

٢١٩ **الروائي العراقي أحمد سعداوي في حوار "أوراق فلسطينية"**

حاورته بديعة زيدان

منظمة التحرير الفلسطينية تقيم لقاءً تكريمياً في أربعين الفنان السوري نذير نبعة

شهد متحف محمود درويش في مدينة رام الله في السادس من نيسان/ ابريل الماضي، الحفل التأبيني الكبير الذي دعت اليه لجنة تأبين الفنان الراحل نذير نبعة أحد ابرز الأسماء في المشهد التشكيلي العربي، وقد ضمت اللجنة ثلاثة وستين اسما مثلوا مختلف الفعاليات الثقافية والسياسية والنقابية في فلسطين، وقد تحدث في الحفل كل من السيد أحمد عبد الرحمن ممثلا لمنظمة التحرير الفلسطينية ووزير الثقافة د. إيهاب بسيسو.

نورد فيما يلي بيان لجنة التأبين الذي الشاعر محمود أبو الهيجاء ورسالة عائلة الفنان نذير نبعة.،

بيان لجنة التأبين:

دائماً مع الفن ثمة الأمل، لطالما يظل بحادثته، خطابا للروح ومبعثاً لتوهجه الأخّاذ، مثلما يظل صيرورة حياة، لا تسكنه سوى التجليات، والتحولات، من رؤيا وفكرة وتطلع، إلى قصيدة ورواية

ولوحة، وإلى مبحث في الوجود والواقع، وفي الشك واليقين لمجابهة القلق والعدم.

دائما مع حادثته السلوى ثمة الحياة وبرنامج الحياة وذكرياتها.

لهذا لا نودع اليوم صاحب اللون واللوحة نذير نبعة، وحضوره الحي ما زال وسيبقى لا فوق هذا القماش النبوي المطرز بحكايات فرشاته الطيعة لشغفه فحسب، وإنما أساسا سيظل هذا الحضور دائما، على بساط المريد في بيت الذاكرة الوطنية لفلسطين وشعبها، وثورتها التي قصفت عمر اليأس بعد أن أوقدت شعلة الأمل في ليل الهزيمة الحزيرانية، فجاءها نذير نبعة بأيقونتها، وجاءها بخطابها التشكيلي لوحة وملصقاً، وجاءها دلالة من دلالات عمقها العربي وبعدها الإنساني، إذ هي مشروع حرية وتحرر.

ومع نذير نبعة مثالا وأيقونة، عرفنا سورية الفلسطينية، وفلسطين السورية، أدركنا وحدة الدم والمصير، وأننا أمة واحدة، ومع فلسطين وثورتها باتت لهذه الأمة هوية واحدة اجترحتها معجزة حركة فتح، معجزة تفجير الثورة في الواقع المستحيل، ونعني الهوية النضالية التي لم تعد حصراً على الفلسطينيين ولا حتى على العرب، الهوية التي لا تعترف بحدود سايكس بيكو، هذه الحدود التي يراد لها اليوم نسخة ثانية أكثر تمزيقا وشرذمة وطائفية.

مع نذير نبعة سنظل نعرف ونؤمن أن روح البلاد العربية بقدر ما هي قحطانية وعدنانية فهي شامية أيضاً في مشرقها ومغربها... قد غنينا بساتين هشام وسنغنيها، وهذي لوحات نبعة التي تحمل من اسمه هذا النصيب، بساتين أخرى ستظل الى الأبد خضراء كأرض روحنا التي غناها شاعرنا الكبير محمود درويش، أبدا انت لنا وأبدا أنت معنا، ولك ما لشهدائنا من شقائق النعمان تزين سياج الوطن. نذير نبعة أهلا وسهلا بك في فلسطين.

كلمة عائلة الراحل الكبير الفنان نذير نبعة القتها الإعلامية هبة الطحان نيابة عنهم:

من أسرة نذير نبعة الصغيرة، من زوجته الرسامة شلبية ابراهيم، وابنته صفاء وابنه عمار، إلى الأسرة الفلسطينية الكبيرة، قيادة وجماهير.

أيتها الأخوات، أيها الأخوة

السيد ممثل منظمة التحرير الفلسطينية

السيد وزير الثقافة

السادة ممثلي الاتحادات المهنية الفلسطينية الابداعية

يا أهل نذير، يا أهلنا كلِّنا

مصابنا بفقدان نذير مصابٌ كبير، مصاب مزدوج، فبرحيله فقدنا الزوج، والأب، والصديق، والموجه المتفهم، والراعي الحنون الذي قاد خطواتنا، نحن زوجته وابنته وابنه، ليس بالأوامر أو بالإكراه، بل بتقديم الأنموذج الذي يجتذبنا إلى اتباعه، وبرحيله فقدنا كغيرنا من محبي منجزه الفني المبدع الكبير، المساهم في كل ما هو فعال لنشر رسالة الفن الراقي، المساهم الفعال لدعم كل ما هو ايجابي في الحياة العامة.

وفاؤكم، انتم الفلسطينيين لنذير نبعة وفر لنا مواساة نحن بحاجة إليها. أَحبَّكم نذير حباً لا شائبة فيه، وأحببتموه حباً أكده هذا الوفاء. ومبادرتكم إلى عقد هذا اللقاء في أرضكم المحتلة قدّمت لنا مساعدة جليلة على احتمال مصابنا. إننا نثمّن هذه المبادرة، نثمن ليس فقط ما تدل عليه من الوفاء، بل، أيضاً، ما تشير إليه، إلى الدور الذي قدّمه الراحل الفنان لخدمة الانطلاقة الثورية الفلسطينية ومساندة الثورة الوطنية في مراحلها كافة. ولأن هذه المبادرة تجيء في زمن الانتكاسات فإنها تظهر صحة ما آمن به فنّاننا الراحل: زمن الانتكاس ذاته لا يخلو من الايجابيات. القابضون على الجمر يكتبون الأمل بأن زمن الانتصار قادم. ولكم أن تعرفوا أن الراحل الغالي فارق دنيانا وهو على ثقة بأن الشعب الفلسطيني سيستمر في كفاحه الوطني إلى أن يحرر أرضه ويستعيد حقوقه ويقرر مصيره وبحريّة وأن سورية ستستعيد القها ودورها التاريخي البنّاء.

أيتها الأخوات، أيها الأخوة

اسمحوا لنا بأن نوجه لكم الشكر على هذه المبادرة، اسمحوا لنا بأن نؤكد لكم أننا ماضون على الدرب الذي سار عليه نذير نبعة، درب التضامن مع كفاح الشعب الفلسطيني للظفر بحريته. اسمحوا لنا بأن نوجه شكرنا لقيادة هذا الشعب وأن نخص بالشكر رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الأخ محمود عباس على مبادرته الاتصال بنا ومواساتنا منذ بلغه نبأ رحيل نذير.

نشكر منظمي هذا اللقاء ونخص بالشكر منظمة التحرير الفلسطينية ووزارة الثقافة واتحادات المهن الابداعية الفلسطينية.

ونشكر الذين تحدثوا في هذا اللقاء ونكرر الشكر لكل من أسهم فيه

أيتها الأخوات والأخوة

شكراً لكم !

هذا وقد نعت حركة التحرير الوطني الفلسطيني "فتح"، الفنان التشكيلي العربي السوري نذير نبعة، واعتبرت مساهمته الفنية النضالية في الحركة والثورة الفلسطينية تعبيراً عن مبادئها ومنطلقاتها كثورة عربية القلب.

وحيت الحركة في بيان صدر عن مفوضية الإعلام والثقافة، روح الفنان وعطاءه اللامحدود من أجل القضية المركزية للأمة العربية، منذ تصميمه ونشره شعار العاصفة وحتى آخر نبض في حياته، حيث أكد الفنان انتماء الأشقاء العرب وإيمانهم بقضية فلسطين، واعتبروها قضيتهم المركزية والأساسية.

وعاهدت فتح الشهيد نبعة الذي صمم الشعار، أن تبقى وفية لمبادئ الثورة وقيمها حتى تحقيق أهدافها بالنصر والحرية والاستقلال وقيام دولة فلسطين بعاصمتها القدس.

وبفقدان نبعة يفقد الوسط التشكيلي العربي معلماً من معالم الفن الذي خاض غمار الجمال والنضال على حد سواء، فلا فرق عند نذير نبعة بين الثورة والجمال.

كان مولده عام ١٩٣٨ في حي المزة في دمشق، فتأثر منذ طفولته بروائح التوابل والبهارات في سوق الحميدية، وغذت عينيه آثار الحضارات التي مرت على سوريا منذ آلاف السنين، فخزن الطفل نذير كل ذلك في عقله الباطني، ليحوله لاحقاً إلى أعمال لفتت انتباه العالم بأسره.

بعد أن تخرج من كلية الفنون الجميلة في القاهرة عام ١٩٦٥، كانت الأكاديمية العليا للفنون الجميلة في العاصمة الفرنسية باريس هي محطته الدراسية التي صقلت موهبته بشكل أكاديمي بعد أن ظهرت الموهبة الطبيعية لديه، وعاد إلى سوريا ليدرّس الرسم في دير الزور، وأقام في دمشق منذ أواسط السبعينات إلى حين وفاته. وبدأ منذ خمسينات القرن الماضي بإقامة المعارض في سوريا والدول العربية ودول العالم، فكانت معارضه الشخصية محط إقبال، ولم تتوقف هذه المعارض حتى وفاته، هذا عدا عن عشرات المعارض المشتركة مع فنانين محليين وعالميين، أقامها في باريس

ومدريد وسان باولو وموسكو ولايبزج وطوكيو وبراتسلافا ودمشق وحلب وبيروت والقاهرة والكويت والإسكندرية، ومعظم أعماله مقتناة من قبل وزارة الثقافة السورية والمتحف الوطني في دمشق والقصر الجمهوري ومتحف دمّر، إضافة إلى مقتنيات شخصية لدى العديد من الشخصيات.

يعتبر نذير نبعة من الفنانين الذين أعطوا حضورا للفن السوري على مستوى العالم، وقد كان قريبا إلى طلبته لشدة اهتمامه بهم، وقد زينت لوحاته عددا كبيرا من أغلفة كتب الأدب العربية والعالمية.

من تجارب نبعة البارزة، كان انخراطه في المقاومة الفلسطينية كعضو في حركة فتح، التي صمم لها العديد من الملصقات السياسية، كان أهمها شعار العاصفة الذي تستعمله حركة فتح حتى اليوم كرمز لها، ويقول نبعة عن تجربته الفلسطينية: "كثيرون كانوا يظنون أني فلسطيني؛ كون رسوماتي كانت بمثابة الناطق الرسمي بلسان الحراك الفلسطيني، فهزيمة حزيران كانت صفعة على وجوهنا جميعاً، جعلتنا جميعا في حالة إحباط، لكن شخصية الفدائي هي من أنقذتنا من هذا الاكتئاب، فكنا نشعر أن هذه الشخصية هي الوحيدة التي يمكن لها أن تدافع عن وجودنا، وعن مفهوم الوطن، ولذلك احتلت صورة الفدائي الجزء الأكبر من لوحاتي في تلك الفترة، وكان معظمها على هيئة بوستر أو ملصقات، حيث نشأت صداقات وأخوّة بيني وبين الفدائيين".

المبادرة والمؤتمر

في أجواء دولية معقّدة، ومناخ إقليمي شديد التعقيد، وانشغال أوروبي بأولويات الهجرة ومكافحة الإرهاب العابر للقارات، وانسداد تام للعملية التفاوضية بين منظمة التحرير والحكومة الاسرائيلية، وتردّي العلاقات بينهما بسبب مواصلة الاستيطان وعمليات الاعدام للشباب والفتيان التي ترقى إلى جرائم حرب، والاعتقالات اليومية للناشطين في مجال المقاومة السلمية، تأتي المبادرة الفرنسية لعقد مؤتمر دولي لتحريك عملية السلام بين الفلسطينيين والاسرائيليين.

وغني عن القول أنّ جوّاً من التشاؤم يسود الأوساط الشعبية الفلسطينية من إمكانية أن يحقق هذا المؤتمر نتائج جادة في اتجاه تحقيق السلام وحل الدولتين، فيما رحبّت السلطة الفلسطينية بهذا المؤتمر، ومن جهة أخرى فإن الجانب الاسرائيلي لم يتخذ موقفا واضحا بهذا الشأن، بل إنّ رئيس الحكومة الاسرائيلية نتنياهو علّق بسخرية على المبادرة الفرنسية بقوله: إنّه لا يعرف ما تتضمنه المبادرة الفرنسية، وأعتقد أنّ الفرنسيين أنفسهم لا يعلمون تفاصيلها.

وقيل إنّ الحكومة الاسرائيلية في مجال المراوغة عبّرت عن موافقتها في نهاية الأمر، وطالبت بعدم استباق النتائج، أي انّها تتهرب من أن تكون نتائج المؤتمر ملزمة، ثمّ أصدر مكتب نتنياهو تصريحا باستبعاد المشاركة في المؤتمر وقال إنّ الخيار الذي تتبناه الحكومة الاسرائيلية هو مفاوضات مباشرة مع الفلسطينيين دون شروط مسبقة، ويفهم من هذا البيان انّ الحكومة الاسرائيلية تناور فعلا لاستباق النتائج وتسعى للحصول على تنازلات وتطمينات تفرغ المؤتمر من مضامينه وأهدافه، هذا إذا عقد المؤتمر فعلا، والذي لم يحدد موعد له بعد، وإن كان قد قيل إنه سيعقد قيل نهاية العام.

ولعلنا نتذكر جميعا أن السياسة الاسرائيلية على مدى العقدين الماضيين لم تمكّن الدول الأوروبية من لعب أي دور في ما يسمى بعملية السلام ، وأنها كانت تعتبر أن الطرف الوحيد الذي يشارك، هو الولايات المتحدة الأميركية وهو الطرف المنحاز لسياساتها، والذي يعطيها الغطاء الشرعي من خلال الدعم السياسي والمالي والعسكري، ومن خلال الفيتو في مجلس الأمن، كما أنّه الطرف الذي

لا يمارس ضغطا عليها، وإن حاول الضغط فإنّ اسرائيل تستطيع أن تتمرد عليه دون أن تخشى أية ردود فعل منه.

ما كان مسموحا للدول الأوروبية هو أن تكون دولا مانحة فقط، ولم تتورع إسرائيل في أوقات مختلفة من تدمير البنى التحتية للسلطة والتي مولتها الدول الأوروبية، مثل قصف المطار والميناء في غزة، ومقرات ومنشآت ومشاريع أخرى فلسطينية.

اسرائيل في هذ المرحلة لا تمارس عليها ضغوط من الدول الكبرى رغم سخط المجتمع الدولي في بقية أنحاء العالم من سياساتها الاحتلالية والاستيطانية، ورغم تنامي حركة المقاطعة الاقتصادية والأكاديمية لها من مبادرات نخب تمثل الأخلاقيات الثقافية، لأنّها تعتبر أنّ الرأي العام العالمي ضعيف الذاكرة، وأن عملية ما يسمى بالسلام ليست أولوية جديّة في السياسة الدولية في هذه المرحلة، وأنّ المحيط القريب المنشغل في صراعات ومشاكل داخلية وخصوصا في الدول التي ما عادت تشكل تهديدا(سوريا والعراق)، بل إنها مرشحة لتقسيم ورسم خرائط جديدة، فإسرائيل تنتظر المزيد من الانهيار والاقتتال الداخلي والفوضى، يمكنّها أن تكرّس احتلالها وتحصل على مزيد من الأراضي(ضم الجولان مثلا)، وأنها تحت ذريعة مكافحة الإرهاب تستطيع أن تحشد تضامنا دوليا ضدحزب الله الذي صنّفته دول الخليج والولايات المتحدة منظمة إرهابية، وبذا تؤمّن جبهتها الشمالية آخر الجبهات توترا.

والصحيح أن هذه المراهنات غير مضمونة التحقق، بل إن الفوضى التي قد تتفاقم في المنطقة قد تحرق نيرانها أحلام اسرائيل، فإنّ شيئا من السياسة الاسرائيلية لن يتغيّر لأنّ القوى الأكثر تطرفا وعنصرية بقيادة نتنياهو لا تأبه بالمستقبل ولا تقرأ التاريخ، وكل همّها البقاء في الحكم، والذهاب بعيدا.

في جو شرق أوسط شديد الرعونة، وفي عام الانتخابات الرئاسية الأميركية تسعى فرنسا لعقد هذا المؤتمر الدولي، وتزمع عقد اجتماع تمهيدي للإعداد له.

رغم قتامة المشهد ليس أمام الجانب الفلسطيني الذي يقف وحيدا سوى الموافقة على حضوره، فالمؤتمر فرصة لتذكير العالم بأن القضية الفلسطينية ما تزال القضية المركزية للصراع في الشرق الأوسط وأن الأحداث الجارية في المحيط لن تغطي عليها، فالقضية ما زالت تتسلح بقرارات دولية، وما تزال تحظى بتعاطف واسع، ولا شكّ أن نتائج هذا المؤتمر ستضاف الى كثير من قرارات الشرعية الدولية التي على الرغم من عدم تنفيذها لكنها تبقى سندا ومبدأ مهما طال الزمن.

ولكن من الآن حتى انعقاد المؤتمر علينا أن نتنّبه الى أن اسرائيل ستعمل بدعم من حليفها

الاستراتيجي (أميركا) على ابتزاز الجهة الداعية والجهات الداعمة للمؤتمر، وصولا الى تفريغ المؤتمر من مضمونه ومن نتائجة، فقد مورست ضغوط على السلطة الفلسطينية لسحب مشروع قرار بشأن الاستيطان كان سيقدم الى مجلس الأمن بحجة سحب عراقيل أمام انعقاد المؤتمر، وهذا ما استجابت له السلطة. كما أنّ الحكومة الفرنسية سحبت تصريحها القائل إنّها ستعترف بالدولة الفلسطينية إذا افشلت اسرائيل المؤتمر الدولي .

وستحاول اسرائيل وحليفتها الكبرى سحب المزيد من القضايا التي تفرغ المؤتمر من مضامينه كافة، ومنها استباق النتائج، وعدم وضع شروط لوقف الاستيطان، والتمسك بالقدس عاصمة للدولة الاسرائيلية، وتصفية قضية اللاجئين وحق العودة ..الخ، مما يزيد الأمور تعقيدا.

هل يستطيع المؤتمر الدولي هذا أن يحقق ما عجزت عنه المؤتمرات واللقاءات الدولية وما عجزت عنه أيضا اللجنة الرباعية، وسائر الاتصالات والقرارات للأمم المتحدة؟

سؤال يظل مشروعا ونحن نقرأ خريطة الوضع السياسي في اسرائيل، وما تقوم به الآلة العسكرية الاسرائيلية من ممارسات اجرامية وعنصرية، واستمرارها في الاستيطان دون رادع، وسؤال يظل قائما ونحن نطل على المشهد الدولي المرتبك والعاجز والذي يعيد صورة جديدة للحرب الباردة وتحكم الدول الكبرى وأطماعها وصراع المصالح بينها في مصير العالم والبشرية.

ومهما يكن من أمر فإن الشعب الفلسطيني الذي قدم التضحيات الجسام على مدى ما يقارب قرناً من الزمان يستطيع أن يؤثّر، ويستطيع أن ينتزع زمام المبادرة، ويمكن للميدان أن يصنع التوازن الاستراتيجي المطلوب.

فإذا كانت كل الطرق أمام الشعوب المضطهدة مغلقة، تكون الطريق التي يشقها الشعب المظلوم بسواعده وفكره وتمسكّه بحقوقه هي الطريق السالكة.

(هيئة التحرير)

الندوة السنوية الثانية لملتقى الحوار..
التحديات الراهنة وآفاق المسقبل

عقد ملتقى الحوار في مؤسسة عرفات ندوته السنوية الثانية في القاهرة مساء يوم الثلاثاء ٢٣ شباط / فبراير ٢٠١٦ كفعالية فكرية مصاحبة لاجتماع مجلس الأمناء.

وكان مجلس الأمناء في دورته الثالثة والثلاثين قد عقد اجتماعه صباح اليوم نفسه في مقر الأمانة العامة لجامعة الدول العربية برئاسة السيد عمرو موسى،وبمشاركة السيد نبيل العربي أمين عام الجامعة .

عقد ملتقى الحوار ندوته في فندق سمير اميس بالقاهرة تحت عنوان: التحديات الراهنة وآفاق المستقبل، وشارك في الندوة الفكرية نخب ثقافية وسياسية فلسطينية وعربية، واستمع الحضور الى مداخلات رئيسة ثلاث

لكل من : ١- السيد د.نبيل فهمي وزير الخارجية المصرية الأسبق

٢- السيد أيمن عودة رئيس القائمة العربية المشتركة في الكنيست الاسرائيلي.

٣- د.ناصر القدوة رئيس مجلس ادارة مؤسسة عرفات.

كما استمع الى مداخلات لعدد من الشخصيات الفكرية والثقافية والسياسية، والى مداخلة خاصة حول الجهود الرامية لانهاء الانقسام قدّمها عضو اللجنة المركزية لحركة فتح السيد عزّام الأحمد.

وتنشر(أوراق فلسطينية) في ما يلي المداخلات الثلاث ،ومداخلة السيد عزام الأحمد.

مداخلة السيد نبيل فهمي وزير خارجية مصر الأسبق

لكي ألتزم بالوقت المحدد سأتحدث بنقاط رئيسة وليس بشكل خطاب متكامل، وأبدأ كما يقال في مصر من الآخر، في تقديري أن العالم العربي في خطر شديد وعلى حافة الهاوية، ليس كمنطقة

جغرافية أو ككيان ثقافي، إنما من الزاوية السياسية، ككتلة سياسية لها وزن فعّال في القضايا الأولوية لهذه المنطقة، أضيف إلى ذلك أن من ضمن المشاكل والتحديات ان عالمنا العربي اليوم أقل استقراراً، مهتزاً في قراراته، وفي كثير من الأحيان غير قادر على اتخاذ مواقف تؤثر بشكل فعّال لضمان صيانة المصالح والحقوق العربية.

هناك أسباب للوصول إلى هذا التقييم، من ضمنها، اذا تابعنا التاريخ العربي المعاصر سنجد أن منطقتنا من أكثر المناطق تغييراً لقياداتها بشكل مفاجئ، كان هذا لأسباب مختلفة، إنما الانتقال الطبيعي للسلطة أضعف من الانتقال الفجائي للسلطة، أكان لأسباب خارجة عن الطبيعة أو كان لأسباب سياسية أو اجتماعية.

السبب الثاني أنها من أكثر المناطق الحاضنة للآراء والمواقف المتطرفة، وأبدأ بالآراء والمواقف المتطرفة قبل أن انتقل منها كأمر طبيعي إلى ساحات دموية وإزعاجات. ويرتبط بالرأي المتطرف للآسف، ما نتحدث عنه هذا الوقت وهو قضية الارهاب في الشرق الأوسط وعلى مستوى العالم، إنما من الملفت أيضاً أنه رغم هذا وذاك، ورغم أننا نحمّل الغير في الكثير من الأحيان مسؤولية مشاكلنا، فنحن أيضاً من أكثر المناطق على مستوى العالم استدعاءً للغير لحل مشاكلنا، ونحملهم مسؤولية بدئها من الأساس.

وبالتوازي مع ذلك لا ننسى أننا لا نعيش في عزلة عن العالم، وعالمنا العربي والدول الرئيسية فيه يستورد الغذاء، وأحياناً الطاقة والسلاح، وحتى حاجات البيئة، من خارج حدوده، إذن التفاعل والعلاقات مع الغير أمر ضروري وحيوي للعالم العربي. وللأسف، إذا نظرنا إلى العالم العربي كمنطقة سياسية واقتصادية سنجد أن نسبة الاستثمار العربي العربي أقل بكثير من نسبة الاستثمار العربي في دول العالم غير العربية، ونفس الشيء بالنسبة للتجارة. وتقل هذه النسبة بنسبة كبيرة جداً إذا خرجنا عن الاطار دون الإقليمي والعربي، أي بمعنى الخروج عن دول مجلس التعاون الخليجي التي تشهد تبادلاً استثمارياً وتجارياً بشكل جيد، ووسعنا التقييم بشكل اوسع.

أضيف إلى ذلك أن نسبة الشباب في العالم العربي تتجاوز ال ٥٠٪ بكثير، ومن ثم المجتمعات تريد التغيير السريع ولديها قلق منطقي باتجاه المستقبل، فكل منها في هذه المرحلة يتطلع للمستقبل. نسعى إلى تحديد الفرص المتاحة، والتعامل مع التحديات في ضوء ذلك، للأسف هذا هو الواقع أمامنا.

والسؤال، ليس عن هذا الوقت وإنما للمستقبل، هو ما هي السبل المتاحة؟ وفي تقديري، انه ورغم كل هذه الصعاب أن المستقبل بنسبة كبيرة جداً بيدنا، ليس بشكل مطلق، وإنما تحديد مستقبل العالم العربي مرهون بتغيير اسلوب تعامل العالم العربي مع كثير من قضاياه الداخلية والإقليمية والدولية.

أول شيء، بالنسبة للمستقبل، يجب النظر إلى المستقبل من زاوية الاعتماد على الذات أولاً، والتعامل مع الغير ثانياً، ولا أقصد بهذا الاعتماد على الغير وإنما التعامل مع الغير والاعتماد على الذات بنسب أكثر وأولاً. ثم التعامل مع الغير ضروري بشكل أكثر إيجابية.

ثانياً: يجب أن نستدعي بعضنا البعض، قبل استدعاء الغير في التعامل مع القضايا الإقليمية، فالقضايا الإقليمية في نهاية الأمر لها أولوية ثانوية على الساحة الدولية، أو لها أولوية مختلفة خارج العالم العربي عما هي بالنسبة للعالم العربي.

ثالثاً: علينا مصارحة شعوبنا بواقع الأمور داخلياً وخارجياً وإقليمياً حتى نستطيع أن ندفعهم إلى التعامل مع الحكومات ومراكز الفكر وغير ذلك في تقييم العمل العربي المشترك، وهناك في رأيي عدة قضايا رئيسية يجب التركيز عليها:

١) الحفاظ على الهوية الوطنية العربية، هناك أسباب ودوافع حقيقية لتفتيت الهوية العربية الوطنية.

٢) يجب علينا التصدي للفكر المتطرف العالمي، بمعنى عدم قبول الغير وبما يرتبط به من عنف وإرهاب وغيره، إذا لم نفعل ذلك، من الصعب جداً أن ننضم إلى ركاب التقدم والتحضر، وأن نكون شريكاً إيجابياً في العالم المتحضر.

٣) علينا طرح مبادرات عربية اولاً، لفض المشاكل الإقليمية، قبل أن نعتمد على أطراف غير عربية في ذلك.

ما هي متطلبات النجاح؟ في الحقيقة هذا أمر مهم، لكي ننجح في ما أدعو إليه علينا أن نبني دولاً وطنيةً عصريةً. إعادة كتابة الماضي لن يفيد في مواجهة تحديات المستقبل، علينا احترام القانون في تعاملاتنا الداخلية والخارجية، والتمسك باحترام الغير للقانون الدولي في التعامل معنا. علينا بشكل خاص طرح المبادرات فيما يتعلق بثرواتنا وخيراتنا الطبيعية.

يجب أن يكون واضحاً في المواقف العربية، تمسكنا بسيادة أراضينا واستعدادنا لاتخاذ مواقف دون تأخير في حماية أنفسنا والدفاع عن النفس، مسألة تتجاوز مسألة إعلان المبادئ والمواقف الرنانة، إلى اتخاذ مواقف سياسية محددة وواضحة.

علينا أيضاً أن نفعّل مسألة الأمن الجماعي الإقليمي، ونشر الأمن الجماعي على المستوى الدولي، والتوازنات الإقليمية والدولية بين الدول ليست لصالح الدول العربية. هذا يعني إرساء علاقة مجتمعية جديدة في العالم العربي، ليس لأن ما مضى كان خطأ، وإنما لأن ما مضى وما هو قائم ليس كافياً للمستقبل.

في هذا السياق، وحتى لا يساء فهم ما أذكره، يجب إعلاء القيمة الوطنية والالتزام بالوطن كرسالة

رئيسية. دون أن نركز بشكل أوضح وافضل على المجال التنموي الاقتصادي والاجتماعي والعلمي لن ننجح في أن نكون دولاً معاصرةً ولن ننجح بأن نبني الذات بالقدر الذي يسمح لنا أن نكون أصحاب مواقف فعالة على القضايا الإقليمية سياسياً أو عسكرياً. في هذا السياق، لابد أن يكون التركيز على بناء طبقة وسطى واسعة الانتشار ومستقرة في العالم العربي، لأنها في النهاية ميزان التوازن في أيّ مجتمع، وأيضاً ميزان التوازن على المستوى الإقليمي، والطبقة الوسطى هي أساس نجاح كل الدول المتقدمة على مدى التاريخ.

أكرر مرة أخرى، يجب ان نبادر نحن كعرب بالتعامل والتفاعل والمبادرة أولاً لحل القضايا الإقليمية قبل أن نستدعي الغير لطرح أفكار بشأنها. في الحقيقة من الصعب على الجميع، (الحضور وهم كلهم أناس أكابر مارسوا العمل العام، وعملوا في مجالات إقليمية متنوعة)، من الصعب علينا جميعاً أن ننظر إلى كافة المشاكل الإقليمية في المنطقة، ونجد أنها في جميع الاحوال تتم إدارة النزاع أو السعي للحل من خلال جهات أجنبية، سواء كانت مؤسسات دولية أو كانت دولاً فاعلةً خارج النظام العربي، لا نجد قضية واحدة من المغرب العربي إلى المشرق، إلى الخليج، النزاع القائم حالياً يتم السعي لحلها على أساس مبادرات عربية، هذا الشيء في الحقيقة من الصعب استمراره وفعلا أن يكون لنا دور فاعل.

من السهل عليّ أن استغل الوقت المتاح لي وللأخوة والزملاء المتحدثين، وان اتحدث عن القضايا الإقليمية المختلفة، ولكن رئيس الجلسة الوزير عمرو موسى كان رئيسي وسيزال لمدى طويل ولذلك سألتزم بضبط النفس بالنسبة للوقت)، واقول نقطة واحدة في قضية واحدة، وهي قضية، للأسف منسية، أقول ذلك خاصة ونحن هنا لحضور اجتماع لمؤسسة ياسر عرفات، القضية الفلسطينية منسية بالساحة السياسية، وهذا شيء غير مقبول وشيء مؤسف، وبنفس الوقت، في اعتقادي، في وجود رئيس وزراء اسرائيل الحالي، لا توجد فرصة حقيقية وجادة للتفاوض لإقامة دولتين، مع الحكومة الاسرائيلية، وفي نهاية المطاف لن يكون هذا مضمونا.

إذن ما هو الخيار أمامنا؟ وأنا أتحدث بالأساس عن الخارطة السياسية، رأيي يجب العمل على تقنين أسس النزاع الحالي، النزاع العربي الإسرائيلي وبالتحديد فيما يتعلق بإقامة الدولتين، تأمين هذه الأسس حتى لا يتم اسقاط بعضها مع مرور الزمن، وتنوع أحداث الساعة. ولا يمنع ذلك من اللجوء إلى المجالس السياسية المختلفة مثل الأمم المتحدة، أو الأطر القانونية المختلفة. شيء آخر، يجب التركيز على إبراز مخالفات إسرائيل لالتزاماتها القانونية الدولية فيما يتعلق بالتعامل مع الفلسطينيين، في المستوى القانوني السياسي، وفي المستوى الإنساني، وكل ما يرتبط بمخالفات حقوق الانسان والحقوق الوطنية الفلسطينية يجب إبرازه في الساحات الدولية المختلفة.

ثالثاً في تقديري، على الجانب الفلسطيني بذل مزيد من الجهد لضمان أكبر قدر من الاعتراف الدولي بدولة فلسطين، بصرف النظر عن وجود مسار تفاوضي سلمي.

اكتفي بهذا القدر واشكركم

مداخلة السيد أيمن عودة رئيس القائمة العربية المشتركة في الكنيست

أصحاب السيادة والمعالي والسعادة، الأخوة الكرام،،

أتحدث هنا باسمي وباسم الأخوة الموجودين معنا د. أحمد الطيبي، الأخ واصل طه، الأخ طلب الصانع، وكلنا من القائمة المشتركة التي تمثل الفلسطينيين الذين بقوا في وطنهم رغم النكبة وسياسات التهجير .... وحول الهوية كي ننهي هذا النقاش في محاولة منا وللأبد.

نحن بقينا في وطننا بعد النكبة عام ٤٨، أصبحنا أضيع من الأيتام على موائد اللئام، نعيش في هامشين مزدوجين، الهامش الاسرائيلي والهامش العربي، ورغم ذلك، كما ينبت العشب بين مفاصل الصخر، هكذا تطورت هذه المجموعة الوطنية.

عندما كنا مقطوعين من شجرة، قال شاعرنا على لسان شعبنا "سجل أنا عربي"، وفي عام ١٩٨٠ ودون علاقة مع العالم العربي وبدون التقنيات الحديثة، كتبنا في وثيقة السادس من حزيران التي وقع عليها عشرات الوف من الناس، الجملة الفارقة: لا يمكننا أن ننكر، حتى لو جوبهنا بالموت نفسه، أصلنا العريق، إننا جزء حيّ وواعٍ وفعّال من الشعب العربي الفلسطيني.

انا أقول هذا الكلام لأؤكد على مدى رسوخ الانتماء العربي لهذه المجموعة، وأنا اريد أن أفرق بين بعدين في الهوية، البعد الثابت والبعد المتحول، البعد المتحول في الهوية يخضع لمتغيرات لدى كل الشعوب، فمثلاً في المؤتمر الفلسطيني الأول في عشرينات القرن الماضي جرى التأكيد على الهوية القومية وليس الوطنية، من أجل مواجهة الصهيونية بأوسع تحالف قومي وليس بالبعد الوطني الفلسطيني، لدرجة ان مفكراً فلسطينياً كبيراً مثل خليل السكاكيني يكتب في جريدة الدفاع "نحن بالأساس وبالأساس وبالأساس عرب" وكأنه لا يريد ان يذكر البعد الفلسطيني. محمد إسعاف النشاشيبي كان يقرّع من يشدد على البعد الوطني الفلسطيني، ليؤكد على البعد القومي العربي.

بقيت حالتنا هكذا حتى بعد النكبة، لهذا لم يقم أيّ تنظيم فلسطيني حتى خارج فلسطين لدى مخيمات اللجوء، وبقي الأمر محصوراً على الناصريين أو البعثيين أو القوميين العرب. الى أن تأسست منظمة التحرير عام ١٩٦٤،وحركة فتح التي أطلقت العمل المسلح عام ١٩٦٥.

وبعد انتكاس الأنظمة القومية العربية في حرب حزيران ٦٧، أخذ البعد الوطني الفلسطيني مداه.

هذه المتغيرات، أُسميها بالبعد المتحول من الهوية وليس بالبعد الثابت، ليس بال DNA. والبعد المتحول قد يتحول حتى في اليوم الواحد، مثلاً المتدين عندما يكون في مكان علماني يشعر بتدينه أكثر، أنا كعربي فلسطيني عندما أكون في مطار (بن غوريون) ويتم تفتيشي، أشعر بانتمائي القومي أكثر، عندما أكون في دولة عربية أشعر بالبعد الوطني أكثر، حتى على مستوى اليوم الواحد يمكن ان تكون تغيرات على مستوى الهوية، أنا لا أتحدث عن هذا، أنا أتحدث عن البعد الثابت الراسخ للهوية، نحن عرب فلسطينيون حافظنا على هذا الانتماء رغم كل الظروف الصعبة.

وأكثر من ذلك، في البعد الفلسطيني، يستطيع الأخوة الحضور أن يقولوا يبدو اننا لا نخرج إلى الشوارع بعشرات الآلاف إلاّ من أجل القضية الفلسطينية العامة، سواء أكان العدوان على غزة في ستة حروب، أو اجتياح الضفة بعد الانتفاضة الثانية، وقبل ذلك مجزرة الخليل، بل وقبل ذلك مجزرة الأقصى، وقبل ذلك مجزرة صبرا وشاتيلا، وفقط يوم الأرض كان له البعد المحلي القومي الذي خرجنا على إثره إلى الشوارع بعشرات الآلاف وليس مئة هنا وألف هناك، هذا يؤكد طبعاً أننا ننتمي إلى شعبنا انتماءً وطنياً، وانتماء قضية، ولكن ليس فقط انتماءً إلى شعبنا الفلسطيني وإنما إلى أمتنا العربية. قلت أننا في الخمسينات كنا أضيع من الأيتام على موائد اللئام، في العام ١٩٥٨ أسسنا الجبهة الشعبية التي ضمت القوميين والشيوعيين، وفي العام ١٩٥٩ انفضت هذه الجبهة ولكن ليس على خلفية محلية، وإنما على خلفية النقاش والخصام بين جمال عبد الناصر في القاهرة وعبد الكريم قاسم في العراق، لهذه الدرجة ننتمي إلى الأمة العربية.

المد الديني السياسي بعد ١٩٦٧ وبعد ١٩٧٩ وصل إلى الضفة الغربية وقطاع غزة ثم إلى بلادنا، بعد الحرب الأهلية في لبنان تسربت الطائفية إلى قرى في الجليل، لهذا انتماؤنا إلى الأمة العربية هو أيضاً انتماء قومي وانتماء قضية, إذا أجمعنا أن هذا الموضوع محسوم، يعني، في عصر بدون تقنيات، وبدون وسائل اعلام حسمنا هذا الأمر، فكيف اليوم؟ هذا الأمر محسوم ويجب ألاّ نناقشه كثيراً حتى في المستقبل، هذا الموضوع انتهى. نحن من خلال هذا الانتماء الراسخ ومن خلال هذه الثقة الكبيرة نريد أن نؤثر على المجتمع الاسرائيلي العام، نحن لا نريد أن نعزل أنفسنا، لا نريد أن نؤثر على بعضنا البعض، نحن موجودون في بلد فيه ٨٠٪ من المواطنين يهود و٢٠٪ عرب فلسطينيون، الهاجس الأكبر لدى نتنياهو هو هذه الجماهير العربية الفلسطينية، وأنا سأقول من أين ينبع هذا الهاجس.

نتنياهو كان في المعارضة عندما كان رابين رئيساً للحكومة، واعتمد على النواب العرب، كان لرابين ٥٦ مقعداً وللعرب خمس مقاعد وصل المجموع إلى ٦١ مقعداً من أصل ١٢٠، فكان السؤال المركزي:

بأيّ حق يقرر العرب للدولة اليهودية؟ في العام ١٩٩٦ وفي الانتخابات بين نتنياهو وبيريس كان الفرق ٣٠ ألف صوت، أي يستطيع العرب الفلسطينيون أن يقرروا من يكون رئيس الحكومة، لهذا، نزع الشرعية عن المواطنين العرب هي الاستراتيجية الأكثر مثابرة عند نتنياهو على الاطلاق. من هنا نستطيع أن نفهم لماذا رفعوا نسبة الحسم، ونستطيع كذلك ان نفهم خطابه في يوم الانتخابات بأن العرب يذهبون بكميات في الحافلات إلى صناديق الاقتراع، ومن هنا نستطيع ان نفهم خطاب ديزنغوف في تل ابيب حرّض علينا ، ويقف كل اسبوعين تقريباً على المنبر في الكنيست من أجل التحريض على النواب العرب الفلسطينيين، هذا ليس تحريضاً عفوياً، هذه رؤية، الرؤية تقول: إذا كان ال ٢٠٪ هم مواطنون شرعيون، سيفقد نتنياهو الحكم بشكل شخصي، لكن التوازن أيضاً بين المعسكرين سيختل بالنسبة لنتنياهو وبالنسبة لليمين المتطرف، لهذا، فالاستراتيجية الأكثر جدية لدى نتنياهو ولدى اليمين الاسرائيلي هي إخراج المواطنين العرب خارج دائرة الشرعية.

نحن نقول أن المعادلة هكذا، إما أن الشرعية تُستمد من البعد القومي اليهودي، وإما أنها تُستمد من البعد المدني لكل المواطنين، وهذه معركة ديمقراطية صميمية، ونحن، من أجل أن نخوض هذه المعركة يجب أن نبني استراتيجياتنا، ويجب ان نبني أسلوباً صحيحاً.

أنا أقول لكم بوضوح لا نذهب إلى الكنيست من أجل مخاطبة المواطنين العرب وحسب، ولو أردنا أن نخاطب المواطنين العرب لبقينا في اللجان الوطنية لدينا، لبقينا في الناصرة وأم الفحم، ولتحدثنا إلى بعضنا البعض، لماذا ذهبنا كل هذه الطريق إلى الكنيست؟ من أجل أن نتحدث فقط مع أنفسنا؟ الجواب: لا، من أجل أن نتحدث مع كل المواطنين، وهذه استراتيجية، وعندما نذهب إلى التلفزيون الاسرائيلي باللغة العبرية، هل هدفنا أن نوجه رسالة إلى شعبنا؟ فلدينا وسائل إعلام خاصة بنا، نذهب من اجل أن نوجه رسالة إلى كل المجتمع. أريد أن أقول: ان خوضنا بدون تأتأة في العمل السياسي في إسرائيل، وفي المجتمع الإسرائيلي العام، مع كل القناعة والثبات لانتمائنا الوطني الفلسطيني، بهذا نقدم خدمة جليلة، ليس فقط إلى أبناء شعبنا داخل إسرائيل، وإنما إلى الشعب الفلسطيني برمته.

كل احتلال يزول بعاملين: العامل الأول والجوهري الأساسي هو المقاومة بالشكل الذي يختاره الشعب الواقع تحت الاحتلال.

العامل الثاني هو الرأي العام داخل الدولة التي تمارس الاحتلال. في هذا المقام لنا ما نفعله، ولنا ما نؤثر، ولا نريد أن نعزل هذا الصوت، ولا نريد أن نعزل هذه القوة، نريد أن نبني جسورا، لا أن نحرق جسورا ، هذه المعادلات هي معادلات مهمة جداً بالنسبة لنا.

في المدة الأخيرة يجري الحديث عن تدويل قضيتنا، قضية الفلسطينيين في الوطن، أريد أن أقول

ملاحظتين، الملاحظة الأولى: هذا أمر مهم للغاية، العالم ينظر إلى الاحتلال كحالة مؤقتة، كم سنة، خمس سنين، سبعة، ولكن هناك شيء في الرأس اسمه حالة مؤقتة، لهذا يتساهل مع انتهاكات هنا وهناك، ولكن العالم لا يستطيع التعامل مع اسرائيل كحالة مؤقتة، ولا يستطيع ان يصبر على انتهاكات قوية هنا وهناك، لهذا ففضح اسرائيل من الداخل، الهجوم على المواطنين العرب، قضم الهامش الديمقراطي، ضرب حركات يسارية يهودية، وأقول لكم ما هو الهدف الاستراتيجي لضرب هذه الحركات، الهدف هو تحييد هذه الحركات من أجل البطش بالمواطنين العرب. هذا أمر مهم أن يدوّل، ولكن المهم أن نعرف كيف ندوّل هذه القضية، بأي لغة ندوّل هذه القضية.

الصهيونية نجحت في أن تقنع الأغلبية الساحقة من اليهود بأن اللاسامية ظاهرة أبدية، وأن اليهود لا يستطيعون أن يعيشوا بين ظهراني العالم، وبأن العداء لليهود مستأصل، لهذا فإن مسعانا الشعبي من أجل تطوير وضعنا، يجب أن نعرف كيف نتوجه للعالم، كي يكون هذا الوضع مساعداً لنا وأن لا ينقلب علينا. هذا الموضوع بحاجة إلى دراسة جدية من أجل أن يكون البعد الدولي يعداً مفيداً. في نهاية المطاف، البعد الدولي مهم، ولكن الأهم على الاطلاق هو نضالنا داخل الوطن. وشكراً لكم.

مداخلة السيد د. ناصر القدوة رئيس مجلس ادارة مؤسسة ياسر عرفات

شكرا سيادة الرئيس، شكرا لكم جميعا،،

أنا سأتحدث عن التحديات التي تواجه الواقع الفلسطيني، وسأتحدث بدرجة عالية من الصراحة.

أود في البداية تحديد أربعة تحديات:

التحدي الأول يتمثل بالضعف الشديد للمؤسسات الفلسطينية، خاصة المؤسسة السياسية، وتأثيرات هذا الضعف على المجتمع الفلسطيني، وعلى الواقع المحيط، وهي بطبيعة الحال تأثيرات سلبية.

التحدي الثاني هو الانقسام السياسي والجغرافي الفلسطيني، وهذا حدث كما نعلم جميعاً بعد أن تعززت قوة الاسلام السياسي في فلسطين، وهي ظاهرة جديدة نسبياً في فلسطين.

التحدي الثالث هو انهيار العملية السياسية مع اسرائيل، وامعان اسرائيل في مشروعها البديل، وإن كان لا يوجد بعد توافق تام في اسرائيل حول شكله النهائي، لكن اتجاهه العام هو دولة يهودية في كل فلسطين واستمرار الاستعمار الاستيطاني للأرض الفلسطينية، والاستيلاء على كل شيء.

التحدي الرابع هو انهيار الأوضاع في الاقليم، وهنا ألتقي كثيراً مع ما تفضل به الاستاذ نبيل فهمي. انهيار الأوضاع في الإقليم وبالتالي الضعف الشديد الذي انتاب الرافعة الأساسية للقضية الفلسطينية

وهي الرافعة العربية، وحتى ربما التأثير السلبي الذي حل بالقضية الفلسطينية بسبب ما يجري حولنا في الاقليم، أي في بعض الدول العربية. هذه هي التحديات الرئيسية من وجهة نظري، والسؤال يبقى، كما طُرح قبل ذلك، ماذا نفعل في مواجهة كل ذلك؟

بالنسبة للتحدي الأول اعتقد أن المطلوب هو إعادة الاعتبار للمؤسسة السياسية الفلسطينية وإعادة بنائها، تفعيل الحياة السياسية الداخلية، دمقرطة أوضاعها داخلياً، والأهم ربما، اتخاذ مواقف سياسية واضحة تعيد ثقة الشعب بهذه المؤسسة السياسية. طبعاً هذا الكلام ليس كلاماً نظرياً، نحن نتحدث على سبيل المثال عن منظمة التحرير الفلسطينية، المجلس الوطني الفلسطيني لم ينعقد منذ عشرين عاماً، نحتاج إلى عقده، تجديد دمائه، نحتاج إلى مجلس مركزي جديد، نحتاج إلى انتخاب لجنة تنفيذية جديدة، ويجب أن نقوم بنفس العمل مع النقابات، مع التنظيمات السياسية، الانتخابات العامة، الكثير من هذه المؤسسات يجب بالفعل أن نعيد بناءها، وأن نفعّل الحياة السياسية الداخلية، ودمقرطة الأوضاع كما ذكرت، وبدون ذلك ستكون هناك كارثة كبرى تحل بالشعب الفلسطيني وبالقضية الفلسطينية.

في مواجهة التحدي الثاني علينا، بطبيعة الحال، أن نعمل من أجل إنهاء الانقسام واستعادة وحدة النظام السياسي الفلسطيني ووحدة الجغرافيا، من وجهة نظري هناك ثلاثة متطلبات أساسية لتحقيق ذلك، المتطلب الأول قبول حماس بشكل واضح لا يقبل التأويل بالتخلي عن سيطرتها على قطاع غزة بما في ذلك السيطرة الأمنية والسيطرة الإدارية والسيطرة على كافة مناحي الحياة، مهما كان هذا صعباً، يجب أن يكون القبول بهذا واضحاً. والمتطلب الثاني هو القبول الواضح من قبل حركة فتح بالشراكة السياسية الكاملة مع حركة حماس في النظام السياسي، بما يشمل منظمة التحرير الفلسطينية بهيئاتها المختلفة، والسلطة الفلسطينية أيضاً بهيئاتها المختلفة، الحكومة والجهاز الوظيفي في قطاع غزة والضفة الغربية. والمتطلب الثالث هو التوافق السياسي البرامجي وليس الكلام النظري فقط، كلام جدي ضمن برامج، برنامج لمنظمة التحرير الفلسطينية يمثل الاجماع الوطني الذي يلزم كل قطاعات الشعب الفلسطيني، وأظن أن مركزه هو إنجاز الاستقلال الوطني وتحقيق السيادة في دولة فلسطين على حدود الـ ١٩٦٧ وعاصمتها القدس. وبرنامج آخر للحكومة يمكنّها من أن تتعامل مع العالم الخارجي، مع اسرائيل، مع الغرب الذي يدفع الجزء الكبير من الفاتورة.. الخ.

إذن يجب أن يكون هناك وضوح في الأساس السياسي للعمل المشترك، يتفرع عن هذه المتطلبات الأساسية عدد كبير من المسائل المهمة الأخرى، السلاح، أشكال المقاومة، الموظفين، تعزيز الحياة الديمقراطية، الانتخابات، متى وكيف...الخ من كل هذه الامور.

برأيي أنه بدون الموافقة والاتفاق على هذه المتطلبات، لا توجد إمكانية لتحقيق، لا أريد أن

استعمل مصطلح المصالحة لأنه أصبح مقيتا، إنهاء الانقسام واستعادة الوحدة، (سوف نسمع من الأخ عزام بعد قليل) أنا برأيي أنه مهما بلغت حنكة الأخ عزام والفريق، ومهما بلغت حنكة ومحاولات الأخوة من الجانب الآخر، لن يكون ممكناً إنهاء الانقسام، ليس بسبب يتعلق بهم، لكن بسبب غياب الموافقة الواضحة على هذه المتطلبات الثلاث من قبل الجانب الآخر.

يمكن أن نختلف قليلاً من يتحمل المسؤولية الأكبر، برأيي حماس تتحمل المسؤولية الأكبر، الآخرين يمكن أن يروا غير ذلك، لكن موضوعياً الأمور هكذا ولا يمكن ان نتجاوز هذه الحقيقة.

التحدي الثالث، ماذا نفعل في مواجهة انهيار العملية السياسية والمشروع الاسرائيلي البديل، يجب أولاً إعطاء الأولوية المركزية لمحاربة الاستعمار الاستيطاني في فلسطين، داخلياً وإقليمياً ودولياً، لا بد من تعبئة الشعب الفلسطيني في كافة قطاعاته، لا بد من التشريع، ومن تحريم العمل في المستعمرات، ولا بد من تحريم التعامل مع منتجات المستعمرات، يعني عملية تعبئة حقيقية للمجتمع الفلسطيني بكافة قطاعاته، موجّه ومسخّر في هذه الحرب ضد الاستعمار الاستيطاني.

إقليمياً، على الدول العربية، بما في ذلك الدول التي لها معاهدات مع إسرائيل أن تتخذ خطوات تنفيذاً لالتزاماتها التعاقدية وفقاً للقانون الدولي الإنساني، بإجراءات معينة للمساهمة في هذه الحرب.

دولياً، يجب أن نخلق منظومة متكاملة من العقوبات على المستعمرات والمستعمرين والهيئات التي تعمل في الأراضي الفلسطينية المحتلة، هذا مختلف عن الـ BDS أو حركة المقاطعة، فالثانية تعتمد على القيم الاخلاقية والسياسية، أنا أتحدث عن منظومة تقوم على أساس قانوني، الدول مُجبرة على القيام بواجباتها ضمن هذه المنظومة.

إذن، الأهمية المركزية لمحاربة الاستعمار الاستيطاني باعتباره الخطر المركزي الذي يواجه الشعب الفلسطيني، والوجود الوطني الفلسطيني.

الأمر الثاني يبدو أنّه تحصيل حاصل، لكن اعتقد أن هناك حاجة لإعادة التأكيد على الهدف الوطني المركزي للعمل الفلسطيني، طبعاً هو جوهر الاجماع الوطني، ربما بصياغات مختلفة، وهنا الصياغة اللازمة، على ما أعتقد، هي انجاز الاستقلال الوطني وممارسة السيادة، بدلا من الصياغة: "إقامة الدولة، وبدلاً من حل الدولتين"، لأن هذا الانجاز هو الحق الطبيعي للشعب الفلسطيني، وليس نتيجة التفاوض، والتفاوض مع اسرائيل يأتي لتحقيق أشياء أخرى، بما في ذلك طبيعة العلاقة، والحدود النهائية.. الخ.

لكن المطلوب أيضاً، إعادة تأكيد هذا، لأن الكلام كثير عن حل الدولة الواحدة، وهي بالحقيقة يوتوبيا وكلام فارغ، فقط يلحق ضرراً شديداً بالقضية الفلسطينية، لأن النتيجة العملية الوحيدة لكلام من

هذا القبيل هو شرعنة الاستعمار الاستيطاني، لأنه عندما تزيل خط الهدنة لعام ١٩٤٩ لن يعود هناك أساس قانوني، لأنه لا قانونية ولا شرعية للاستعمار الاستيطاني للأرض الفلسطينية، على الأقل يجب التمسك بمركزية هذا الهدف الوطني مع هذه الصياغة التي تستجيب لبعض التطورات السياسية.

الأمر الثالث المطلوب هو إنهاء العملية السياسية القديمة كما عرفناها، وإنهائها إلى غير رجعة، ولا نبقى ندور حولها، لكن بالمقابل المطالبة بعملية سياسية جديدة، على أسس جديدة، وبمقاربة مختلفة، بمقتضى هذه المقاربة يقوم المجتمع الدولي ممثلاً بمجلس الأمن بوضع الأساس الواضح للحل السياسي الذي يمكن على أساسه أن تقوم العملية السياسية، ليست الاطراف من يفعل ذلك، إنما المجتمع الدولي واستناداً للعديد من القرارات السابقة، طبعاً، أعرف ان هذا الأمر صعب، لكن إذا كان هناك ثمة ثبات سياسي واضح من الجانب الفلسطيني يمكن أن يقود إلى نتائج معقولة ضمن فترة زمنية لا بأس بها، لكن نستطيع ان نتحملها، لا يوجد اختصارات، وبدون محاربة الاستعمار ودون حرب حقيقية عليه، وبدون مطالبة جدية بمقاربة مختلفة تنهي العملية القديمة وتبدأ بعملية جديدة، لن نحقق أي تقدم في هذا المجال.

التحدي الرابع والأخير هو طبعاً التحدي الإقليمي، أعرف أن الأخوة الآخرين أعلم مني في هذا المجال، لكن وبشكل سريع، علينا أن نستمر في مواجهة المنظمات الاسلامية المتشددة أو العنف الإسلاموي، ليس فقط بأشكال أمنية، وإنما أيضاً بأشكال فكرية وسياسية، وبإمعان الفكر الحقيقي بالبدائل اللازمة لهذه المواجهة، لكن يجب أن نكون عارفين أن هذه المعركة بلا هوادة، بنفس الوقت علينا ربما أن نتوصل إلى استنتاجات نهائية باتجاه ما يسمى بالتيار الاسلامي المعتدل، هل يوجد أمل منه أم لا؟ وهذا، أعتقد، يجب ان يتم ضمن أدوات قياس واضحة المعالم، يعني أولاً يجب ان يلتزم الجميع بقبول التقاسم الوطني والتناسق الوطني، لا وجود لتنظيمات عابرة للحدود، لأن هذا يُدخلنا في مفاهيم سياسية، وأيديولوجية مختلفة، إذا كان هناك قبول في التقسيم الوطني يمكن أن يكون هناك مدخل صغير يقوم على أساسه، يجب أن يكون على أساسه الرفض المطلق للعنف الاسلامي ويجب ان يكون جزءاً منه.

يجب أن يكون هناك قبول حقيقي للديمقراطية وتداول السلطة، وأن يكون كل ذلك على أساس مراجعات فكرية واضحة وملزمة لهذه الاتجاهات حتى تصبح المسألة جادة وإلاّ لن يكون هناك فرق بينهم وبين الاطراف التي تتبنى العنف.

يجب أن نتعامل مع كل هذه الظاهرة بأسلوب أو بآخر ونريد حل هذه المسألة بطريقة واضحة ذهنياً تساعدنا في المضي قدماً للأمام.

النقطة الثانية هي رفض الطائفية في الحقيقة، وأساساً فكرة التناقض الطائفي السني – الشيعي التي سوف تسبب دماراً واسعاً للمنطقة، لا بد من رفض هذا، والتمسك بالبعد الاسلامي الحقيقي، هذا لا يعني قبول سياسات إيرانية خاطئة، لا يعني السماح لإيران بالتغلغل وممارسة نفوذ لا مجال له في بعض الدول العربية، على سبيل المثال، ليس هذا المقصود. لكن هذا يمكن مواجهته على قاعدة الموقف العربي المجابه لمثل هذه السياسات، وإن شئت عربي فارسي، لكن ليس سني شيعي، هذه مسألة تنم عن مخاطر جديدة وأعتقد إذا لم يتم مواجهتها حالياً سنقع في مخاطر هائلة لاحقاً.

أخيراً حسم الموقف باتجاه المحافظة على الدولة الوطنية، كما نعرف خاصة في سوريا وفي العراق، يجب المحافظة على الدولة الوطنية. أنا أؤمن بالوطنية بدايةً ثم بالدولة الوطنية لأنها أساس النهوض العربي الذي يجب ان نتمسك به، هناك نقاش كبير حول تقسيم هذه الدول، ومناقشة المسألة الكردية، قبل انتظار ما ينتج عن مؤتمر جنيف بالنسبة لسوريا.

على النخب السياسية أن تناقش هذه المسألة وتحسمها بشكل أو بآخر للمحافظة على الدولة الوطنية فنحن معها إلى النهاية، لا يمكن إعادة النظر على أرضية مسائل معينة، وبدون هذا سيكون الوضع صعباً جداً خلال المرحلة القادمة، ويجب أن نمتلك الأساس النظري للمواجهة السياسية، هذا ما حاولت ان اقدمه من خلال هذه النقاط وعلى عجالة، ولم أتطرق إلى تفاصيل الحركة السياسية، إنما بعض المفاهيم التي عليها يجب ان تستند الحركة السياسية، باعتبارها المفاهيم المَوَجِّهة، إذا كان عليها اتفاق، نريد ان نتفق على مفاهيم واضحة عند تصدينا لمعالجة هذه المشاكل الكبرى التي تحيق بالقضية الفلسطينية وبالمنطقة العربية بشكل عام. شكراً.

السيد عزام الأحمد

لا بد أن أشير أولاً إلى أن حركة حماس تأسست في نهاية عام ١٩٨٧ بعد انطلاق الانتفاضة الاولى بشهرين، وقبل ذلك كان الشهيد الخالد ياسر عرفات قد أمضى خمسة وعشرين عاماً وهو يحاول أن يقنع حركة الاخوان المسلمين أن ينضموا إلى مسيرة الثورة الفلسطينية المعاصرة دون أي نتيجة، وكان لي شرف المشاركة في جزء من تلك اللقاءات في بغداد والكويت. أيضاً بعد تشكيل حماس، وعندما قامت السلطة الفلسطينية، جرت محاولات كثيرة لإقناعها بالانضمام للمسيرة الوطنية في ضوء إقامة السلطة الوطنية وفق اتفاق أوسلو، على أساس ان هذه خطوة في الطريق نحو إقامة الدولة الفلسطينية المستقلة، ولكن، حماس رفضت أيضاً وبشدة، وكثير من الجالسين هنا شهدوا صدامات مسلحة، ومحاولات وصلت حد المس بشخص ياسر عرفات في أحد مساجد غزة. أخيراً

نجح الأخ أبو مازن عام ٢٠٠٦ بإقناعهم بالمشاركة في الانتخابات الثانية، علماً أن ظروف الاحتلال عام ١٩٩٦ كانت أفضل من الظروف عام ٢٠٠٦، وصفت الظروف في انتخابات عام ١٩٩٦ بانها خيانة، ولكن لا أدري كيف أصبحت الانتخابات عام ٢٠٠٦ وطنية.

وثمّة إشارة أقولها للتذكير فقط، نحن لم نوقع إلا اتفاق مصالحة واحد، ليس صحيحاً أن هناك سلسلة اتفاقات، وهو الاتفاق الذي وقعته حركة فتح في ١٥/ ٢٠٠٩/١٠ ورفضت حماس التوقيع رغم اتفاقها المسبق وبعض الاخوان وهنا أقصد اللواء محمد إبراهيم وهو موجود في الجلسة كان شاهدا على المشاركة، وانا كنت من الذين توقعوا أن حماس لن تحضر، وقلت ذلك للوزير أحمد ابو الغيط والوزير المرحوم عمر سليمان، ورغم انني لم أكن من الموافقين على التوقيع ولكن الرئيس ابو مازن أصرّ على التوقيع، وفعلاً اعطونا مهلة اسبوع وجئنا للقاهرة ووقعنا وحماس لم تحضر، وطلبت من الأخوة في القيادة المصرية آنذاك، أصدِروا بيانا، حسب وعدكم، من التزم ومن لم يلتزم. جاءني إلى الفندق اللواء محمد إبراهيم وسلمني البيان الذي يمتدح فتح على التزامها وحمّل حماس مسؤولية عدم التوقيع، هذه حقائق يجب أن تبقى لأن لها مدلولات حتى هذه اللحظة.

هناك اتفاقات قبل الانقسام لا علاقة لها بالانقسام، تأتي ضمن جهود القيادة الفلسطينية لضم حماس إلى المسيرة الوطنية، أبرزها إعلان القاهرة ٢٠٠٥ الذي تم التوقيع عليه في مدينة ٦اكتوبر بحضور كل الفصائل الفلسطينية بما فيها حركتي حماس والجهاد الاسلامي، من أجل تشكيل مجلس وطني جديد وتفعيل وتطوير منظمة التحرير الفلسطينية من خلال اقامة انتخابات حيث ما أمكن، وبالتفاهم حيث لا يمكن ذلك.

وهناك اتفاق آخر بطبيعة سياسية استكمالاً للجهود، قبل الانقسام أيضاً، أُطلق عليه وثيقة الوفاق الوطني عام ٢٠٠٦ والذي يطلق عليه البعض وثيقة الأسرى، وفي الحقيقة يبتعد كثيرا في مضمونه عن وثيقة الأسرى ولكنه استند إليها، وأُشهر اتفاق المصالحة في ٥/٤/ ٢٠١١ بعد التوقيع عليه من قبل حماس، ثم من الفصائل، والفصائل لم تتأخر لأننا طلبنا منهم الانتظار حتى توقع حركة حماس، أي قضينا حوالي السنتين دون توقيع من قبل حماس، علماً أن الوثيقة نفسها التي وقعتها فتح عام ٢٠٠٩ لم تختلف ولا بكلمة واحدة عن الوثيقة التي وقعتها حماس عام ٢٠١١ الثلاثة أسطر الأولى منها شكر للرئيس مبارك على رعاية مصر للمصالحة (كان الرئيس مبارك محتجزاً في شرم الشيخ) ورغم ذلك وقعوا الوثيقة، وطلب منا الاخوان التوقيع على الوثيقة من جديد لذهاب مبارك ولوجود المجلس العسكري، (فقط عليكم فهم المغزى من ذلك ولماذا قلتها)، إذن لماذا التأخير؟ سنتان لم توقعوا ولم تضيفوا كلمة واحدة ولم تغيروا كلمة واحدة، ووقع الاتفاق. فلماذا لم توقعوا من البداية عام ٢٠٠٩.

وبقينا ندور في حلقة مفرغة دون أي خطوة للأمام إلى أن حُلت عقدة مَن يرأس حكومة الوفاق الوطني في إعلان الدوحة الذي وقع في عام ٢٠١٢ ، وبعد أربعين دقيقة من توقيع الأخ خالد مشعل على الاعلان، أصدرت حماس في قطاع غزة بياناً برفض الاعلان، وبعد أسبوع جئنا إلى القاهرة وطلب الأخ خالد مشعل من الأخ ابو مازن إرجاء تنفيذ الاتفاق، ولم نبدأ بالتنفيذ إلا بعد سنتين أي في ٢٠١٤/٤/٢٣، جرى اجتماع في غزة بين وفد من منظمة التحرير وكنت أنا رئيسا للوفد، وكان في الوفد بعض الاخوان من المتواجدين في القاعة، لم نأتِ بجديد، ولم يكن إعلان أو اتفاق جديد، إنما هو آليات لتنفيذ ما تم الاتفاق عليه سابقاً، في غضون ذلك شُكلت حكومة الوفاق الوطني في ٢٠١٤/٦/٢٠، وبعد أقل من أسبوع بدأ التخريب على الحكومة في غزة عندما هوجمت البنوك بسبب قضية الرواتب، دون أي مبرر وكأنه لا يوجد قانون ولا نظام ولا حكومة ولا شيء.

ظهر أن الأخوة في حماس لا يريدون أن يعطوا فرصة لحكومة الوفاق الوطني، وبعد عشرة أيام شنت إسرائيل الحرب العدوانية الأخيرة على قطاع غزة، فغطت على الموضوع تماماً، واستمرت طيلة الحرب، وجمد كل شيء، لأننا قلنا يجب أن نتوحد، ونترك كل الخلافات جانباً حتى نجابه العدوان الاسرائيلي على قطاع غزة. للأسف وبعد الحرب، لم تُعطَ الحكومة فرصة، وسمعتم عن احتجاز الوزراء في الفنادق، وكيف مُنعوا من دخول وزاراتهم تحت حجج، لا يسمح الوقت بالحديث فيها وكلها معروفة، وأنا أحببت أن أشير إليها. واعتدي على وزير الصحة الذي ذهب أثناء العدوان الاسرائيلي للمشاركة والاشراف على معالجة جرحى العدوان.

تمسكنا بحكومة الوفاق رغم أنها لا تمارس كامل مهامها، تعمل في الضفة وغير مسموح لها أن تعمل في غزة، وقامت وتقوم بدفع أكثر من ١٠٠ مليون دولار شهرياً لتلبية احتياجات أهلنا هناك، وقلنا من أجل انجاح سياسة الاعمار على ضوء مؤتمر القاهرة، ونتمسك بشعرة معاوية مع حماس، وبحكومة لعلها تلغي وجود حكومتين في فلسطين.

حاولنا بعد نهاية الحرب إنقاذ حكومة الوفاق الوطني رغم الخلاف بين حماس ومصر بسبب تدخل حماس بشؤون مصر الداخلية وفق الاتهامات المصرية، أقنعنا الأخوة في مصر أن يستضيفونا مرة أخرى واجتمعنا في القاهرة في ٢٠١٤/٩/٢٥ وأصدرنا شيئاً أسمه تفاهمات القاهرة لحل الاشكاليات التي تحدثت عنها حماس حول عمل حكومة الوفاق الوطني، ولكن للأسف مر شهران وجرت التفجيرات في غزة، وتفجير المنصة لإحياء ذكرى شهيدنا الخالد ياسر عرفات، وتجمد كل شيء، وحاولنا أكثر من مرة ولكن دون فائدة، ونحن في حركة فتح أوقفنا الاتصالات في بداية شهر تشرين الأول/ أكتوبر الماضي، ثمّ حاولنا معهم في لقاء بيروت في ظل الهبة الشعبية الراهنة، حتى نطور الهبة ووضع المقاومة الشعبية في فلسطين، لكن دون فائدة.

جاءنا اقتراح من قطر عبر الأخ صائب عريقات بإجراء حوار وإنقاذ الوضع وتشكيل حكومة وحدة وطنية بدل حكومة الوفاق الوطني، وفق الرؤية التي طرحها الرئيس أبو مازن، وافقنا على الفور، وأجرينا اتصالات من أجل التمهيد للقاء، وفعلاً حصل اللقاء في الدوحة قبل عشرة أيام، قلنا للأخوة في حماس لا نريد أن نفتح الورقة المصرية، لا نريد أن نتحاور من جديد، لدينا وثيقة كافية، المطلوب صدق بالالتزام، وإرادة وطنية للتنفيذ، قلنا لهم أنتم لم تلتزمون (بهذه الصراحة) وأبلغنا ذلك للحكومة القطرية قبل أن نلتقي مع حماس، نحن جئنا لنقطتين، نقترح آليات لتنفيذ ما سبق أن تم الاتفاق عليه، التغيير فقط بدل حكومة وفاق، حكومة وطنية من الفصائل وهذا لا يمنع وجود كفاءات وطنية مستقلة في الحكومة.

بعد حوار استمر لمدة يومين توصلنا إلى مقترح آليات بالشكل التالي:

اولاً) تشكيل حكومة وحدة وطنية فصائلية تقوم بمهماتها ومسؤولياتها وصلاحياتها وفق القوانين والانظمة المعمول بها في السلطة الوطنية الفلسطينية، تقوم بواجباتها تجاه أهلنا في غزة وفي الضفة وبدون أي تدخل من أي جهة في غزة او في الضفة، تقوم بالمساعدة في تنفيذ اتفاق المصالحة ومعالجة آثار الانقسام بكل صوره وأشكاله.

أصرّ الأخوة أن يطرحوا قضية الموظفين الذين تم تعيينهم مرة أخرى، لكن قلنا لهم هذا موجود بالاتفاق، ارجعوا للورقة المصرية فقد نصت على تشكيل لجنة إدارية وقانونية لمعالجة هذه المشكلة وأنتم لم تلتزموا، نتمسك بذلك ونترك لرئيس السلطة عندما تلتقون تبحثوا هذه المسألة، وتم الاتفاق على هذه النقطة.

ثانياً) إجراء انتخابات بعد ستة أشهر من تشكيل حكومة الوحدة الوطنية، يقوم الرئيس بالتشاور لتحديد موعد ملائم للانتخابات الرئاسية والتشريعية، خلال هذه الفترة يتم التفاهم ومعالجة القضايا العالقة المتعلقة بالانتخابات في ضوء ما سبق أن تم الاتفاق عليه.

أيضاً طرحوا نقاطاً أخرى وافقنا أن نناقشها، وهي ليست جديدة، موعد اجتماع المجلس التشريعي، قلنا لهم في ظل الخلاف القائم نتمسك بما تم الاتفاق عليه ووقعنا عليه ثلاث مرات سابقاً.

بعد تشكيل الحكومة يجتمع رؤساء الكتل والقوائم البرلمانية، ويتفقوا على موعد ويطلبون من الرئيس تحديده، وهذا ما تم بالفعل. ثم لجنة تفعيل وتطوير منظمة التحرير الفلسطينية، والبعض يحاول تسميتها إطار قيادي مؤقت، وأنا أقول لكم لا يوجد على الاطلاق شيء اسمه إطار قيادي مؤقت، هذه لجنة وتقليد فلسطيني منذ عام ١٩٦٩، تُشكّل عندما يُشكّل مجلس وطني جديد، من الأمناء العامين للفصائل ومن اللجنة التنفيذية للمنظمة، لكن البعض أراد أن يحولها إلى قيادة فلسطينية جديدة، وهذا

ما رفضناه وأبرزنا الوثائق الموقعة، واتفقنا على عقد اجتماع للجنة تفعيل وتطوير منظمة التحرير الفلسطينية، بعد خمسة أسابيع من تشكيل الحكومة، ثم أعطينا لأنفسنا مهلة لمدة اسبوعين حتى نعود إلى فصائل المنظمة التي شاورناها قبل الذهاب وأعطتنا الموافقة على الذهاب، لأننا تعودنا في حركة فتح ألا نتصرف منفردين، وأيضاً حماس تعود إلى قيادتها، فالمؤمن لا يلدغ من جحر واحد مرتين، لأننا عندما كان خالد مشعل يوقع يتم الرفض بعد اربعين دقيقة، وخالد مشعل رئيس وفد الدوحة، وقلنا نجتمع بعد اسبوعين إذا كان هناك ملاحظات جوهرية، ثم يحضر الرئيس ابو مازن.

للأسف في الاسبوع الذي سبق الذهاب للدوحة، وفي يوم وصولي هناك، كانت كل التصريحات تصدر من غزة سلبية وضد الجهد المبذول، وطرحنا ذلك على الأخ خالد مشعل وعلى الجميع. وأيضاً بعد عودتنا من الدوحة وبعد مرور يومين، بدأت حماس بتوزيع الورقة كتعميم داخلي، بدأت تصدر تصريحات من حماس كلها سلبية حتى اليوم، رغم اتفاقنا التزام الصمت، نحن التزمنا ولم ندلي بأي تصريح، وكذلك الفصائل التزمت.

جملة أخيرة، والاخوة الذين تحدثوا يشاركونني ذلك، حتى الانقسام ليس قضية فلسطينية _ فلسطينية، والاجتماع الذي عقده وزراء الخارجية العرب في ٢٠٠٧/٦/١٥ وكان الأخ عمرو موسى حاضرا في الاجتماع، انقسم وزراء الخارجية العرب ،وفق الانقسام الذي حصل في غزة في نفس اليوم، حول موضوع الانقسام، لأن مواقف الدول العربية معروفة ولا أريد أن استعرض ذلك، وأذكر هنا أمام الأخ مصطفى عثمان الموجود معنا لأن أول دولة عربية بذلت جهداً لإنهاء الانقسام هي السودان وصاغوا ورقة وذهبت للتوقيع عليها ولكن وفد حماس لم يحضر في ذلك الوقت، وعقدت مؤتمرا صحافياً مع الأخ مصطفى عثمان بناء على طلبه وقال: يبدو أننا فقراء لا دور لنا.

آمل أن لا تواجهنا عقبات في الأيام القادمة لنخرج من هذه الكارثة لأنها فعلا كما أشار الأخ عمرو موسى الانقسام أخطر من الاستيطان، وأظهر شارون، وهو المخطط الأول للانقسام، عندما قال: بمشروعه إعادة الانتشار، وليس الانسحاب من غزة، وأتحدى وجود أي وثيقة من الجانب الاسرائيلي تتحدث عن الانسحاب من غزة، قال إعادة الانتشار، وأقنع شارون اليمين الاسرائيلي بإعادة الانتشار في غزة دون التنسيق مع القيادة الفلسطينية، حتى نخلق أزمة داخلهم ونحن نكمل تهويد القدس وبناء الجدار في الضفة الغربية وبناء الكتل الاستيطانية. وشكرا.

أوراق فلسطينية

اسرائيل تتحدى الامم المتحدة ومحكمة العدل الدولية وتواصل بناء جدار الفصل العنصري

تيسير خالد*

جدار الفصل العنصري الاستيطاني في صورته الراهنة هو في الواقع بديل خريطة المصالح الاستراتيجية وخطوط الفصل (الشوارع والطرق) الطولية والعرضية، التي كانت مطروحة على جدول أعمال الليكود قبل التحول الى فكرة الجدار لمنع قيام دولة فلسطينية متصلة وقابلة للحياة، على حد تعبير خارطة طريق اللجنة الرباعية الدولية، حيث يبدو الهدف هو نفسه من حيث تمزيق الضفة الغربية الى مجموعة من المعازل الرئيسية ومجموعة من جيوب العزل يتم حشر المواطنين الفلسطينيين داخلها كترتيب نهائي يرسم صورة التسوية السياسية التي كان الليكود وما زال يسعى لفرضها على الشعب الفلسطيني. ومن هنا يصعب بل يستحيل تصديق ادعاء حكومات اسرائيل بان جدار الفصل والضم الاستيطاني الذي بدأت اسرائيل تنفيذه على الارض في الضفة الغربية بعد إعادة احتلال المدن والقرى والمخيمات الفلسطينية عام ٢٠٠٢ (عملية السور الواقي) هو جدار أمني وجاء في سياق الرد على الانتفاضة الفلسطينية الثانية والعمليات التي تستهدف المدنيين في اسرائيل، فالجدار في الحقيقة ليس جدارا أمنيا بل هو مرحلة خطيرة في المشروع الاستيطاني العدواني التوسعي ويأتي في سياق مخطط تنفذه حكومة اسرائيل ضد الشعب الفلسطيني.

ومن يعود بالذاكرة الى الوراء ويستذكر خريطة المصالح الاستراتيجية يدرك على الفور ان جدار

---

* عضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية
عضو المكتب السياسي للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين

الفصل العنصري الذي بدأت حكومة شارون العمل به في حزيران ٢٠٠٢ يتطابق في الاهداف مع تلك الخريطة التي صممت في حينه من اجل خدمة المشروع الصهيوني الاستيطاني في الضفة الغربية. يختلف مسار الجدار طبعا عن خريطة المصالح الاستراتيجية في التفاصيل، غير انهما يتطابقان في الجوهر من حيث كونهما يرسمان بصورة واضحة اتجاهات التسوية السياسية التي كان ارئيل شارون يسعى لفرضها بالقوة على الشعب الفلسطيني. خريطة المصالح الاستراتيجية تلك طرحت على جدول الاعمال من قبل شارون كوزير للبنى التحتية واسحق مردخاي كوزير للدفاع في حكومة نتنياهو بعد اتفاق الخليل الذي تم التوقيع عليه بين الجانبين الفلسطيني والاسرائيلي في بداية العام ١٩٩٧. وفقا لخريطة المصالح تلك تبقي اسرائيل بيدها ٦٣٪ من مساحة الاراضي الفلسطينية في الضفة الغربية من بينها قطاعان امنيان الاول بعرض ٧ - ١٠ كم في عمق الاراضي الفلسطينية على امتداد خط الهدنة والثاني بعمق ٢٠ كم من نهر الأردن غربا. هذه كانت الفكرة الرئيسية لخريطة المصالح عند شارون بينما دعا مردخاي الى قطاع امني اقل عمقا في الغرب وتحديدا ٥ - ٧ كم على امتداد خط الهدنة. وهكذا يتضح ان الفارق بين خريطة شارون وخريطة مردخاي لم يكن فارقا جوهريا، خاصة بعد ان تطابقت وجهات النظر بشأن ضم غور الاردن وما يسمى بصحراء يهودا للقطاع الامني الى الغرب من نهر الاردن.

خريطة المصالح الاستراتيجية الشارونية طرحت في حينه في ذروة الحوار والمفاوضات حول تنفيذ النبضة الثانية من اتفاقية المرحلة الانتقالية بين الجانبين الفلسطيني والاسرائيلي اي قبل اكثر من عامين على مفاوضات كامب ديفيد في النصف الثاني من العام ٢٠٠٠ ومفاوضات طابا مطلع العام ٢٠٠١ وبالتحديد قبل ان تندلع انتفاضة الاقصى نهاية ايلول من العام ٢٠٠٠، الامر الذي كان يؤشر بوضوح على نوايا ومخططات الضم والتوسع لدى الجانب الاسرائيلي. في حينه لم تكن فكرة الجدار قائمة في أوساط الليكود والاحزاب اليمينية في إسرائيل بقدر ما كانت خطوط الفصل (الشوارع والطرق) الطولية والعرضية من الشمال الى الجنوب ومن الشرق الى الغرب هي الفكرة المسيطرة في مخطط الفصل العنصري والتوسع الاستيطاني في الضفة الغربية. وقد تغير الموقف بعد أن أعادت اسرائيل احتلال المدن والقرى والمخيمات في الضفة الغربية، فاعتمدت حكومة شارون فكرة بناء الجدار كبديل عن خريطة المصالح الاستراتيجية.

يبلغ طول الجدار في جميع مراحله نحو ٧٥٠كم في الغرب، وهو يتلوى كالأفعى في بطن الضفة الغربية على حد تعبير الرئيس الامريكي جورج بوش، ويترتب عليه في حال تنفيذ جميع مراحله ضم ٢١٪ من مساحة الضفة الغربية في الغرب. وفي منطقة القدس يبتلع الجدار ٢٪ من مساحة الضفة الغربية اذا اقيم في حدود القدس الموسعة ونحو ١٠٪ اذا اقيم في حدود القدس الكبرى. وعندما

يكون الجدار على هذا النحو فانه يبدو على حقيقته كجدار فصل عنصري استيطاني لحماية امن المشروع الاستيطاني في الضفة الغربية قبل ان يكون سياجا او جدارا لحماية امن اسرائيل والمدنيين فيها

من المهم للغاية في سياق توضيح الموقف من الجدار تسليط الضوء على التحول الذي طرأ على موقف الليكود من فكرة الجدار فقد انتقل الليكود في موقفه من مخطط خريطة المصالح الاستراتيجية وترتيباتها على الارض الى خطة الجدار فقط بعد شهرين من اعادة احتلال مناطق (أ، ب). ففي نيسان من العام ٢٠٠٢ اعاد الجيش الاسرائيلي احتلال المدن والبلدات والقرى والمخيمات التي كانت تحت السيطرة الفلسطينية الكاملة او الجزئية وفقا لاتفاقية المرحلة الانتقالية، وفي حزيران من نفس العام بدأت حكومة إسرائيل العمل ببناء المرحلة الاولى من الجدار بطول ١١٠كم من شمال جنين وحتى جنوب طولكرم. وقد كانت إعادة احتلال مناطق السلطة خطوة حاسمة نحو تنفيذ المشروع بعد ان حاصرت قوات الاحتلال المواطنين الفلسطينيين داخل المدن والقرى والمخيمات في ظل اوامر وترتيبات منع التجول للحيلولة دون تطور حركة جماهيرية واسعة مناهضة للجدار ومن هنا كان صحيحا تماما وصف تلك الحرب التي شنتها حكومة شارون ضد الشعب الفلسطيني بحرب سلامة المستوطنات، ففي ظلها بدأ تنفيذ مرحلة خطيرة في المشروع الاستيطاني العدواني التوسعي الذي جاء الجدار يعبر عنه اصدق تعبير.

ويعتقد البعض ان الجدار هو فقط ما يبدو للعيان في قاطعه الغربي، غير ان هذا الاعتقاد خاطئ من أساسه. فقد كان الجدار في مخطط حكومة اسرائيل يمتد على قاطعين، القاطع الغربي في صورته الظاهرة والواضحة والقاطع الشرقي من نهر الاردن صعودا الى شفا غور الاردن في صورته الحقيقية غير المعلنة. ويترتب على هذا المشروع الاستيطاني العدواني التوسعي الخطير سلسلة من النتائج على حاضر ومستقبل الشعب الفلسطيني تحت الاحتلال في الضفة الغربية بما فيها القدس. فعلى مستوى السكان وفي حال استكمال اسرائيل بناء الجدار في قاطعيه الغربي والشرقي سيكون هناك ٤٠٠ - ٥٠٠ الف مواطن فلسطيني يعيشون خارج المعازل الرئيسية اي معازل جنين وطولكرم ونابلس ورام الله وبيت لحم والخليل اي يعيشون في جيوب او معازل فرعية وفي حالة من الحصار الخانق، وسيكون هناك ١٠٠ - ١٥٠ الف مواطن فلسطيني يعيشون خلف الجدار معزولين عن بقية المواطنين في الضفة الغربية وسوف يجدون انفسهم في وضع قانوني صعب للغاية هل هم فلسطينيون يعيشون في اسرائيل ام يسري عليهم قانون المقيم ام قانون المنطقة الحرام اي (بدون). وفي القدس كذلك سوف تترتب على استكمال بناء الجدار اثار خطيرة لان الهدف واضح من بناء الجدار في حدود القدس الكبرى وهو خفض نسبة السكان الفلسطينيين من ٣٥٪ كما هي الحال في

القدس الموسعة الى ٢٢٪ في القدس الكبرى الامر الذي يؤشر بوضوح بالغ على مشروع تهويد المدينة المقدسة. وعلى هذا تحديدا تترتب اثار سياسية لا يمكن ان تخفى حتى على المراقب من بعيد. فالجدار يرسم الحدود مع الجانب الفلسطيني التي تحول دون امكانية قيام دولة فلسطينية قابلة للتطور والحياة كما تنص على ذلك خريطة الطريق التي ادعت حكومة اسرائيل موافقتها عليها كأساس للتسوية السياسية. عمليا هذا يعني فرض مشروع للحكم الذاتي للسكان في الضفة الغربية بالقوة العسكرية وبإجراءات من طرف واحد على الارض.

وللجدار آثار أخرى متعددة كالآثار الاقتصادية وآخرها انعكاسات بناء الجدار على القطاع الزراعي الفلسطيني. فالجدار يصادر مساحات واسعة من الأراضي في الضفة الغربية ويجرف ويقتلع مئات آلاف الاشجار المثمرة، ويعزل مثلها عن امكانية وصول المواطنين اليها، ويحول الأراضي إلى مجال حيوي للمستوطنات والنشاطات الاستيطانية. ولعل اكثر المناطق تعرضا للأضرار هنا هي مناطق جنين وطولكرم وقلقيلية وسلفيت والأغوار وهي المناطق التي تعتبر بإنتاجها سلة غذاء الضفة الغربية وتسهم في حدود مقبولة في حصة الزراعة في الناتج القومي الاجمالي الفلسطيني وفي هيكل الانتاج الفلسطيني فضلا عن هيكل العمالة الفلسطينية في ظل الظروف الاقتصادية الصعبة للغاية، التي يعيشها الشعب الفلسطيني تحت الاحتلال . ابعد من ذلك فان الجدار يحكم السيطرة الاسرائيلية الكاملة على مصادر المياه الجوفية الفلسطينية ويحرم الفلسطينيين من الاستفادة من مياه الحوض الغربي في محافظة جنين وطولكرم وقلقيلية والحوض الشرقي في الاغوار والمرتفعات الشرقية ولا يبقي لهم غير الحوض الشمالي الشرقي في منطقة جنين ، وهو الاقل اهمية في مصادر المياه الجوفية الفلسطينية ، فضلا عن ذلك يلحق الجدار اضرارا فادحة بالآبار الجوفية التي كان المواطن الفلسطيني يعتمد عليها في تطوير القطاع الزراعي وفي تنمية ثروة زراعية تعتمد في حدود ضيقة على الزراعة المكثفة.

اثار اخرى كثيرة وخطيرة تترتب على هذا الجدار في المستوى الاجتماعي ومستوى خدمات التعليم والصحة وغيرها، البعض يحاول حصر هذه الاثار على البلدات والقرى الواقعة بين الجدار وخط الهدنة او الواقعة في المعازل الصغيرة او الجيوب في محافظات قلقيلية وسلفيت وقرى غرب رام الله او في محيط القدس او بيت لحم، غير أن الآثار أوسع من ذلك بكثير فالخدمات الاجتماعية وخدمات التربية والتعليم والصحة والاسكان والاشغال وغيرها لا يمكن توفيرها بحدودها المقبولة إلا على قاعدة وطنية تستند إلى التعامل مع الضفة الغربية بما فيها القدس باعتبارها وحدة اقليمية ، وهي تصبح متدنية وغير ذات جدوى اذا ما توزعت على مجموعة من المعازل الرئيسية ومجموعة أخرى من المعازل الفرعية والجيوب الملحقة بها أو المعزولة عنها، حكومة اسرائيل تدرك ذلك واكثر

من ذلك ولهذا فان مشروع الجدار مصمم ليكون في محصلته مشروعا سياسيا لفرض الحكم الاداري الذاتي للسكان ومشروعا استيطانيا بالدرجة الرئيسية.

لهذه وغيرها من الاعتبارات يعارض الشعب الفلسطيني ويقاوم بناء هذا الجدار باعتباره حقا أحد المراحل الأكثر خطورة في المشروع الاستيطاني العدواني التوسعي . وفي معارضته ومقاومته لهذا المشروع الاستيطاني الخطير الذي يقضي على كل امل لدفع جهود التسوية السياسية الى الامام، يستند الشعب الفلسطيني الى حقه الطبيعي في وطنه وحقه في الدفاع عنه بكل وسائل النضال والكفاح الوطني المشروعة . كما يستند كذلك الى الشرعية الدولية وهو مغزى تحوله الى محكمة العدل الدولية في لاهاي بقرار من الجمعية العامة للأمم المتحدة ، فالشرعية الدولية باستنادها الى معاهدة لاهاي (١٩٠٧) او اتفاقية جنيف الرابعة لعام ١٩٤٩ او الى قرارات مجلس الامن والجمعية العمومية للأمم المتحدة تحرم على اسرائيل كدولة احتلال ان تبني مثل هذا الجدار على الارض الفلسطينية المحتلة.

ومن هنا وجهت المجموعة العربية في الأمم المتحدة رسالة في تشرين اول من العام ٢٠٠٣ ، لرئيس مجلس الأمن الدولي ، تدعو فيها المجلس للنظر في الخروقات الاسرائيلية للقانون الدولي والقانون الدولي الانساني (معاهدة لاهاي لعام ١٩٠٧ واتفاقية جنيف الرابعة لعام ١٩٤٩) على خلفية مباشرة إسرائيل اعمال بناء جدار الفصل العنصري ، مستندة في ذلك الى التقرير الذي قدمته لجنة ، كانت الجمعية العامة للأمم المتحدة قد اوفدتها برئاسة السيد جون دوجارد ، للنظر في حالة حقوق الانسان في الاراضي الفلسطينية المحتلة منذ عام ١٩٦٧ ، ولا سيما الجزء الخاص والمتعلق ببناء الجدار .

مجلس الأمن الدولي، كما هي حالته في كل شأن يبحث في سياسة اسرائيل وقف عاجزا بفعل الحواجز والعراقيل ، التي وضعتها الادارة الأميركية في طريقه . وهكذا جرى التوجه الى الجمعية العامة للأمم المتحدة للنظر في تلك الخروقات . وفي سياق هذا انعقدت الجلسة الثالثة والعشرون من الدورة الاستثنائية الطارئة للجمعية العامة في كانون الأول من العام نفسه وقررت رغم معارضة الادارة الأميركية وحكومة اسرائيل الطلب من محكمة العدل الدولية تقديم رأي استشاري حول شرعية بناء اسرائيل للجدار على الأراضي الفلسطينية المحتلة . وخلال نصف عام من العمل الدؤوب قدمت المحكمة رأيها الاستشاري . وكانت النتيجة التي توصلت اليها المحكمة في رأيها الاستشاري متوقعة تماما . فقد طالبت المحكمة دولة اسرائيل بوقف العمل ببناء الجدار وهدم ما أنجز منه وجبر الأضرار الناجمة عن عمليات البناء وعمليات الهدم كذلك .

وحيث ان الجدار ، الذي بدأت اسرائيل ببنائه في حزيران من العام ٢٠٠٢ ، قد جاء في تصميمه وخطوات تنفيذه يعكس طبيعته باعتباره أحد اخطر مراحل المشروع الاستيطاني التوسعي الاسرائيلي ، فان محكمة العدل الدولية لم تخطئ التقدير او الهدف في الفتوى التي صدرت عنها في تموز من العام ٢٠٠٤ ، لا في الجانب السياسي من التقدير او في الجانب القانوني منه .

ففي الجانب السياسي حددت فتوى محكمة العدل الدولية ان الضفة الغربية بما فيها القدس في حدود حزيران ١٩٦٧ هي اراضي محتلة وليست اراض متنازع عليها وان بناء الجدار في مساره المحدد او في مساراته التي يمكن ان يستقر عليها بعد اي تعديل يضع قيدا على حق الشعب الفلسطيني في تقرير المصير وحقه في بناء دولته الفلسطينية المستقلة ، وهو حق كفلته قرارات الشرعية الدولية ، بما فيها قرار التقسيم رقم ١٨١ لعام ١٩٤٧ ، وحق لا ينتقص منه عدم تنفيذه في حينه او في مراحل لاحقه . الفتوى تدحض هنا الرواية الاسرائيلية والموقف الاسرائيلي حول هوية الارض ، التي تقيم عليها دولة اسرائيل هذا الجدار ، فهي الى جانب كونها اراضي الضفة الغربية المحتلة بما فيها القدس ، هي كذلك اراض خصصها القرار ١٨١ لدولة فلسطين . هذا جانب سياسي في غاية الاهمية في فتوى محكمة العدل الدولية ، فضلاً عن اهميته كذلك في جانبه القانوني . وهكذا تجاوزت الفتوى الجانب القانوني لتسلط الضوء على جانب سياسي يتصل بحق تقرير المصير للشعب الفلسطيني ، وهو حق تحاول اسرائيل من خلال بناء الجدار فرض قيود واسعة عليه .

ابعد من ذلك ، فقد سلطت الفتوى الضوء على وضع مدينة القدس العربية ومحيطها ، فقررت خلافاً للادعاء الاسرائيلي وقوانين الضم ، التي صدرت عن الكنيست ، ان القدس ، التي تبنى اسرائيل الجدار على أراضيها وفي محيطها ، هي اراض محتلة . وان القدس بهذه الصفة تخرج من دائرة الادعاء بانها عاصمة لدولة اسرائيل ، وقررت كذلك ان اسرائيل ملزمة بموجب القانون الدولي الانساني والقانون الدولي بشكل عام بضمان حرية الوصول الى الاماكن المقدسة الخاضعة لسيطرتها ، والتي تعرقلها وتعطلها من بين اجراءات أخرى عمليات بناء الجدار في القدس وفي محيطها.

ليس من السهل الفصل بين الجوانب السياسية والقانونية في فتوى محكمة العدل الدولية ،ومع ذلك يمكن القول ان الفتوى في الجانب القانوني المتصل بأعمال بناء الجدار قد حددت بوضوح ان مسار الجدار ، الذي اختارته اسرائيل ليس ضروريا وهو غير مقنع لتحقيق أهداف امنية ، فالجدار ، حسب فتوى المحكمة ، وهي السلطة القضائية الأعلى للأمم المتحدة ، هو في مساره والانظمة المرافقة له يشكل اعتداءً خطيرا على حقوق الفلسطينيين ، ولا يمكن تبرير الاعتداءات الناجمة عن الجدار ومساره بضرورات عسكرية أو بمتطلبات الامن القومي الاسرائيلي او النظام العام الاسرائيلي.

وعليه طالبت محكمة العدل الدولية دولة اسرائيل بوقف عمليات البناء الجارية وهدم وازالة ما تم انجازه من اعمال البناء باعتباره مخالفة صريحة للقانون الدولي . كما طالبت اسرائيل ، باعتبارها دولة احتلال جبر الضرر الناتج عن عمليات البناء وعمليات الهدم معا . ابعد من ذلك دعت فتوى المحكمة الدولية الأمم المتحدة وخاصة الجمعية العامة ومجلس الامن البحث في اجراءات يجب القيام بها لإنهاء الوضع غير القانوني الناجم عن إعمال بناء الجدار وانشاء سجل لحصر الاضرار لهذا الغرض ، مثلما دعت جميع البلدان الأعضاء في الامم المتحدة وغير الاعضاء عدم الاعتراف بالوضع غير القانوني الناجم عن بناء الجدار والى الامتناع بشكل كامل عن تقديم أية مساعدات سياسية او ديبلوماسية او مادية لدولة اسرائيل في هذا الشأن . أما الاضرار ، التي تتحدث عنها فتوى محكمة العدل الدولية ، فإنها لا تنحصر في اضرار لحقت بأفراد وحسب او اضرار مادية وحسب ، حيث تتحدث الفقرة ١٦٣ من الفتوى عن (جميع) الاضرار ، وهذا يعني الاضرار التي لحقت بالأفراد ، والاراضي الحكومية واراضي الاوقاف واراضي المجالس البلدية والمحلية والقروية والاراضي المشاع والمراعي والموارد الطبيعية ، وخاصة مصادر المياه والممتلكات العامة والبنية التحتية وتلك التي لحقت بالخدمات الاجتماعية والصحية والتعليمية وغيرها

هذه هي حقيقة الجدار ، انه جدار للضم والتوسع ويعتبر بحق اخطر مراحل المشروع الاستيطاني التوسعي ، الذي تنفذه اسرائيل على اراضي الضفة الغربية ، بما فيها القدس ، وتعتزم من خلاله وضع اليد على نحو ٢٢ بالمئة من مساحة الضفة والسيطرة تماما على احواض المياه الجوفية الفلسطينية ، باستثناء الحوض الشمالي الشرقي في محافظة جنين ، وهو الاقل اهمية على كل حال . والى جانب الجدار في قاطعه الغربي ،وهو جدار مرئي ، فهناك جدار آخر غير مرئي على الحدود الشرقية للضفة الغربية بعمق يتراوح بين ١٥-٢٠ كيلومترا يعزل مناطق الاغوار بسلسلة من الاوامر العسكرية وانظمة التحكم ، التي تمكن اسرائيل من وضع اليد كذلك على نحو ٢٣ بالمئة من اراضي الضفة الغربية ، في تدابير واضحة تستهدف رسم صورة التسوية السياسية ، التي تحاول اسرائيل فرضها على الشعب الفلسطيني ، الامر الذي يفرض على القيادة الفلسطينية العمل في أكثر من اتجاه :

الاول تقديم كل اشكال الدعم للتحركات الشعبية الواسعة المناهضة للجدار وتوفير مقومات الصمود للمواطنين والتعامل مع المناطق التي يهددها الجدار باعتبارها مناطق تطوير من الدرجة الاولى.

والثاني اعادة النظر في العلاقة مع حكومة اسرائيل ووقف التنسيق معها حتى تتوقف، من بين أسباب أخرى، عن مواصلة انشطتها الاستيطانية واعمال بناء الجدار وتحترم التزاماتها على هذا الصعيد وتلتزم بتنفيذ فتوى محكمة العدل الدولية.

والثالث مواصلة العمل والضغط من خلال الامم المتحدة من أجل تفعيل فتوى محكمة العدل الدولية وعدم السماح باختصار ما جاءت به هذه الفتوى على مكتب سجل الاضرار ، رغم أهمية هذا السجل ، فالجوهري والأصل في فتوى محكمة العدل الدولية هو دعوة دولة اسرائيل الى وقف العمل ببناء الجدار وهدم ما بنته منه وإعادة الاوضاع الى ما كانت عليه قبل بناء الجدار ، وجبر الضرر ، الذي لحق بالمواطنين الافراد وبالهيئات والادارات العامة الرسمية منها والاهلية على هذا الأساس.

وفي الختام لمحة عن عمل اللجنة الوطنية الفلسطينية لسجل اضرار الجدار، التي كلفني الرئيس الفلسطيني برئاستها . فقد تشكلت هذه اللجنة نهاية العام ٢٠٠٧ ، وهي تضم في عضويتها جميع الجهات الرسمية والاهلية المعنية بمقاومة الجدار. وتبذل هذه اللجنة ما بوسعها من أجل توثيق أضرار الجدار بهدف حفظ حقوق المواطنين وحقوق الادارات والمؤسسات العامة، الرسمية والاهلية ، وتعتمد في عملها على فتوى محكمة العدل الدولية وتتعاون في توثيق الاضرار في سجل دولي مع بعثة الامم المتحدة لسجل أضرار الجدار ، والتي تعمل في الضفة الغربية بمهنية وكفاءة عالية وسط صعوبات كبيرة. وفي هذا الصدد تقدم اللجنة الوطنية الفلسطينية كل الدعم والاسناد للبعثة الدولية، وقد مكنتها حتى الآن من توثيق الاضرار في محافظات جنين، طوباس، طولكرم، قلقيلية، سلفيت، رام الله، بيت لحم، الخليل، وما زال أماهها المهمة الاصعب وهي توثيق هذه الاضرار في محافظة القدس ومدينتها المقدسة ، وهي أضرار هائلة ، دون أن تسقط من حسابها فتوى محكمة العدل الدولية ، ودعوة منظمة الامم المتحدة وأمينها العام الى التحرك من أجل وضع حد لتحدي حكومة تل ابيب للقانون الدولي وقرارات الشرعية الدولية والفتوى الصادرة عن محكمة العدل الدولية بشأن جدار الضم والتوسع الاستيطاني ، خاصة بعد ان اعطت المحكمة العليا الاسرائيلية مؤخرا وفي الذكرى الحادية عشرة لفتوى محكمة العدل الدولية تحديدا الضوء الاخضر لوزارة الجيش الاسرائيلي للشروع ببناء الجدار في الكريمزان على اراضي المواطنين في بيت جالا ، الامر الذي يعطي مؤشرات ودلائل وبيانات واضحة على مدى الاستخفاف والاستهتار الذي تبديه اسرائيل ومحاكمها بالقانون الدولي وبمحكمة العدل الدولية ، أعلى هيئة قضائية دولية ، وهي الهيئة ، التي دعت بإجماع قضاتها اسرائيل الى وقف العمل ببناء جدار الضم والتوسع وهدم ما بنته منه وجبر الضرر الذي لحق بالمواطنين الفلسطينيين وبالمؤسسات والادارات العامة الفلسطينية ، الرسمية منها والاهلية .

إن الضوء الاخضر الذي أعطته المحكمة العليا الاسرائيلية لجيش الاحتلال لمواصلة بناء جدار الضم والتوسع الاستيطاني على اراضي المواطنين الفلسطينيين في محافظة بيت لحم هو بحد ذاته دليل

كاف يجب أن يدفع الامين العام للأمم المتحدة دون تردد الى تحمل مسؤولياته في تفعيل فتوى محكمة العدل الدولية بشأن الجدار وإحالة ملفه الى المحكمة الجنائية الدولية ودعوتها الى التحرك وفتح تحقيق قضائي بشأن قرارات المحكمة العليا الاسرائيلية على هذا الصعيد باعتبارها تقدم الغطاء القانوني لجرائم الاستيطان، التي ترتكبها اسرائيل في الارضي الفلسطينية المحتلة بعدوان ١٩٦٧ وتعرض رئيسها وقضاتها للمساءلة والمحاسبة أمام العدالة الدولية بحكم مسؤوليتهم عن تحدي فتوى محكمة العدل الدولية وتشجيع المستوى السياسي والامني في اسرائيل على مواصلة انتهاك القانون الدولي ومواصلة الاستهتار بالعدالة الدولية .

القائمة المشتركة من أوجاع المخاض إلى الميلاد

محمّد علي طه *

ما فكّرت يوما بخوض الانتخابات البرلمانيّة مرشّحا مضمون النّجاح في قائمة حزبيّة أو مستقلّة سواء عندما كنت عضوا قياديّا في الحزب الشيوعيّ والجبهة الدّيمقراطيّة للسّلام والمساواة أو بعدما أصبحت مستقلا، على الرّغم من أنّ بعض الأصدقاء وعددا من المعارف ومن القياديّين البارزين اقترحوا عليّ ذلك ولكنّي اعتقدت وقرّرت منذ السّبعينات من القرن الماضي أنّ هذا العمل ليس لي لأسباب عديدة، وقد نشرت مقالا قبل سنوات في عدّة صحف عربيّة في البلاد أثناء إحدى الجولات الانتخابيّة بعنوان "أنا رايح ع الصّندوق" أحثّ فيه أصحاب حقّ الانتخاب من العرب في البلاد على المشاركة في الانتخابات البرلمانيّة مبيّنا أهميّتها السّياسيّة في معركة الأقليّة العربيّة الفلسطينيّة الباقيّة الصّامدة في وطنها، من أجل السّلام والمساواة بالرّغم من محاولات التّرانسفير والاضطهاد القوميّ والتّمييز العنصريّ وممارسات الحكم العسكريّ البغيض منذ العام ١٩٤٧ حتى العام ١٩٦٦ والممارسات القمعيّة لحزب "المباي" الحاكم وأذرعه في الشّرطة والمخابرات والوزارات المختلفة وموضّحا ومؤكّدا أنّني لا أطمح لعضويّة البرلمان ولا ولن أفكّر فيها.

شاركت في الانتخابات البرلمانيّة ناخبا لأوّل مرّة في العام ١٩٥٩ (الكنيست الرابعة) وأذكر أنّني وضعت في المغلّف حرف القاف، حرف قائمة الحزب الشّيوعيّ وغير الحزبيّين. وكان الشّبان الوطنيّون يردّدون في تلك الأيّام "صوّت قاف ولا تخاف" متحدّين السّلطات العسكريّة وأجهزة السّلطة من شرطة ومخابرات وموظّفين في الدّوائر الحكوميّة التي كانت تمارس الضّغوط والإرهاب على الشيوعيّين ومن يقترب منهم أو من يقرأ صحافتهم. وعندما تأسّست الجبهة الدّيمقراطيّة للسّلام والمساواة بعد يوم الأرض الخالد صرت فعّالا ونشيطا فيها وكنت خطيبا في الاجتماعات

* كاتب فلسطيني

الشّعبيّة الانتخابيّة في مدن وبلدات عديدة مثل النّاصرة وعكّا وأم الفحم واللّد والرّملة وشفاعمرو وطمرة وسخنين وعشرات البلدات العربيّة من النّقب جنوبا حتّى ترشيحا شمالا وما زلت أذكر طرائف عديدة حدثت لي في تلك الاجتماعات الشّعبيّة والانتخابيّة.

جحش الوزير

أخبرني رفيقي ومرافقي بأنّه لم ينجح طيلة سنوات بتأسيس فرع للجبهة في هذه البلدة (الفريديس) التي وصلنا إليها عصر ذلك النّهار من تموز ١٩٨٤ وأنّ صديقاً له من البلدة نفسها تطوّع ونظّم هذا الاجتماع الانتخابيّ. وأضاف: النّاس هنا طيّبون وبسطاء، وهذه القرية هي الشّاهد الوحيد الباقي من الزّنّار الفضّيّ الذي رصّعت نجومه سفوح الكرمل الغربيّ، وهناك عدد من سكّانها ما زالوا يحفظون مفاتيح العودة إلى بيوتهم في صناديق حليّ نسائهم. وفيما انشغل رفيقي والشّابّ المضيف بتركيب مكبّر الصّوت على صندوق شاحنة تقوم مقام منصّة الخطابة، تبادلت الحديث مع شبّان لبّى بعضهم الدّعوة إلى الاجتماع أو مع فضوليّين جاءوا ليعرفوا خبر الغريب. وعلمت منهم أنّ شمعون بيرس، الوزير السّابق، رئيس حزب العمل وزعيم المعارضة تجوّل في شوارع القرية في ظهيرة ذلك النّهار داعياً النّاس للتصويت لحزبه(حزب العمل) وصافح الكثيرين ونثر الوعود السّرابيّة. وأشار أحد الشّبّان إلى شابّ حنطيّ اللون، طويل، قويّ الجسم وقال: هذا المحترم حمل خواجة بيرس على كتفيه وطاف في هذه السّاحة. وأضاف بأسى: أمّه تحتفظ بمفتاح العودة إلى بيتهم في الطّنطورة!

في تلك السّنوات، بعد يوم الأرض وتأسيس الجبهة الدّيمقراطيّة تراجعت القوّة الانتخابيّة للأحزاب الصّهيونيّة بين العرب في البلاد من حوالي ٨٠٪ إلى أقل من ٥٠٪ ولكنّ سكّان بعض القرى النّائية، استمروا بمنح أصواتهم لها مقابل مصالح ضيّقة ووعود كاذبة عوجاء مثل ذيل الكلب.

دعاني رفيقي بمكبّر الصّوت إلى الصّعود إلى المنصّة (ظهر الشّاحنة) لإلقاء خطابي وكرّر الدّعوة مرّات عديدة مؤكّداً على اسمي كأنّه يريد أن يقول للمستمعين: هذا واحد منكم!!!

أدركت أنّ عليّ ارتجال خطاب يتلاءم مع ما سمعته من النّاس في هذه البلدة وأن أدع خطابي المكتوب في جيبي، فتحدّثتُ عن البطالة والتّمييز ومصادرة الأراضي والاستيطان وعن العدوان الإسرائيليّ على لبنان وعلى منظّمة التّحرير الفلسطينيّة وصمود المقاومة الأسطوريّ في بيروت وعن نضال شعبنا الفلسطينيّ لإنهاء الاحتلال وإقامة دولته المستقلّة، وعن ممارسات حزب العمل وحزب الليكود العنصريّة، وفجأة اندفع الشّابّ الطّويل الحنطيّ من بين النّاس ولوّح بيده نحوي وهتف: أيّها المحتلّون، اخرجوا من أفغانستان! ومن المفارقة أنّ الإعلام الإسرائيليّ في تلك الأيّام كان يشنّ حملة مسعورة ضد "الاحتلال الرّوسيّ لأفغانستان" بعد أن دخل الجيش السوفيّيتيّ أفغانستان

دعماً للنّظام الشّيوعيّ هناك. تجاهلته ولم أعرْه اهتماماً وواصلت هجومي على سياسة حكومة إسرائيل الدّاخليّة والخارجيّة إلا أنّه عاد وهتف: أيّها الشّيوعيّون الكفّار أخرجوا من أفغانستان!!

وأثار هتافه اهتمام الحاضرين في السّاحة والمقاهي وصار بعضهم ينظر إليه ويبتسم معجباً أو ساخراً.

صمتُّ لحظة بعد هتافه ثمّ قلت: أيّها الإخوة، أنا ضد احتلال أفغانستان. وأطالب السّوفييت أن ينسحبوا منها.. ولكنّي أدعوك أيّها الشّابّ للصعود إلى المنصّة، هنا بجانبي، لنهتف معاً: أيّها المحتلّون انسحبوا من الأراضي الفلسطينيّة.. أيّها المحتلّون انسحبوا من القدس الشّريف. أيّها المحتلّون انسحبوا من المسجد الأقصى!!

وصفّق الحاضرون، وأمّا الشّابّ فكأنّه فصّ ملح وذاب!!

وفيما أنا أسير إلى السّيّارة لأعود مع رفيقي إلى حيفا وإذا برجل خمسينيّ، يجلس على كرسيّ صغير على الرّصيف ويشرب الشّاي يخاطبني: يا أستاذ، لا تهتمّ بما قاله جحش الوزير، لو استحى القاق (الغراب) ما غنّى!!

صندوق البصل

وفي اجتماع انتخابيّ في ساحة بيت رفيق عزيز في بلدة طرعان الجليليّة وفيما أنا اتحدّث بمكبّر الصوت وانتقد بشدّة العرب المتعاونين مع حزبي "العمل" و "الليكود" اللذين يصّران على احتلال الأراضي العربيّة ويتنكّران لحقوق شعبنا رجمني بعض الشّبّان من وراء سور السّاحة.برؤوس البّصل البلديّ فسقط بعضها بجواري على المنصّة وسقطت رؤوس منها على الحاضرين الذين اخذوا يتذمّرون وهنا قلتُ: أرغب بأن أكشف لكم سرّا يا سيّداتي وساداتي. قبل أن أخرج من بيتي طلبت منّي زوجتي أن أشتري صندوقين من البّصل البلديّ للمونة، وما سقط علينا حتّى الآن لا يملأ صندوقا واحدا، أنا أنتظر البّقية، وأرجوكم أن تكون من الصّنف الجيّد.. بصل بلديّ للمونة وشكرا على كرم الضّيافة. وتوقفت عملية الرّجم.. وضحك الحاضرون!

الدّراجة النّاريّة

وفي اجتماع آخر....

عندما وصلت إلى ساحة العين في بلدة كفر مندا في سهل البطّوف، وهي بلدة قاوم أهلها التّهجير بشجاعة في السّنوات الأولى التي أعقبت النّكبة. وجدتُ جماهير غفيرة من الشّبّان والفلاحين والعمّال والمثّقفين ينتظرونني. وكان يرافقني شاعر شابّ ليلقي قصيدة وطنيّة حماسيّة، وكان أحد

الشّبّان المحلّيّين يدعو في مكبّر الصوت أهل البلدة للقدوم إلى ساحة العين لسماع الخطيب. وأخبرني أحد الرّفاق من البلدة أنّ نائبا عربيّا في الكنيست من حزب "شينوي" الصّهيونيّ زار عددا من وجهاء العائلات ونثر الوعود على النّاس وربّما وزّع الأموال ثمّ أشار الرّفيق إلى شرفة أحد البيوت المطّلة على ساحة العين وقال لي:انظر. إنّه يجلس هناك مع مجموعة من الوجهاء وسوف يستمعون إليك.

كان حزب "شينوي" قد أسّسه الجنرال يغئال يدين، رئيس أركان سابق، وحقّق نجاحا انتخابيّا بعد حرب أكتوبر١٩٧٣ وشارك في حكومة مناحم بيغن ثمّ حدثت خلافات في الحزب وانشطر إلى شطرين، وعلمت من أحد الشّبّان أنّ النّائب العربيّ من شينوي يدّعي بأنّ جناحه يختلف عن الجناح الآخر العسكريّ اليمينيّ وأنّه يسعى للسلام مع العالم العربيّ. تحدّثت في خطابي عندئذ عن معاناتنا من سياسة التّمييز والاضطهاد ثمّ تحدّثت عن الفقر وعن البطالة وعن أوضاع مدارسنا السّيئة ثمّ انتقلت إلى كفاح شعبنا الفلسطينيّ من أجل الحرّيّة والاستقلال وبناء الدّولة الفلسطينيّة المستقلّة وعاصمتها القدس ثمّ هاجمت الاجتياح الاسرائيليّ للبنان وحصار بيروت واحتلالها ودور قادة حزب الليكود وقادة حزب شينوي في ذلك ثمّ نظرت إلى الشّرفة حيث يجلس النّائب المحترم مع مضيفيه وقلت بصوت جهوري "يقول لكم حضرة النّائب أنّ حزب شينوي انقسم إلى جناحين وأنّ جناحه يختلف عن الجنّاح الثّاني. حسنا، هذا يذكّرني بشخصين تشاركا على شراء "طزّ طزّ" (درّاجة ناريّة) وبعد فترة اختلفا كما يحدث عادة بين الشّركاء واتّفقا على تقسيم الطّزطز مناصفة فأخذ كلّ واحد نصفه. فماذا أخذ الشريك الأوّل؟ فهتف المئات: طُز. وهنا سألتهم: وماذا أخذ الشّريك الثّاني؟ فصرخوا: طُزّ. وأعدت السّؤال مرّتين أو ثلاث مرّات فما كان من النّائب ومضيفيه إلا أنّ تركوا الشّرفة وهربوا....وعلا التّصفيق.

من النّكبة إلى النّكسة

كان الكاتب والمؤرّخ والمفكّر د. اميل توما عضو المكتب السّياسيّ للحزب الشّيوعيّ هو المسؤول عن ترتيب قائمة الجبهة الدّيمقراطيّة لانتخابات الكنيست فبعد أن يقرّ المكتب السّياسيّ للحزب وسكرتاريا الجبهة الأسماء العشرة الأوائل يتولّى أبو مخائيل توما ترتيب القائمة حتّى الرّقم ١٢٠ أي عدد أعضاء الكنيست. وكانت تربطني به صداقة متينة وقد كتب دراسة جيّدة عن مجموعتي القصصيّة "عائد الميعاريّ يبيع المناقيش في تلّ الزّعتر" وقال لي أكثر من مرّة "لقد انتسبت يا محمّد إلى الحزب الشيوعيّ وأنت كاتب معروف محلّيا وعربيّا على عكس الآخرين" وكان يعبّر عن تقديره لي. وفي صيف العام ١٩٨٢ عندما قرّر الكاتب اميل حبيبي، رئيس تحرير صحيفة "الاتّحاد" الحيفاويّة تحويلها إلى جريدة يوميّة كان يقدّم، في كلّ يوم أحد في اجتماعات المكتب السّياسيّ للحزب في تل أبيب، تقريرا عن تصوّره لمستقبل الجريدة وعمّا أنجزه من أجل تحويلها إلى جريدة يوميّة. سألني

اميل توما ذات مرّة: ما سرّ العلاقة بينك وبين اميل حبيبي فكلّما قدّم تقريرا للمكتب السّياسيّ عن الاتّحاد اليوميّة أكّد أنّ محمد علي طه سيكون المحرّر الأدبيّ؟ أجبته: المحبة من الله. وضحك أميل توما العلمانيّ.

طلب منّي اميل توما ذات مرة أن أوقّع على نموذج موافقتي على التّرشح في قائمة الجبهة في مكان ما بين الحادي عشر والمائة والعشرين والأدقّ بين رقم ١١ وبين رقم ١١٠ لأنّ الأماكن الأخيرة محفوظة للرّفاق القدامى. وهذا التّرشح يعني دعم القائمة وتأييدها فوّقعت على النّموذج وبعد أسبوع حينما زرته في مكتبه سألته مازحا عن موقعي في القائمة فأخرج أوراقه من الدّرج وحدّق فيها وقال بجدّيّته المعروفة: رقم ٤٨. فذهلت. هذا الرّقم اللعين يلاحقني. في العام ١٩٤٨ احتلت القوّات اليهوديّة قريتي ميعار وطردونا منها وخسرت يومئذ بيتي وألعابي وكتابي الأوّل ودفاتري وأقلام التّلاوين وطابتي كما خسرت أترابي الذين رحلوا إلى لبنان وسوريا ثمّ تفرقوا في دول الخليج. وباختصار خسرت طفولتي في تموز ١٩٤٨.

شرحت لاميل توما حساسيّتي للرقم ٤٨ وطلبت منه أن يجري تغييرا قبل أن يسلّم القائمة للجنّة الانتخابات البرلمانيّة. وكان اميل ماركسيّا لينينيّا يتعامل مع الأرقام ومع الأحداث بعقليّة العالم المفكّر لا بحساسيّة الأديب أو الفنّان. وعندما زرته في مكتبه بعد أيّام قال لي: كما تريد يا رفيقي. نقلتك إلى موقع آخر. فشكرته وسألته: وما هو الموقع الجديد؟ فأخرج أوراقه من الدّرج وحدّق في القائمة وقال: ٦٧. قلت بأسى: من النّكبة إلى النّكسة.

واحسرتاه!!

ومن هنا كانت البداية

بدأت فكرة توحيد القوائم الانتخابيّة العربيّة في القاهرة في العام ١٩٩٢ قبيل انتخابات الكنيست في ذلك العام حيث تمّ الاتفاق على أنّ تخوض الانتخابات قائمتان هما قائمة الجبهة الدّيمقراطيّة برئاسة الشّاعر المناضل توفيق زيّاد وأمّا القائمة الثّانيّة فتكون عبارة عن دمج قائمة "الحزب الدّيمقراطيّ العربيّ" برئاسة النّائب عبد الوّهاب دراوشة وقائمة "الحركة التّقدميّة للسّلام" برئاسة النّائب محمّد ميعاريّ ونصّ الاتّفاق على أن يكون المرشّح الأوّل من "التّقدميّة" ويكون المرشّحان الثاني والثّالث من "الديمقراطي" أو بالعكس. وعلمت أنّ الشّاعر توفيق زيّاد أرسل رسالة للطّرفين يحثّهما فيها على تنفيذ الاتّفاق ويحذّر من خطورة عدم عبور نسبة الحسم وحرق الأصوات العربيّة، وقد تراجع محمّد ميعاريّ عن تنفيذ الاتّفاق وقرّرت الحركة التّقدميّة أن تخوض الانتخابات لوحدها.

فازت الجّبهة الدّيمقراطيّة يومئذ بثلاثة مقاعد وفاز الحزب الدّيمقراطيّ العربيّ بمقعدين وأمّا

الحركة التّقدميّة فلم تجتز نسبة الحسم وحرقت ٢٦ ألف صوت أي مقعدا برلمانيّا.

حصل حزب العمل يومئذ برئاسة إسحاق رابين وحزب ميرتس برئاسة شلوميت الوني على ٥٦ مقعدا، وأمّا حزب الليكود برئاسة إسحاق شمير وأحزاب اليمين فحصلوا على ٥٩ مقعدا، وعندئذ وبخطوة سياسيّة بارعة أعلنت الجبهة والدّيمقراطيّ عن قيام "الجسم المانع" وهذا يعني نهاية حكم الليكود واليمين وعن دعم حزب العمل وميرتس من الخارج بتشكيل الحكومة أي بدون الدّخول في ائتلاف حكوميّ.

حقّق الجسم المانع يومئذ مكاسب في الأمور المدنيّة مثل المساواة في مخصّصات التأمين الوطنيّ للأطفال وزيادة ميزانيّات السّلطات البلديّة والمحليّة العربيّة وغير ذلك كما تمّ إلغاء قانون تمير العنصريّ الذي يمنع أيّ مواطن في إسرائيل من الالتقاء بأيّ فلسطينيّ في الخارج. وبدأت المفاوضات مع منظمة التّحرير الفلسطينيّة التي أدّت إلى الاعتراف المتبادل واتفاق اوسلو وعودة عشرات آلاف الفلسطينيّين إلى الضّفّة الغربيّة وغزّة وقيام السّلطة الفلسطينيّة وعودة القيادة الفلسطينيّة إلى الوطن.

وبعد مصرع إسحاق رابين، عندما اغتاله يغئال عمير اليمينيّ المتطرّف، في ٤ تشرين الثّاني ١٩٩٥ تمّ الاتّفاق على إجراء انتخابات للبرلمان ولرئاسة الحكومة مباشرة وفق القانون الجديد.

تأسّست لجنة الوفاق الوطنيّ في بداية العام ١٩٩٦ من السّادة إبراهيم نمر حسين، رئيس اللجنّة القطريّة للسلطات البلديّة والمحليّة العربيّة ورئيس بلدية شفاعمرو، ومن الدّكتور سامي جرايسيّ (أستاذ جامعيّ)، ومن السّيد عاطف الفاهوم (وجيه من مدينة النّاصرة) ومن الشّاعر سميح القاسم ومن الكاتب محمّد علي طه(مركّزا للجنة) وفي جولة الانتخابات للكنيست ال ١٥ التي تلتها بعد سنوات سنة ١٩٩٩ تألفت لجنة الوفاق الوطنيّ من الشّاعر سميح القاسم والسّادة سعيد رابي (ناشط اجتماعيّ من بلدة جلجوليّة) والياس جبّور (نائب رئيس بلديّة شفاعمرو سابقا) والكاتب محمّد علي طه (مركّزا) وأمّا في جولة الانتخابات ال ١٦ سنة ٢٠٠٣ فتشكّلت اللجنة من السّادة الياس جبّور ومحمّد زيدان وسعيد رابي وماجد صعابنة ومحمّد علي طه (رئيسا).

حقّقت لجنة الوفاق الوطنيّ في جولات الانتخابات ما بين العام ١٩٩٦ وبين العام ٢٠١٣ بعض النّجاحات فبينما نجحت في العام ١٩٩٦ بإقناع د.أحمد الطيبيّ بالانسحاب من المعركة الانتخابيّة. لم تنجح في اقناع محمّد زيدان في العام ١٩٩٩ مما أدى إلى حرق ١٩ ألف صوت ولم تنجح في إقناع هاشم محاميد في العام ٢٠٠٣ مما أدرى إلى حرق ٢١ ألف صوت.

قمتُ بمحاولات عديدة وجلست يومئذ عدّة مرّات مع هؤلاء الإخوة في محاولة لإقناعهم بعدم

خوض الانتخابات إلا أنّ إصرارهم وعنادهم أدى إلى خسائر مادّية لهم وحرق آلاف الأصوات مما يعني خسارتنا نائبا أو نائبين في البرلمان وهذا معناه إضعاف التّمثيل العربيّ وهذا ما يصبّ في خانة اليمين الصّهيونيّ.

وقع خلاف حادّ بيني وبين النّائب عزمي بشارة وحزب التّجمع الوطني الديمقراطيّ عندما قرّر السّيد بشارة خوض الانتخابات لرئاسة الحكومة في العام ٢٠٠١.

عارضت هذه الخطوة وأوضحت أنّ هذا التّرشيح عبثيّ قد يفيد حزب التّجمّع إعلاميّا ويكسبه عددا من الأصوات ولكنّه يضعف مساومة الأحزاب العربيّة من أجل تحقيق مكاسب للجماهير العربيّة كما أنّه يظهر إسرائيل أمام العالم دولة ديمقراطيّة جدّا يتنافس فيها مثقّف قوميّ عربيّ مع قادة الحركة الصّهيونيّة على رئاسة الحكومة.

الانتخابات للكنيست العشرين في العام ٢٠١٥

فاجأ بنيامين نتنياهو، رئيس وزراء إسرائيل اليمينيّ، الجميع عندما أعلن عن تقديم الانتخابات البرلمانيّة وقد أقرّ الكنيست طلبه وعيّن تاريخ ٢٣ آذار ٢٠١٥ موعدا لإجرائها. وكان قد سبق ذلك قانون رفع نسبة الحسم من ٢٪ إلى ٣,٢٥٪ بناء على تنسيق بين نتنياهو وحزب الليكود وبين وزير خارجيّته، النّائب اليمينيّ المتطرّف أفيغدور ليبرمان كي يخرجا الأحزاب الفاعلة في السّاحة العربيّة من التّمثيل البرلمانيّ. لقد خطّطا لترانسفير سياسيّ للعرب من البرلمان مقدّمة لترانسفير وجوديّ ينادي به افيغدور لبرلمان علانيّة. والتّرانسفير هو فكر صهيونيّ تبنّته الحركة الصهيونيّة منذ الانتداب البريطانيّ على البلاد ونفذّته بتوسّع في العام ١٩٤٨ حينما طردت العرب من يافا وحيفا واللد والرملة وطبريا وصفد وعكّا ومن مئات القرى العربيّة، وابتكرت عشرات الأساليب القذرة من أجل ذلك، وأمّا نحن العرب الفلسطينيّين الذين بقينا منغرسين في الجليل والمثّلث والنّقب والمدن السّاحليّة فقد خضنا وما زلنا نخوض. معركة البقاء والصّمود في وطننا الذي لا وطن لنا سواه منذ العام ١٩٤٨ حتّى اليوم.

ما زالت عقلية التّرانسفير متجذّرة عند الكثيرين من قادة الأحزاب الصّهيونيّة وبخاصّة حزب العمل وحزب الليكود وحزب البيت اليهوديّ وحزب يسرائيل بيتينو (إسرائيل بيتنا). ويجاهر بها البعض منهم دون حياء ويخفيها البعض الآخر.

في أواخر التسعينات وفي حوار لي مع الجنرال عوزي ديّان وكان رئيس مجلس الأمن القوميّ لإسرائيل، سألني: ماذا تريدون من الدّولة؟ هل تريدون حكما ذاتيّا أو انفصالا عنها. قرّروا ماذا تريدون. أجبته بهدوء: نحن لم نأت إلى هذا الوطن على ظهر سفينة. بل إسرائيل هي التي جاءت

إلينا. ونحن قرّرنا أن نبقى منغرسين في وطننا. نحن نؤيّد كفاح ونضال شعبنا العربيّ الفلسطينيّ من أجل إقامة دولة فلسطينيّة في الضّفة الغربيّة والقدس وقطاع غزّة وأعتقد أنّ هذه الدّولة ستقوم قريبا وأمّا نحن فسنبقى هنا، في مدننا وقرانا، في سهولنا وجبالنا. لذلك كلّ ما أريده منك كي أطمئن على بقائي أن تعلن بأنّك تنازلت عن فكر التّرانسفير أو أنّك تعارضه.

ورفض عوزي ديّان مطلبي بصلافة.

إنّ رفع نسبة الحسم إلى ٣,٢٥٪ يعني أن جميع الأحزاب العربيّة مهدّدة بعدم اجتياز هذه النّسبة وهذا يعني كنيست بدون عرب.

كان لا بدّ من تفعيل لجنة الوفاق الوطنيّ بدون تأخير. فالوقت قصير جدّا والأيّام تمرّ بسرعة.. ونتنياهو وزملاؤه في اللّيكود واليمين يبدون فرحهم لأنّ الكنيست القادمة ستكون خالية من العرب.

وكانت الأحزاب الفاعلة على السّاحة العربيّة في الكنيست ال١٩ ممثّلة بما يلي: ١)الجبهة الديمقراطيّة للسّلام والمساواة ٤ نوّاب ٢)القائمة الموّحدة (الحركة الإسلاميّة والحركة العربيّة للتغيّير) ٤ نوّاب ٣) التّجمع الوطنيّ الدّيمقراطيّ ٣ نوّاب.

وكان الرّأي العامّ في الشّارع العربيّ لا يتعاطف مع الأحزاب العربيّة بل ينتقدها بشدّة لعدّة أسباب أهمّها أنّ الإعلام الإسرائيليّ شوّه دور هذه الأحزاب وعملها وكرّر صباح مساء أنّها لا تفيد المواطن العربيّ ولا تعمل شيئا من أجله بل هي مشغولة بالقضيّة الفلسطينيّة والقضايا السّياسيّة، ومهتمّة بما يجري في رام الله وغزّة متجاهلة القضايا المدنيّة والاجتماعيّة التي يعاني منها المواطنون العرب في إسرائيل وبخاصّة ارتفاع عدد العاطلين عن العمل وارتفاع عدد الفقراء وتفاقم ظاهرة العنف في المجتمع العربيّ وتهديد عشرات الآلاف من البيوت العربيّة غير المرخّصة بالهدم.

تشاورت هاتفيّا مع صديقي ماجد صعابنة، وهو رجل متحمّس دائما للعمل وللعطاء واتّفقنا على عقد اجتماع تشاوريّ في بيته في كفر قرع في يوم السّبت ٢٠١٤/١٢/٦ واتّفقنا يومئذ على توسيع لجنة الوفاق بحيث تتكون من محمّد علي طه، ماجد صعابنة، محمّد زيدان، سعيد رابي، الياس جبّور وإضافة مصطفى كبها وهو بروفيسور شابّ وباحث أكاديميّ، وأحمد ناطور(رئيس محكمة الاستئناف الشرعيّة سابقا) وشرحت أهميّة ضمّ شخصيّة عربيّة درزيّة من ناحيّة سياسيّة وطنيّة واجتماعيّة وطرحت اسم الشّيخ أبو خضر محمّد رمّال من يركا وبيّنت أنه ذو سمعة طيّبة وشخصيّة معروفة وتمّت الموافقة عليه ثمّ اتّفقنا على ضم السّيّد مازن غنايم رئيس بلديّة سخنين لأنّه رئيس اللجنة القطريّة للسّلطات البلديّة والمحليّة العربيّة والقائم برئاسة لجنة المتابعة بعد

استقالة رئيسها واتّفقنا على أن يعقد الاجتماع الأوّل للجنة الوفاق بكامل أعضائها في بيتي في كابول يوم السّبت في ٢٠١٤/١٢/١٣.

قدّمت في بداية الاجتماع بيانا، كنت قد تشاورت قبل إعداده مع الزميلين ماجد ومصطفى، وبيّنت فيه الأمور التاليّة:

أولا: فاجأنا تقديم موعد الانتخابات البرلمانيّة كما فاجأ الأحزاب الفاعلة على السّاحة العربيّة. ونحن نعمل في وقت محدّد وقصير جدّا.

ثانيا: إنّ الظّروف السّياسيّة في البلاد مثل ازدياد قوّة اليمين المتطرّف المعادي لكل ما هو عربيّ ولشعبنا العربيّ الفلسطينيّ بصورة خاصّة، وإقرار قوانين عنصريّة في الكنيست والتّخطيط لقانون يهوديّة الدّولة الذي يتنكر لوجودنا وغير ذلك من مظاهر العنصريّة تفرض علينا ترتيب أوراقنا بصورة جيّدة، ووضع خطّة عمل جيّدة كما تفرض علينا المثابرة في عملنا.

ثالثا: يعاني مجتمعنا العربيّ من التّناحر والمناكفة بين الأحزاب وصلت إلى حدّ العداء بين كوادر هذه الأحزاب.

رابعا: جرت في مدننا وقرانا في العام الماضي معركة الانتخابات البلديّة والمحلية وهي معركة شرسة وقاسية أحدثت شروخا في مجتمعنا وقد رافقها وأعقبها شجارات عائليّة وحاراتيّة ولا شكّ بأنّ هناك انقساما حادّا في كل مدينة وبلدة بين الرّئيس الفائز بالانتخابات ومؤيّديه وبين منافسه الذي لم يحالفه الحظ ومؤيّديه لذلك سيكون من مسؤوليّة لجنة الوفاق تنقية الأجواء بين الأحزاب وبين جميع القوى الفاعلة في مجتمعنا.

خامسا: إن الهدف الأساس لنا من هذه الانتخابات هو صدّ اليمين الصّهيونيّ وتقوية اللّحمة للجماهير العربيّة في البلاد.

سادسا: هناك رغبة جماهيريّة واسعة لتشكيل قائمة واحدة وهذا يرفع نسبة المشاركة في الانتخابات ويمنع التّناحر الدّاخليّ فقد دلّت استطلاعات للرأي العام على أن أكثر من ٨٠٪ من النّاخبين العرب يريدون قائمة واحدة ويهدّدون بمقاطعة الانتخابات إن لم تتشكّل هذه القائمة، وعلينا أن نفهم نبض الجماهير ونعمل لتحقيقه.

سابعا: هناك ظروف سياسيّة فلسطينيّة عامّة وظروف محلّية خاصّة تفرض علينا تشكيل قائمة واحدة.

ثامنا: إنّ قائمة واحدة تحول دون الاستقطاب الطّائفيّ، فمجتمعنا لا يحتمل أبعادا طائفيّة، والسّلطة

تعمل لتأجيج التّناحر الطّائفيّ وبخاصّة في الانتخابات البلديّة والمحليّة ومحاولتها تجنيد الشّبّان العرب المسيحيّين والدّعوة إلى الآراميّة.

تاسعا: إنّ تشكيل قائمة واحدة يخلق جوّا سياسيّا سهلا ومريحا وحضاريّا للعمل الانتخابيّ.

عاشرا: إنّ رفع نسبة الحسم ستكون عاملا قويّا ومساعدا على تشكيل قائمة واحدة وعلينا أن نعرف أنّه يمكن أن تتشكّل قائمتان وتعبرا نسبة الحسم ولكنّ هذا الأمر لن يحقّق ما تصبو إليه جماهيرنا، وعلينا أن نحذّر الأحزاب منه.

وبيّنت أن هناك خلافات جوهريّة بين الأحزاب فالجبهة الدّيمقراطيّة تصرّ على جبهة عربيّة يهوديّة وهذا يعني أنّ أحد مرشحيها سيكون يهوديّا فهل ستوافق الحركة الإسلاميّة على ذلك كما أن الجبهة والتّجمع سيرشّحان امرأتين في الأماكن المتّقدمة وقد يكون هذا إشكالا مع الموّحدة. كما أنّ هناك خلافات فكريّة وسياسيّة قد تخلق خلافا في البرنامج الانتخابيّ مثل الموقف من سوريا ومن حماس وغير ذلك. وأكّدت أمام الجميع بأنّ أعضاء لجنة الوفاق الوطنيّ لا ينتمون إلى أيّ حزب من الأحزاب ولكنّهم كانوا يدلون بأصواتهم في كل معركة وكان البعض منهم ينتمي إلى حزب ما سابقا فأنا كنت عضوا قياديّا في الحزب الشّيوعيّ والجبهة وأما ماجد صعابنة فكان من مؤسّسي الحركة التّقدميّة ثم عضوا في التّجمّع ولا شكّ بأن الآخرين كانت لهم ميول حزبيّة في فترة ما ولكنّنا اليوم علينا أن نؤكد على الأمور التالية: عضو لجنة الوفاق لا ينتمي إلى أي حزب من الأحزاب ولا يوجد عنده طموح بأن يكون مرشّحا أو عضوا في الكنيست وأن يقف على مساواة واحدة وبعد واحد من جميع الأحزاب، فلا يفرّق ولا يميّز بين حزب وآخر.

كنت أعرف (أنّ العين عليّ) كما يقول الآباء والأجداد فأعضاء كثيرون من التّجمّع الدّيمقراطيّ ومن الحركة العربيّة للتغيّير ومن الحركة الإسلاميّة يصرّون ويجاهرون بأنّني شيوعيّ أو جبهويّ. وقد تساءل عدد منهم: هل من المعقول أن يكون رئيس لجنة الوفاق الوطنيّ جبهويّا ؟ وكنت موقنا بأنّني لو أقسمت (ولست ملزما بذلك) بالله والأنبياء والرّسل والخلفاء والكتب المقدّسة فلن أبرّئ نفسي من هذا التّهمة.. لذلك عندما قال لي أحدهم ذلك أجبته ممازحا: وشرف لينين أنّني لست شيوعيّا، وبناء عليه حرصت كثيرا على أن أكون موضوعيّا ولا أحابي أحدا ولا أخاصم أحدا وأن أتعامل مع الجميع بالطّريقة نفسها والأسلوب نفسه، لا أفضل حزبا على حزب ولا أفضل شخصا على شخص آخر. وعليّ وعلى زملائي أن نحظى بثقة الأقليّة العربيّة الفلسطينيّة في البلاد وبثقة الأحزاب أيضا.

المهمّة صعبة جدّا. هل من المعقول أن نوّحد القوى المتخاصمة منذ سنوات؟ كيف نوحّد الشيوعيّ الأُمميّ مع العربيّ القوميّ مع الإسلاميّ ؟ كيف نوحّد اليهوديّ الشّيوعيّ مع هؤلاء ؟ وكيف نشكّل قائمة ترضى الجبهويّين والإسلاميّين والتّجمعيّين وأبناء الحركة العربيّة للتغيّير والقوى السّياسيّة الأخرى؟ قائمة ترضي الشّبّان والجامعيّين ؟ قائمة فيها مسلمون ومسيحيّون ودروز ويهود؟ فيها علمانيّون ومتديّنون؟ وفيها رجال ونساء؟

وإذا نجحنا في ذلك فسيكون نجاحنا رسالة إلى شعبنا الفلسطينيّ والى أمتنا العربيّة عنوانها: اتّفق العرب على أن يتّفقوا.

كان النّقاش ودّيًا وحضاريًا بين أعضاء اللجنة. وظهر إصرار الجميع على تحقيق هدف الوحدة. قائمة واحدة فقط لا غير.

اقترح السّيد سعيد رابي أن يكون للجنة الوفاق رئيس وكنت متأكدا بأنه يقترحني ولكنّي أعرف أن انتخاب رئيس للجنة قد يخلق حساسيّة عند البعض. ونحن نريد عنبا لا أن نقتل النّاطور فاتّفقنا على أن أكون مركّزا للجنة وعلى أن انسّق مع مصطفى كبها في أمور الإعلام.

واليوم وبعد أن انتهت معركة الانتخابات أقول أن التّعاون بيني وبين مصطفى كان تعاونا مثمرا وسليما فقد كنت أكتب البيانات والمناشير وأشاوره بها وأستمع إلى اقتراحاته وطروحاته وكان يطبعها ويوزّعها على وسائل الإعلام.

واتّفقت اللجنة على اقتراح تقدّمت به وهو أن يباشر مصطفى كبها بالاتّصال بالأساتذة العرب بالجامعات وبالأكاديميّين لتفعيلهم وتنشيطهم من أجل تشكيل قائمة واحدة والأهم من ذلك زيادة نسبة النّاخبين العرب في الانتخابات القادمة.

كانت نسبة النّاخبين العرب تتراجع من جولة انتخابات إلى جولة اخرى فبينما تجاوزت هذه النّسبة الثّمانين في المائة في الخمسينات، بدأت بالتّراجع حتّى وصلت إلى حوالي ٥٠٪ في الانتخابات الماضيّة في حين أنّها وصلت في الوسط اليهوديّ إلى أكثر من ٧٥٪ وهذا يؤثّر على توزيع المقاعد في الكنيست واتّفقنا أيضا على إصدار بيان للرّأي العامّ عن عملنا وعن نوايانا وعن مطلب جماهيرينا كما اتّفقنا على الاجتماع مع قادة الأحزاب والحركات الفاعلة في السّاحة العربيّة وممثليها في يوم السّبت القادم ٢٠١٤/١٢/٢٠ في مكتب لجنة المتابعة في النّاصرة.

كتبت البيان في اليوم نفسه وأرسلته مساء إلى مصطفى كي يراجعه ويبدي ملاحظاته إذا كانت عنده بعض الملاحظات ثمّ يطبعه ويوّزعه على المواقع الالكترونيّة والصّحف الورقيّة .

اللقاءات مع قادة الأحزاب

اتصلت بقادة الأحزاب الممثّلة في الكنيست ودعوتهم إلى لقاء مع لجنة الوفاق في ٢٠١٤/١٢/٢٠ في مكتب لجنة المتابعة في النّاصرة كما دعوتُ حزبين آخرين غير ممثلين في الكنيست وكانا قد دعما القائمة الموّحدة (الحركة الإسلاميّة والعربيّة للتغيّير) في الانتخابات السّابقة مقابل تمويل شهريّ لحزبيهما.

بدأت اللقاءات في السّاعة الثانيّة عشرة ظهرا وامتدت إلى ما بعد السّاعة التّاسعة مساء.

اتّفقنا قبل اللقاءات على أن يقوم أحد أعضاء لجنتنا بطرح مهمّتنا وهدفنا أمام وفد الحزب على أن يتناوب الأعضاء على ذلك كما اتّفقنا أن نسمع قادة الأحزاب ولا نطرح حلولا في هذه الفترة. وكنت أرحّب بوفد كلّ حزب وأعرّفه بأعضاء لجنة الوفاق الوطنيّ ثم أقدّم المتحدّث باسم اللجنة.

تولى السّيّد محمّد زيدان مهمّة اللقاء مع وفد الحزب القوميّ العربيّ (غير ممثل بالكنيست) وأدار السّيّد أحمد ناطور اللقاء مع وفد الجبهة الدّيمقراطيّة للسّلام والمساواة وتولى السّيّد مصطفى كبها اللقاء مع وفد التّجمّع الوطنيّ الدّيمقراطيّ وأمّا اللقاء الرّابع فكان مع وفد الحركة العربيّة للتّغيّير والذي أداره الشّيخ محمّد رمّال. واختار السّيّد ماجد صعابنة مهمّة اللقاء مع وفد الحزب الدّيمقراطيّ العربيّ(غير ممثّل بالكنيست) وأمّا أنا فأدرت اللقاء مع وفد الحركة الإسلاميّة الشّق الجنوبيّ.

واستطيع أن ألخّص هذه اللقاءات بما يلي:

أوّلا: أثنى الجميع على دور لجنة الوفاق وأعلنوا ثقتهم بها وتمنّوا لها النّجاح. وقد قال أحدهم "أنتم تحاولون تحقيق المستحيل".

ثانيا: هناك اختلافات فكريّة بين الأحزاب ولكنّ هناك الكثير من المساحة المشتركة التي يجب أن نعمل بها كما قال السّيّد رامز جرايسيّ رئيس وفد الجبهة الدّيمقراطيّة.

ثالثا: يعتقد الجميع بأنّه قد تنشأ فرصة بعد هذه الانتخابات لزيادة تأثيرنا السّياسيّ من خلال التّمثيل البرلمانيّ ويمكن إحداث اختراق في الشّارع الإسرائيليّ.

رابعا: أوضحت الحركة الإسلاميّة أنّها لا تعارض موقف الجبهة بأن يكون في القائمة شخصيّة يهوديّة جبهويّة غير صهيونيّة (كما صّرح النّائب مسعود غنايم رئيس وفد الحركة الإسلاميّة) وتدعم ترشيح امرأة في مكان متقدّم ومضمون إذا ما اقترح ذلك حزب من الأحزاب.

خامسا: طرح أحمد طيبي إجراء استطلاع رأي في المجتمع العربيّ حول رئاسة القائمة وتشكيلها بينما

عارضت هذا الطّرح جميع الأحزاب الأخرى.

سادسا: كان هناك شبه إجماع على قائمة مشتركة واحدة لا غير من جميع الأحزاب ما عدا العربيّة للتّغيّير فقد قال أسامة السّعديّ: نحن مع قائمة مشتركة كأفضليّة أولى أو مع قائمتين مرتبطتين بفائض الأصوات. وأمّا السّيّد رامز جرايسيّ فبعد أن أكّد على أهميّة القائمة المشتركة الواحدة قال:هناك طرح لقائمتين خوفا من تقاعس نشطاء الأحزاب في تجنيد الأصوات وأمّا النّائب مسعود غنايم فقد قال: "نحن نتحدّث عن قائمة واحدة ولا خيار غير ذلك، وقال عوض عبد النّفاع (التّجمّع):إنّ الظّروف الموضوعيّة تلزم الجّميع بإقامة قائمة مشتركة ولن نخذل أهلنا بهذا المطلب.

سابعا: أعلن الجميع عن موافقتهم على اقتراح لجنة الوفاق الوطنيّ بأن يكون الموقع الثّالث عشر في القائمة لشخصيّة عربيّة درزيّة .

كانت هناك ردود فعل ايجابيّة عندما ضمّت لجنة الوفاق الوطنيّ شخصيّة عربيّة درزيّة وقد برز ذلك في تصريحات عدد من السّياسيّين والمثّقفين وبصورة خاصّة في البلدات العربيّة الدرزيّة ولا شكّ بأنّ ترشيح شخصيّة عربيّة درزيّة في مكان مضمون في القائمة (١٣) يعتبر انجازا وطنيّا وضربة معلّم لسياسة الأحزاب الصهيونيّة والسّلطة الإسرائيليّة، التي عملت منذ ٦٧ عاما على فصل هذه الطّائفة العربيّة المعروفيّة عن الشّجرة العربيّة.

ثامنا: كانت هناك آراء حول رئاسة القّائمة فقد اقترح وفد الجبهة ووفد الدّيمقراطيّ القوميّ ووفد الإسلاميّة أنّ تكون رئاسة القائمة للجبهة وأمّا التّجمّع فقد قال النّائب جمال زحالقة أنّ "رئاسة القائمة تحتاج إلى رضا الجميع" في حين قال رفيقه عوض عبد الفتّاح "رئاسة القائمة لن تكون مشكلة" وأمّا الحركة العربيّة للتغيير فقد اقترح أحمد الطّيبيّ إجراء استفتاء بين المواطنين العرب حول رئاسة القائمة. وهذه المواقف تعني أنّ هناك شبه إجماع تقريبا على أنّ تترأس الجّبهة القائمة المشتركة ولقد عبّر عن ذلك رئيس أحد الوفود(غير جبهويّ) "من الضّروريّ أن يكون رئيس القائمة من الجبهة. هي الحزب الأقوى ولها أربعة نوّاب.. وهي الحزب الوحيد الذي ينال أصوات النّاخبين بدون مال سياسيّ".

تاسعا: كانت هناك آراء حول توزيع المقاعد من ١ إلى ١١ فقد طرح وفد الجبهة أن يكون التّقسيم ٤+٤+٣ وهذا يعني ٤ مقاعد للجبهة و٤ مقاعد للإسلاميّة والعربيّة للتّغيّير و٣ مقاعد للتجمّع ولم يطرح تركيب وترتيب المقاعد. وأمّا النّائب جمال زحالقة فقد قال "هناك اجتهادات لتركيب القائمة وهذا يأتي بعد القرار الرّسميّ بالوحدة وأعتقد أنّه لن تكون مشاكل في ذلك".

وأمّا الحركة العربيّة للتّغيّير فقد أعلنت أنّ مفتاح الوضع القائم غير مقبول عليها وطالبت بعضوين

منها في الأماكن من ١ - ١١ وأمّا الدّكتور منصور عبّاس (الإسلاميّة) فقد قال: ننطلق في ترتيب القائمة من نتائج الانتخابات السّابقة ويحقّ لنا أن نحصل على خمسة مقاعد بين ١-١٢.

عاشرا: أكّد الجميع تقريبا على أنّ تشكيل قائمة مشتركة هي قضيّة وطنيّة وأنّ هجوم اليمين على المواطنين العرب وتنكّرهم للمساواة ومعاداتهم للحلّ السّلميّ سبب أساس في تشكيلها بالإضافة إلى رفع نسبة الحسم وأمّا أحمد الطّيبي فقد قال باعتقادي إنّ رفع نسبة الحسم هو السّبب الواحد والوحيد للجوء الأحزاب إلى قائمة واحدة. السّبب ليس وطنيّا السّبب انتخابيّ فقط .

الحادي عشر: القائمة المشتركة لا تعني اندماجا بين الأحزاب وأهميّتها ليست محصورة في البرلمان بل ستؤثّر على الوضع الاجتماعيّ.

الثّاني عشر : ظهر أن وضع الحزبين (الدّيمقراطيّ والقوميّ) غير الممثلّين في الكنيست صعب. ففي حين طالبا بالمكانين الحادي عشر والثاني عشر على حساب القائمة الموّحدة (الإسلاميّة والعربيّة للتّغيّير) أكّدت القائمة الموّحدة معارضتها لذلك بل إنّ بعض الأحزاب قال إنّ هذين الحزبين لا تأثير انتخابيّ لهما وقد حان الوقت لنتخلّص من الابتزاز ودفع المال لهما.

كان الحزب الدّيمقراطيّ العربيّ حزبا قويّا ونشيطا برئاسة النّائب عبد الوهّاب دراوشة وفاز بعضوين في البرلمان عندما خاض الانتخابات لوحده في العام ١٩٩٢ كما حصل على نائبين عندما شكّلا القائمة الموّحدة مع الحركة الإسلاميّة ثم تراجع إلى عضو واحد في الانتخابات التي تلتها وأمّا في الانتخابات السّابقة (٢٠١٣) فكان ترتيبه في الموقع الخامس في القائمة الموّحدة (التي حصلت على أربع نوّاب فقط) وهذا يعني تراجعا كبيرا للحزب حيث لم يمثّل بالكنيست بل اكتفى بالتّمويل الشّهريّ.

كان لأعضاء لجنة الوفاق انطباعات متفاوتة عن الوفود التي التقت بها ففي حين أبدى أعضاء اللجنة تقديرهم واحترامهم لجدّية البعض وعمق طرحهم أبدوا استياء من تصرف البعض فقد تحدّث أحدهم باستعلاء وتصرّف كذلك في حين هدّد آخر بخوض الانتخابات لوحده إذا لم تلب لجنة الوفاق الوطنيّ مطالبه إلا أنّ أعضاء اللجنة اتّفقوا على عدم نشر هذه التّصرفات على الملأ وأن يبقوا على بعد واحد من الجميع كما تمّ الاتّفاق على نشر بيان للرأي العامّ يبشّر بأنّ هناك توجّها ايجابيّا لتشكيل قائمة مشتركة ويطمئن الجماهير بأنّ مطلبها سوف يتحقّق.

واستطيع أن أقول اليوم وبصراحة أنّ موقف وعمل السّيّدين رامز جرايسيّ (رئيس وفد الجبهة الدّيمقراطيّة) والنّائب مسعود غنايم (رئيس وفد الحركة الإسلاميّة) كانا رصينين وفعّالين في تشكيل القائمة المشتركة.

حملة عدائية

أنا والحمد لله إنسان متفائل بطبعي واجتهد دائما أن أرى النّصف المملوء من الكأس وأرى الخير في النّاس. هذا هو نهجي في الحياة. لا أيأس أبدا فاليأس عدوّ قاتل يخدم أعداء شعبنا. ألم تعمل السّلطات منذ العام ١٩٤٨ على زرع اليأس في قلوبنا ونفوسنا حتى نرحل عن وطننا.

في لقاءات إذاعيّة وتلفزيونيّة وصحافة مكتوبة وإلكترونية أكدّت أنّ جميع الأحزاب تسعى جادّة لتشكيل القائمة المشتركة، وأنّ الأيّام القادمة ستكون موعدا لميلادها،وبشّرت الجماهير بأنّنا سنزفّ البشرى قي الأيّام القريبة.

كان هدفي من ذلك أن أزرع الأمل في نفوس أبناء شعبنا وأن أزيد حماسهم وتأييدهم للقائمة فهذا يضغط على قادة الأحزاب كما أنّني أضع قادة الأحزاب جميعا تحت المسؤوليّة الكبرى. الشّعب يريد قائمة مشتركة... وعلى الأحزاب أن تلبّي النّداء.

وأصبح حديث الناس عن القائمة المشتركة، في الإذاعة والصّحافة والتّلفزيون والمواقع الالكترونيّة ..وفي المقاهي والمطاعم والشّوارع والنّوادي والدّوواين .... متى سيعلن عن تشكيلها؟ من سيرأسها؟ من المؤيد؟ من المعارض ؟

وتفاءل النّاس وبدأوا يقدّرون عدد مقاعد القائمة التي ستفوز فيها في الانتخابات القادمة وتحدّثوا عن ١٥ مقعدا وأحيانا عن عشرين مقعدا.

وكان هذا التفاؤل مقلقا إلى حد ما .

وهنا تحرّكت قوى مختلفة تهاجم لجنة الوفاق الوطنيّ وتهاجم الأحزاب التي تسعى إلى الوحدة مدّعية أن القائمة المشتركة هي ملك لمليون ونصف المليون عربيّ ولا يجوز أن تسيطر عليها الأحزاب وتطالب بتمثيل الأكاديميّين وأحيانا وبتمثيل المدن الساحليّة وتمثيل المدن الكبيرة وتمثيل بدو الشمال في مرّات أخرى والمطالبة بوجوه جديدة وبوجوه جذّابة أيضا .

وكانت هذه القوى النّاقدة متنوّعة منها (وهو القليل) من كان يريد مصلحة القائمة المشتركة حقّا فيثني على دور لجنة الوفاق الوطنيّ ويبدي رأيه ونصائحه، ومنها من كان يطمح أو يطمع بكرسيّ في الكنيست فكان صوته يعلو ويشتدّ ويحتدّ كلما لاحظ أو لمس تقدّما في تشكيل القائمة، ومنها من كان سلطويّا يسعى إلى تمزيق المجتمع العربيّ ويسعى إلى تكريس سياسة فرّق تسد.

في لقاءاتي الإعلاميّة أكّدت أكثر من مرّة أنّنا شعب واحد ولسنا قبائل، شمالا وجنوبا، مدنا وقرى، ولسنا طوائف ولكنّ القائمة المشتركة ستأخذ بعين الاعتبار تركيبة مجتمعنا.

ومن الأمور التي فاجأتني وأدهشتني رغبة وإصرار عدد لا بأس به ممن لا ينتمون إلى أيّ حزب من الأحزاب للتّرشح في القائمة ... كان صديقي ورفيقي المرحوم توفيق زيّاد يسمّي هذه الظاهرة بفيروس الكنيست الذّي كان يصيب عددا من رفاق الحزب قبيل كلّ معركة انتخابيّة. وجدت اليوم أشخاصا لا علاقة لهم بالسّياسة، فلم التق بهم في مظاهرة أو في اعتصام أو في نشاط وطنيّ يتّصلون بي ويطلبون منّي أن أعمل على ترشيحهم في أماكن مضمونة. وكان بعض هؤلاء مدرّسين جامعيّين محترمين ولكلّ واحد منهم باع طويلة في التّدريس وفي البحث.

كنت لطيفا معهم وحاولت أن أوضّح لهم أن لجنة الوفاق ستعمل على أن تكون القائمة شاملة ومعبّرة وجذّابة فيها الأكّاديميّ وفيها الشّبّان وفيها النّساء.

من المؤسف أن كوادر في الحزب الشّيوعيّ والتّجمّع بدأت تتناقش علانية وتبدي آراءها ضد قائمة مشتركة فبعض رفاق الحزب الشّيوعيّ لا يريدون أيّ تعاون مع التّجمّع ويعارضون بشدّة التّعاون مع حزب دينيّ وأمّا بعض رفاق التّجمّع فيرفضون بعناد أيّ تعاون مع الشّيوعيّين والجبهويّين ويعتبرونهم أعداء كما يعارضون التّعاون مع حزب دينيّ ويحملون بشدّة على النّائب أحمد الطّيبيّ.

ونشطت هذه الكوادر في مواقع التّواصل الاجتماعيّ كما أن الصّحف غير الحزبيّة بدأت تنشر آراءهم ومواقفهم وتبرزها كما أنّ إذاعة صوت إسرائيل أعطتهم فسحة واسعة في برامجها.

اتّصلت بالسّيّد مازن غنايم، وهو إنسان دمث وخلوق فوجدته متحمّسا للقائمة وبعد أن عبّر عن ثقته التّامة بي وبعملي طلب منّي أن نجلس مع سكرتارية اللجنة القطريّة فوافقت وتمّ اللقاء في مكاتب اللجنة في النّاصرة وكان لقاء صاخبا وبدا لي أن بعض أعضاء اللجنة القطريّة لا يعي ما هي مهامّ لجنة الوفاق والبعض الآخر يرغب بأن يقصي الأحزاب ويرتّب القائمة الانتخابيّة وحده والبعض الآخر اختار الهجوم على لجنة الوفاق الوطنيّ وكان هناك من بينهم من هو متّزن وعقلانيّ يناقش بأسلوب حضاريّ ويقدّر دور لجنة الوفاق وعملها.

خرجنا من اللقاء مستائين وقرّرنا أن يكون تعاوننا مع رئيس اللجنة القطريّة فقط.

اتّصلت مع الحركة الإسلاميّة الجناح الشّمالي التي تقاطع الانتخابات البرلمانية مبدئيا واتّفقنا على لقاء مع قادتها.

التقت لجنة الوفاق الوطنيّ مع وفد الحركة الإسلاميّة في مكاتبها في مدينة أمّ الفحم المؤلّف من الشّيخ رائد صلاح رئيس الحركة الإسلاميّة والشّيخ كمال الخطيب نائب رئيس الحركة الإسلاميّة والمحامي زاهي نجيدات والسّيّد عبد الحكيم مفيد.

كان اللقاء وديًا. تحدّثت فيه باسم اللجنة عن الظرّوف السّياسيّة التي تمر بها قضيتنا والتي يعاني منها شعبنا الفلسطينيّ في المناطق المحتلة وعن القوانين العنصريّة التي سنّها وشرعنها اليمين بقيادة نتنياهو وعن مخاطر المصادرة وهدم البيوت وتضييق الفسحة الدّيمقراطيّة والاعتداء على المقدّسات الإسلاميّة والمسيحيّة وعن المخططات القادمة لحكومة إسرائيل إذا ما فاز اليمين في الانتخابات القادمة وأكّدت أنّ الحركة الإسلاميّة الجناح الشمالي ستكون المستهدف الأوّل لحكومة نتنياهو، وان هناك فرصة لتغيير الحكومة وتستطيع الحركة الإسلاميّة أن تساهم في ذلك فإذا ما حصلت القائمة المشتركة على ١٥ مقعدا أو أكثر فسنقرّر من سيكون رئيس الحكومة. وسوف ينشأ وضع مشابه لما حدث في العام ١٩٩٢ عندما تشكّل الجسم المانع، وقلتُ: أنا أعرف موقفكم التّاريخيّ من الانتخابات، ولا أطمح بتغيير ١٨٠ درجة. لا أطمح أن تقولوا علانيّة "هلمّوا بجماهيركم إلى صناديق الاقتراع" ولكنّي أرغب بأن تعلنوا على الأقلّ: نحن لا نعارض الانتخابات ولا ندعو للمقاطعة. ووعدونا خيرا وأثنوا على دورنا التّاريخيّ والوطنيّ وطلبوا منّا أن نتدخل في التّوفيق بين مركبات لجنة المتابعة لاختيار رئيس لها. وخرجنا متفائلين ومنتظرين أن يجتمع مجلس الشّورى ويصدر بيانا حول الانتخابات.

ومرّت أيّام.. ومرّت أسابيع.. وقبيل الانتخابات بأيّام معدودة أصدرت الحركة الإسلاميّة الجناح الشّماليّ بيانا تهاجم فيه الكنيست وتضع فيه كلّ مثالب الحركة الصّهيونيّة ومثالب حكومات إسرائيل طيلة ٦٧ عاما. ولم تبقِ أمرا سيّئا إلا نعتت الكنيست فيه من محاولات التّرانسفير إلى التّمييز العنصريّ إلى الاحتلال والاستيطان وغير ذلك.

حوار الأحزاب مع بعضها

اقترحنا على الأحزاب أن تتحاور في ما بينها لعلّها تتوصل إلى اتّفاق حول تركيب القائمة وبرنامجها. فبدأت الاتّصالات واللقاءات. وتمّ عقد لقاءات ثنائيّة بين الجبهة والتّجمّع والحركة الإسلاميّة والحركة العربيّة للتّغيير وتمّ الاتّفاق على بعض الأمور العامّة ثمّ جرت لقاءات ثلاثيّة لم تُدعَ الحركة العربيّة للتّغيير إليها ثمّ جرت لقاءات رباعيّة. وامتدّت هذه اللقاءات مدّة شهر تقريبا وكنت وبعض زملائي في لجنة الوفاق نتصل بالوفود وندفع إلى التّقدّم في المفاوضات.

دعوت وفود الأحزاب السّتة للقاء جديد في ٢٠١٥/١/١٠ أي بعد حوالي شهر من اللقاء الأوّل. فلمسنا مرارة من الحزب الدّيمقراطيّ العربيّ ومن الحزب القوميّ ففي حين قال ممثلو الدّيمقراطيّ أنّهم حاوروا جميع الأحزاب ويصرّون على أنّهم جزء من القائمة العربيّة الموحدة (الإسلاميّة+الطّيبيّ) وأنّهم يريدون المكان الخامس المخصّص للموحدة من أجل أي اتّفاق معهم ويخافون من إقصائهم

ويطلبون من لجنة الوفاق الوطنيّ أن تنصفهم قال ممثلو الحزب القوميّ أن جميع الأحزاب لم تستجب للجلوس معهم وعلى هذا الأساس قرّر الحزب أن يخوض الانتخابات بدون الجبهة والتّجمّع والإسلاميّة وسوف يشكّل قائمة برئاسة أحمد الطّيبيّ مع طلب الصّانع ومع قائمة ناصرتي (علي سلام - رئيس بلدية النّاصرة) ومع مجموعة من الأكاديميّين.

وأمّا الحركة الإسلاميّة فأفادت أنّها تقدّر دور لجنة الوفاق وأنّها اتّفقت مع الجبهة والتّجمّع حول تقسيم المقاعد من ١-١٢ بحيث تكون ٤ للجبهة ٣ للتجمّع و٥ للموحدة وأن هناك خلافا على المقاعد من ١٢-١٤ وأنّهم موافقون على ترشيح شخصيّة درزيّة في المكان الثالث عشر وطلبوا من لجنة الوفاق الوطنيّ أن تضع الخطوط العريضة للقائمة المشتركة.

وقال النّائب جمال زحالقة باسم التّجمّع الوطنيّ الدّيمقراطيّ بأنّه يثمّن عمل لجنة الوفاق ويجلّ ويحترم جميع أعضائها ويأمل أن تلعب دورا فعليّا ومؤثّرا في تشكيل وترتيب القائمة. وأضاف: موقفنا إنّ الانتخابات السّابقة هي المفتاح أي ٥ مقاعد للموحدة و٤ مقاعد للجبهة و٣ مقاعد للتجمع ويتّفق على ما بعد ذلك، وأمّا النّائب أحمد الطّيبيّ فقال نحن نشكركم على جهودكم واليوم أنا قادم إليكم من اجتماع رباعيّ للأحزاب، كانت الأجواء جيّدة على المستوى الإنسانيّ وسيّئة على مستوى الاتّفاقات. وانتقد موقف التّجمّع والحركة الإسلاميّة وأثنى على موقف الجبهة. وأعلن أنه يرفض مفتاح الانتخابات السّابقة. ثمّ قال: خيارنا القائمة المشتركة ولكن ليس التزاما.

وأمّا المحامي أيمن عودة فقال باسم الجبهة أنّه يشكر لجنة الوفاق وأنّ الجبهة لن تكون شريكة في الأجواء السّيئة التي تحدث في الشّارع. نحن في الجبهة أخذنا قرارا تاريخيّا بإقامة القائمة المشتركة معتمدين على قراراتنا السّياسيّة، بسبب سياسة الحكومة ضدّ شعبنا الفلسطينيّ. وضدّ جماهيرنا في الدّاخل، هذه الحكومة حرّضت على شعبنا وعلينا ويجب أن نعمل كي لا تعود هذه الحكومة إلى السّلطة. نحن في الجبهة لا نقاش معنا حول ترتيب المقاعد فالكلّ متّفقون أنّ لنا ٤ مقاعد من ال١١ الأوائل. وأضاف منصور دهامشة (الجبهة): سنضع ثقلنا كي تكون قائمة مشتركة ونصرّ على مشاركة الأحزاب الأربعة الممثلة في الكنيست. واقتراحنا هو كما يلي: المقعد الأوّل للجبهة والثّاني للحركة الإسلامية والثّالث للتجمّع الوطنيّ والرّابع للحركة العربيّة للتّغيّير ثمّ نرتب المقاعد من٥ - ١١.

لاحظنا أنّ هناك مواقف جادّة ومسؤولة من بعض المفاوضين وأنّهم مستعدّون للسير إلى الأمام وأنّ القائمة المشتركة هدف استراتيجيّ ويرغبون بتحقيقه ولاحظنا أنّ البعض يناور من أجل تحسين مواقع حزبه في القائمة.

وبعد أيّام عقد اجتماع في النّاصرة بمشاركة أحمد الطّيبيّ وطلب الصّانع ومحمّد كنعان وعلي سلام

وعدد من الأكاديميّين وانتقدوا لجنة الوفاق الوطنيّ وحمّلوها مسؤولية عدم إعطائهم حقوقهم في القائمة المشتركة وحملوا على الأحزاب لأنّها تصرّ على تقسيم القائمة بينها فقط.

كان تقديري أنّ الطّيبيّ يحاول تحسين مواقع الحركة العربيّة للتغيير. وكان يتحدّث في الإعلام عن استطلاعات الرّأي التي تعطيه الحقّ في ترؤس القائمة وتمنحه عدّة أعضاء. وكان تقديري أنّ هذا المؤتمر في النّاصرة أو هذا الاجتماع الجماهيريّ واستطلاعات الرّأي هي وسيلة ضغط. فالطّيبيّ لن يغامر ويترّأس قائمة ثانية تخرج عن الإجماع الوطنيّ كما أنّ الغالبيّة العظمى من النّاخبين العرب (أكثر من ٨٠٪) يريدون قائمة مشتركة واحدة وسيعاقبون من يخرج عن ذلك. ولكنّ لو تمّ تشكيل قائمة أخرى فسيكلّفنا جهدا إعلاميّا كما أنّ السّلطة الإسرائيليّة ستشجع هذا الانقسام.

اتّفقنا في لجنة الوفاق على أنّ نحاور الطّيبيّ ونحذّره من تشكيل قائمة لن تعبر نسبة الحسم. واتّفقنا أنّ ترتيب المقاعد سيكون كما يلي: رئاسة القائمة للجبهة والثّاني للإسلاميّة والثّالث للتجمّع والرّابع للحركة العربيّة للتّغيير وأن ترتّب المقاعد حتّى المقعد الثّاني عشر حيث يكون للجبهة أربعة مقاعد والإسلاميّة ثلاثة مقاعد والتجمّع ثلاثة مقاعد والحركة العربيّة للتّغيّر مقعد واحد وأن يكون المقعد الثّاني عشر للموّحدة أيّ أمّا للإسلاميّة أو للحركة العربيّة للتّغيير أو للحزب الدّيمقراطيّ .

وطلبنا من الأحزاب أن يتّفقوا على ترتيب المقاعد من ١-١١ أو من ١-١٢.

نقاش في لجنة الوفاق

منذ بداية عملنا أكّدت مرارا وهذا كان مفهوما وواضحا لجميع أعضاء لجنة الوفاق الوطنيّ أن نكون محايدين وأن نقف على بعد واحد من جميع الأحزاب الأربعة وألا يكون لأحد منا مطامع أو طموح بعضويّة الكنيست أو وظيفة أخرى.

في اجتماعنا في ٢٠١٥/١/١٨ أكّدت أنّه لن تكون قائمة بدون الأحزاب الأربعة وعلينا أن نتحلى بالصّبر كي نوفّق الجميع.

وذكرت أنّني اجتمعت في بيتي مع النّائب السّابق طلب الصّانع مرتين وبيّنت له أنّ شعبنا يريد قائمة مشتركة ويريد وجوها جديدة وقد أحسنت الجبهة الدّيمقراطيّة عندما اختارت أربعة مرشحين من الوجوه الجديدة الشّابّة المثقّفة. كما أن الحركة الإسلاميّة اختارت وجها جديدا واحداً على الأقلّ. وكنّا نودّ لو أنّ التجمّع الوطنيّ فعل ذلك أيضا ولكنّه لم يغيّر أحدا من مرشحيه. وهذا شأنهم. نحن لا نتدّخل بذلك. وقلت له إنّ النّائب الصانع قد شغل عضويّة البرلمان لمدة عقدين ونيّف. وهذا يكفي. وعليه أنّه يختار وجها جديدا من الشّمال أو الجنوب ليأخذ مقعد حزبه وأن

هذه الخطوة تساعد على منحه المقعد الثّاني عشر. وقد وعدني بتنفيذ ذلك. ولكنّي شعرت بأنّه لم يكن راضيا عن طرحي هذا.

ولا بدّ من أن أؤكّد على أنّه كان بين أفراد لجنة الوفاق الوطنيّ نقاش حول أسلوب العمل وحول الرّؤية للقائمة المشتركة وكان هناك انسجام تامّ واحترام بين أعضائها ولكن فوجئت بأمرين:

أوّلهما: علمت من رئيس بلدية النّاصرة السّيد علي سلام أنّ أحد أعضاء لجنة الوفاق (ذكر اسمه الصّريح) طلب منه أن يدعمه كي يكون رئيسا للقائمة المشتركة وقد شكّكت في كلام السّيد سلام ولكنّ بعد يومين زارني في بيتي شابّ من المصابين بفيروس الكنيست وقال لي أنّ العضو الذي ذكره السّيّد سلاّم اتصل بأحد الأكّاديميّين المعارضين للجنة الوفاق الوطنيّ ولتشكيل القائمة المشتركة من الأحزاب واتّفق معه على أن يطالبا أن يكونا مرشحين في الأماكن الأولى.

قررت أن أحفظ السّر وألا أعلم أحدا من الأصدقاء. فيجب أن نحافظ على اللجنة حتّى ننهي مهمتنا.

وبعد أيّام اتّصل بي أحد أعضاء اللجنة، وهو رجل ثقة وأخبرني أنّ العضو الفلانيّ من لجنتنا يرغب برئاسة القائمة ويعتقد أنّه الشّخص الملائم لذلك. وذكّرني بأنّه كان قد قال في اجتماع سابق للجنة أنّ رئاسة القائمة يجب أن تكون لشخصيّة جذّابة. قلت: ولكنّه أيضا اقترح في إحدى الجلسات أنّ تشكّل لجنة الوفاق القائمة بدون موافقة الأحزاب وبدون استشارتها.

ثانيهما: كان أحد أعضاء اللجنة يسرّب ما يدور في الاجتماعات إلى أحد الأحزاب وأحيانا إلى أجهزة الإعلام، وحدث ذات مرّة أنّ كتبتُ مسودّة اتّفاق حول ترتيب المقاعد ثمّ دعونا الأحزاب الأربعة للجلوس معها وبعد أن رحّبت بهم وقلتُ أنّنا توصلنا إلى اقتراح وأخرجت الورقة من جيبي وبدأت أقرأ، وبعد قراءة ثلاثة أسطر قاطعني رئيس أحد الوفود: لا تتعب نفسك، نحن نملك صورة للاتفاق ونعرف أنكم كنتم متّفقين على شيء ثمّ غيرتم موقفكم. لماذا غيرتم وبدّلتم!

توالت الاجتماعات... وواصلنا الليل بالنّهار...

وهدّدتُ في احد الاجتماعات الأحزاب بأنّه إذا لم تتفقوا خلال ٢٤ ساعة فسوف نعقد مؤتمراً صحافياً ونعلن فيه وقف عمل لجنة الوفاق الوطنيّ وسنحمّل المسؤوليّة للطرف الذي أفشل عملنا.

وقد أثّر التّهديد إلى حدّ ما.

سألني أحد الزّملاء بعد الاجتماع لماذا فعلت ذلك وهدّدت بدون أن ندرس الموضوع ونقرّه فأجبت: هناك قول عربيّ مأثور: هدّد بسيف العزّ ولا تضرب به.

في ٢٠١٥/١/٢٠ اجتمعنا مع وفود الأحزاب وكانت قد اتّفقت على توزيع المقاعد من ١-٩ هكذا ١) جبهة ٢) إسلامية ٣) تجمع ٤) حركة عربيّة للتّغيّير ٥)جبهة ٦)إسلاميّة ٧) تجمّع ٨) جبهة ٩) إسلاميّة، وحدث خلاف بين الجبهة والتّجمّع حول ترتيب المقعدين العاشر والحادي عشر. وبقي الخلاف أيضا حول المقعد الثّاني عشر بين الإسلاميّة والحركة العربيّة للتّغيّير والحزب الدّيمقراطيّ.

أخذنا تفويضا من الجبهة والتّجمع بالحكم في ذلك فقرّرنا أن يكون المقعد العاشر للجبهة والحادي عشر للتّجمّع ووافقا على ذلك.

اقترحنا على الأحزاب بالنّسبة للمقاعد من ١٢-١٥ أن توقّع على تفويض للجنة الوفاق لترتيبها. وافقت الأحزاب الأربعة على ذلك وأمّا طلب الصّانع ممثل الحزب الدّيمقراطيّ العربي فرفض أن يوقّع على ذلك وكانت هناك ميول عند عدد من أعضاء لجنة الوفاق بإعطائه المقعد الثّاني عشر. حاولنا إقناع السّيد طلب الصّانع بالتّفويض فرفض بشدّة. وهكذا أخرج نفسه وحزبه من القائمة المشتركة.

كتبنا التّفويض التّالي:

تفوّض الأحزاب الأربعة (الجبهة، التّجمّع، الحركة الإسلاميّة، الحركة العربيّة للتّغيّير) لجنة الوفاق الوطنيّ أنّ تبت في ترتيب المقاعد في القائمة المشتركة وهي المقاعد (١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ١٦، ١٧) وتلتزم جميع الأحزاب بتنفيذ قرار لجنة الوفاق الوطنيّ بهذا الشّأن.

ووقّع على التّفويض الأخوة: رامز جرايسيّ ومنصور دهامشة (الجبهة) جمال زحالقة وباسل غطّاس (التّجمّع) مسعود غنايم ومنصور عبّاس وإبراهيم حجازي(الإسلاميّة)وأسامة السّعدي(العربيّة للتّغيّير) ووقعه عن لجنة الوفاق: محمّد علي طه، محمد زيدان، مصطفى كبها، أحمد ناطور، ماجد صعابنة.

اجتمعت لجنة الوفاق الوطنيّ واستمرّ النّقاش والتّشاور بيننا طيلة يومين كاملين.

ودعونا ممثلي الأحزاب إلى الاجتماع في اليوم الثالث في ٢٠١٥/١/٢٢.

وقبل أن يحضر ممثلو الأحزاب أخرجت من جيبي مسوّدة الاتّفاق الذي كتبته في الليلة الماضيّة ففوجئ زملائي بذلك وبدأت بقراءته على مسمع من أعضاء اللجنة!

قال لي أحدهم: أنت متفائل وتكتب الاتّفاق قبل أن يوافقوا على ما جاء فيه.

قلت: لا مجال للمشاورة. هذا هو الاتّفاق النّهائيّ. وعلينا أن نقف وراءه ولا نسمح بالتّغيير فيه. هم بحاجة إلينا. ولا يستطيعون أن يرفضوه أو أن ينسحبوا من الاجتماع ومن القائمة المشتركة.

وحضر ممثلو الأحزاب وقرأت نصّ الاتّفاق.

لم يرض النّصّ أيّ حزب من الأحزاب فاعتقدت عندئذ أنّنا أصبنا في قرارنا.

وبعد نقاش حادّ وقصير التزمت الأحزاب الأربعة به... وهذا نصّه..

بيان لجنة الوفاق الوطنيّ

بسم الله الرحمن الرّحيم

"واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا"

من منطلق إدراكنا العميق للتحدّيات الكبيرة التي يواجهها شعبنا في الجليل والمثلث والنّقب والمدن السّاحليّة، من قوانين عنصريّة مفروضة ومن مخطّطات صهيونيّة منظمة إلى اقتلاعه من وطنه الذي ليس له وطن سواه، ومع شعورنا بثقل المسؤوليّة الوطنيّة والتّاريخيّة الملقاة علينا، ومن منطلق احترامنا وتقديرنا لرغبة الغالبيّة العظمى من أبناء وبنات شعبنا في تشكيل قائمة مشتركة لجميع الأحزاب الفاعلة على السّاحة العربيّة في البلاد لخوض انتخابات الكنيست العشرين.

ومع معرفتنا التّامّة أنّ هذا المطلب الجماهيريّ هو ما ينشده شعبنا العربيّ الفلسطينيّ في شتّى أماكن تواجده في هذه الظّروف الصّعبة التي تمرّ بها القضيّة الوطنيّة الفلسطينيّة، نودّ في البداية أن نؤكّد على ما يلي:

أولا- يُعتبر تشكيل هذه القائمة حدثا تاريخيّا ودليلا على تلاحم جميع القوى والتّيّارات من أبناء شعبنا ما يمكن أن يشكّل مثالا يُحتذى به في أماكن ومناطق عديدة.

ثانيا- وجدنا رغبة تامّة في هذه القائمة المشتركة من خلال لقاءاتنا الرّسميّة مع وفود جميع الأحزاب.

ثالثا- تشكيل هذه القائمة وتجنيد النّاخبين لدعمها مع رفع نسبة المشاركين العرب في العمليّة الانتخابيّة هو ردّنا على ما تطرحه وتخطّط له أحزاب اليمين الصّهيونيّ التي تتآمر على وجودنا.

وبناء على تفويض ممثلي الأحزاب للجنة الوفاق الوطنيّ في الاجتماع يوم الثّلاثاء الموافق العشرين من كانون الثّاني ٢٠١٥ بشأن تشكيل القائمة ومن منطلق ثقتنا به وشعورنا بالمسؤوليّة التاريخيّة، قرّرنا أن نخصص المقاعد من ١٢-١٧ على النّحو التّالي:

١. المقعدان الثّاني عشر والخامس عشر يكونان بالتناوب بين الحركة العربيّة للتّغيّير وبين الحركة الإسلاميّة على أن يكون النّصف الأول من المدة للحركة العربيّة للتّغيّير والنّصف الثّاني للحركة الإسلاميّة ومرشحها من النّقب، ونعني بالنّصف نصف المدة القانونيّة.

٢. المقعدان الثالث عشر والرّابع عشر يكونان بالتّناوب بين الجبهة الدّيمقراطيّة وبين التّجمّع الوطنيّ، وذلك بعد سماعنا رأي الطرفين وحرصهما على لُحمة النّسيج الوطنيّ، فقد تقرّر أن يكون النّصف الأول من المدة للجبهة ومرشحها شخصيّة من الطائفة الدرزيّة المعروفيّة والنّصف الثاني للتّجمّع الوطني الدّيمقراطيّ ومرشّحه من النّقب.

٣. المقعد السادس عشر للحركة الإسلاميّة.

٤. المقعد السابع عشر للجبهة الدّيمقراطيّة

٥. المقعد الثامن عشر للحركة العربيّة للتّغيّير.

٦. على الرّغم من قناعتنا بأن القائمة المشتركة ستحقق بعونه الله تعالى انجازا يفوق المقاعد الخمسة عشر (وعندها لن نحتاج إلى المناصفة) ولكنّنا نوصي بتشكيل مجلس يضمن التّنفيذ الحرفيّ للاتّفاق يتكون من:

أ. أعضاء لجنة الوفاق التّسعة.

ب. المرشّحين الأربعة الأوائل في القائمة المشتركة أو من ينوب عنهم.

والله ولي التوفيق

وقّعه أعضاء لجنة الوفاق الوطنيّ

١) الكاتب محمّد علي طه ٢) البروفيسور مصطفى كبها ٣) السّيّد محمّد زيدان ٤) السّيّد ماجد صعابنة ٥) السّيّد الياس جبور ٦)الشّيخ محمّد رمّال ٧) السّيّد سعيد رابي ٨) القاضي أحمد ناطور ٩) السيد مازن غنايم

ووقّعه ممثلو الأحزاب

١.الجبهة الدّيمقراطيّة: رامز جرايسيّ ومنصور دهامشة.

٢.التّجمّع الوطنيّ: باسل غطّاس.

٣. الحركة الإسلاميّة: مسعود غنايم ومنصور عباس.

٤.الحركة العربيّة للتّغيير: أسامة السّعديّ.

كفر قرع ٢٠١٥/٠١/٢٢

وخرج الدّخانّ الأبيض من بيت الصّديق ماجد صعابنة في كفر قرع وأعلنّا عن تشكيل القائمة المشتركة.

وبعد أيام عقدنا مؤتمرا صحافيا في مدينة النّاصرة بحضور ممثلي الأحزاب الأربعة. وترأسّتُ المؤتمر وقدّمت

فيه ممثلي الأحزاب ووجدت من المناسب أن أعطي حق الكلام للمرشّح اليهوديّ في القائمة المحامي دوف حنين كما تحدّثت فيه المرشحتان عايدة توما سليمان وحنين زعبي لتأكيدنا على الدّور النّسائيّ.

شملت لائحة القائمة المشتركة تركيبة هامّة جدًا فيها الجبهويّون والإسلاميّون والقوميّون والعروبيّون، فيها العربيّ واليهوديّ، فيها المسلم والمسيحيّ واليهوديّ والدّرزيّ، فيها الرّجال والنّساء، فيها ممثلو الجليل والمثّلث والنّقب والمدن السّاحليّة المختلطة، فيها وجوه شابّة جديدة كما أنّ جميع المرشّحين من ١-١٧ يحملون شهادات جامعيّة.

بعد المؤتمر الصحافيّ كتبت منشورا موجهّا لطلابنا الجامعيّين في جامعات إسرائيل وفي الجامعات الفلسطينيّة في الجامعات الأردنيّة أناشدهم فيه التّجنّد لإنجاح القائمة المشتركة وقد وزّع المنشور بعشرات آلاف النّسخ.

وقام البروفيسور مصطفى كبها بالاتّصال مع عدد كبير من أساتذة الجامعات اليهود للتّوقيع على بيان يدعو لدعم القائمة المشتركة فوقّع عليه ٦٥ أستاذا جامعيًا.

وكان كل شيء يسير على ما يرام.

وتفرّغ جميع أعضاء اللجنة، للعمل على رفع نسبة المشاركة في العمليّة الانتخابيّة.

واليوم وبعد نجاح القائمة المشتركة أودّ أن أؤكّد على ما يلي:

أولا: لأوّل مرّة يذهب النّاخبون العرب إلى صناديق الاقتراع لوحدهم وبرغبة، وبدون أن ينقلهم ناشطون حزبيّون بسيّاراتهم.

ثانيا: لأوّل مرّة تجري انتخابات بدون مال سياسيّ وبدون اتّفاقيّات سريّة.

ثالثا: أحدث تشكيل القائمة جوّا مريحا في المدن والقرى والأحياء وأعاد اللحمة إلى جماهير شعبنا.

رابعا: هذا النّجاح هو ثمرة العمل الجماعيّ.

خامسا: إنّ نجاحنا اعتمد على ثلاثة أمور...

أ- إخلاص أعضاء اللجنة وحبّهم للعمل.

ب- الجماهير العربيّة الدّاعمة والضاغطة.

ج- المسؤوليّة الوطنيّة عند قادة الأحزاب.

أشعر بسعادة وبفرح، لأنّ ما حقّقناه يكاد يكون معجزة. والنّاس فرحون بذلك ومتفائلون. وهذه القائمة هي ابنتي السادسة كما أسميتها في مقال نشرته في الصّحافة وهذا نصّه:

عاتبتُ بقسوة صديقًا إعلاميًّا، على لقاء مبثوث مباشرة على الهواء مع شخصيّة لا تسيطر على لسانها، حيث نطقت سمًّا طائفيًّا في أثناء حديثها عن القائمة المشتركة والانتخابات، فردّ بأنّه قام بعمله الصّحافيّ بمهنيّة وأضاف: أتفهّم غضبك وأعرف جيّدًا دورك في لجنة الوفاق الوطنيّ وأعتقد أنّ القائمة المشتركة مشروع حياة بالنّسبة لك بالإضافة إلى مشروعك الأدبيّ، ولا شكّ بأنّك تنظر إليها كابن لك. فقلتُ بصورة عفويّة: أجل هي ابنتي السّادسة !

حقّقت القائمة المشتركة إنجازًا انتخابيًّا كبيرًا إذ حصلت على ثقة حوالي (٤٤٤٠٠٠) ناخب وناخبة وثلاثة عشر نائبًا في البرلمان وارتفعت نسبة المشاركين في العمليّة الانتخابيّة من ٥٥٪ إلى ٧٠٪ بل إنّ هذه النّسبة تجاوزت ال ٨٠٪ في خمس بلدات عربيّة كبيرة ولولا نسبة المشاركة الضّعيفة في منطقة النّقب، لأسباب موضوعيّة جغرافيّة، لارتفعت نسبة المشاركين القطريّة وازداد تمثيلنا البرلمانيّ، كما حقّقت المشتركة نجاحًا إعلاميًّا، محليًّا ودوليًّا، غير مسبوق حيث اهتمّ الإعلام العبريّ، التّلفزيون والصّحافة المكتوبة، بالقائمة وبمرشحيها وببرنامجها، كما تقاطرت وسائل الإعلام العالميّة لتغطية نشاط مرشحي القائمة ومهرجاناتها الانتخابيّة ونشر التّقارير الإيجابيّة عنها، ولكنّ الانجاز الأهم الذي أبدعته المشتركة هو إزالة الرّواسب العكرة، حزبيًّا وعائليًّا وطائفيًّا، بين أبناء الشّعب الواحد وخلق جو انتخابي مريح ومتفائل في مدننا وقرانا.

هذا التّحالف الجبهويّ الإسلاميّ القوميّ هو تحالف استراتيجي وُلِدَ ليعيش عقودًا عديدةً لأنّه إرادة شعب وقرار شعب ذاق التّمييز والاضطهاد والعنصريّة، ولن يتفكّك كما يتمنّى أكاديميّ نرجسيّ وإعلاميّ صهيونيّ فقد تعهّدت الأضلاع الأربعة لمربع المشتركة بالمحافظة عليه كما يحافظ المرء على بؤبؤ عينه بل أكاد أجزم بأنّ من تخوّل له نفسه، لا سمح الله، بالخروج منه سيجد نفسه مثل السّمكة الخارجة من ماء البحر.

أشعر باعتزاز بأبناء شعبي الذين التفّوا حول المشتركة واحتضنوها، أعتزّ بهؤلاء الشّبّان والشّابّات الذين قدموا بحماس من الجامعات في الدّاخل والخارج، وبهؤلاء الرّجال والنّساء الذين رموا المقاطعة وراء ظهورهم، وبهؤلاء المرضى والمقعدين الذين تعالوا على الألم وجاءوا برغبة إلى الصّناديق، وبهؤلاء النّساء اللائي مارسن حقهنّ الدّيمقراطيّ وقد برعم الأمل في صدورهنّ وزغرد الفرح، وبهؤلاء الرّجال والشّبّان الذين توافدوا بقامات منتصبة وبهامات مرفوعة، وبهؤلاء النّشطاء الحزبيّين الذين عملوا أيّامًا ولياليَ لميلاد النّصر.

عشتُ في يوم الانتخابات حالة من القلق المشروع فقد كنتُ متوترًا وخائفًا ولو للحظات من أن لا تنجح التّجربة وعندئذٍ ستكون الإسقاطات مؤلمة وعديدة ولكنّ أبناء وبنات شعبي أزالوا هذا

القلق من دنياي.

وفي هذه الأيّام، ما بعد الانتخابات أعي أنّ سقف توقّعات النّاس عالٍ وأنّ آمالهم خضراء بينما الواقع السّياسيّ معقّد ومظلم وصعب وسوف تشكّل في بلادنا أسوأ حكومة يمينيّة وأشرس حكومة عنصريّة.

يا أهلا بالمعارك !!

كيف سيتصرّف نوّابنا وكيف سيرعون آمال النّاس ويتجاوبون مع توقعاتهم؟

كيف ستكون علاقتهم مع النّاس وكم مرّة ومرّة سيتجوّلون في مدننا وقرانا؟

وهل سيبقون في هوائنا وفضائنا وعلى ترابنا وصخورنا ؟

أنا أثق بهم.

مرة أخرى يا أهلا بالمعارك، وبوركت يا شعبي، يا من وقفت متحدّيًا عنصريّة أبي لمعة وأبي بلطة وشيخ الحراميّة !!

وأنتم تعرفون هؤلاء الثّلاثة.

المنظور الأمريكي لفلسطين (الأرض المقدسة) ... أبرياء في الخارج

شذى يحيى*

في مايو ٢٠٠٩م، وبعد أشهر فقط، من تولي أول رئيس أسود مقاليد الحكم في الولايات المتحدة الأميركية قام رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتانياهو بزيارته الأولى لساكن البيت الأبيض الجديد، والذي حظي بشعبية كبيرة لدى الشارع العربي المتفائل بالرجل الذي كانوا يرون فيه مدافعاً عن حقوق المظلومين في العالم، ووسط شائعات ملأت الأجواء بأنه غير راض عن السياسات القمعية التي تنتهجها إسرائيل ضد الفلسطينيين، وبأنه سيسعى لتغيير سياسات بلاده المنحازة دائماً وأبداً للصهاينة، ذهب نتانياهو واصطحب معه هدية للرئيس المنتخب، هدية لم يوافق عليها غالبية مستشاريه، ولم تكن هذه الهدية المختلف عليها، أكثر من كتاب رحلات كتبه الروائي الأميركي الأشهر مارك توين عن مشاهداته خلال رحلته إلى أوروبا في منتصف القرن التاسع عشر، وصدر في العام١٨٦٩م بعنوان "أبرياء في الخارج"، وكان سر إعتراض مستشاري نتانياهو أن الكتاب حفل بمشاهد وآراء عنصرية عن المسلمين والملونين، وهو ما قد يثير حفيظة أوباما، ويخلق أزمة دبلوماسية قد تسيء للعلاقات بين الحليفين، ولكن نتانياهو كان مصراً على الهدية، وكان يعي جيداً أن أوباما سيفهم دلالاتها، وللحقيقة فإن دلالة هذا الكتاب والذي يعد أكثر كتب الرحلات مبيعاً في تاريخ الأدب الأميركي، وشكل جزءاً كبيراً من رؤية وعقلية المواطنين الأميركيين تجاه العرب، وما يجري في منطقتهم بعد الكتاب المقدس، وكتاب ألف ليلة وليلة، أو ما يعرف باسم الليالي العربية، وهو أيضاً "ابرياء في الخارج" درة ما يعرف بإسم أدب الإمبريالية الثقافية وواحد من أهم نتاجاتها الكثيرة، هدية أراد

* كاتبة وباحثة من مصر

نتانياهو بها أن يذكر أوباما بأن الشراكة بين الولايات المتحدة وإسرائيل، هي شراكة فكرية وليست مجرد شراكة تقوم على المصالح، وأنها شراكة تتعدى حدود أفكار الأشخاص، لأنها تقوم على بنيان الدول، وعلى منظومة بدأت منذ بداية القرن التاسع عشر عندما طرح بونابارت فكرة الدولة اليهودية للمرة الأولى، وما تلا ذلك من بزوغ ثقافة الاستشراق التي حدد فيها الغرب هوية قياساً بالشرق، كما قال إدوارد سعيد في كتابه الشهير "الإستشراق" وكذلك حمّى الأرض المقدسة والتبشير، التي اجتاحت أميركا بعد نهاية الحرب الأهلية، وارتباط صعود الدولة الأميركية بمملكة الله على الأرض في ذهن المواطن الأميركي العادي، هذه الروابط الثقافية هي ما أراد نتانياهو أن يذكر به أوباما بهذه الهدية، بل ويضغط بها عليه أيضاً فلم تكن الثقافة يوماً قوة ناعمة كما يحلو للبعض أن يطلق عليها، بل هي دوماً القوة الضاربة الحقيقية وراء الجيوش والحروب بل وحتى مفهوم الرفاه الاقتصادي، فقوة السيطرة على العقل هي القوة التي تحرك الحروب الجرارة، وهي أيضاً القوة التي تلحم بنيان الدول، لذلك كان الهدف الأساس للإمبريالية الثقافية السيطرة على عقول الشعوب الغازية وإعطائها شعوراً بأنها تحمل مشعل الحضارة والمدنية، وأن لها أهدافاً نبيلة تتمثل في الخير والسلام والرخاء للإنسانية جمعاء.

أما الهدف الثاني للإمبريالية الثقافية فهو السيطرة على عقل الشعوب المحتلة، عبر إنشاء نخبة ثقافية تعتنق أفكار وقيم الإحتلال، أو تدجين النخبة الثقافية الموجودة بالعطايا المادية والمعنوية، وإقناعها بأنها تساعد في نشر قيم الحضارة والحرية والمدنية بين أفراد الشعب لتساعدها هذه النخب في قولبة أفكار العامة، فتصبح أكثر رضوخاً لفكرة هيمنة المحتل، وتقوية الإحساس بأن ثقافتهم أقل شأناً، وأنهم بحاجة للآخر المهيمن ليحققوا ازدهارهم وتقدمهم، ،هذا الأسلوب لم يكن حديثاً بل هو قديم قدم الإمبراطوريتين اليونانية والرومانية، لكن عصر الثورة الصناعية وتقدم وسائل الاتصال والتكنولوجيا جعله يتخذ منحى أكثر قوة ووضوحاً في القرن التاسع عشر، وتتعدد وسائله بدءاً من المستشرقين والرحلات السياحية والاستكشافية وكتيباتها الإرشادية، والأعمال الأدبية الروائية والشعرية والفوتوغرافيا، والأعمال الفنية والمعارض العالمية، وبعثات التبشير وصولاً لليوم، وبعد عصور العولمة وثورة الإتصالات بالمذياع والتلفاز ووسائل التواصل الاجتماعي مثل تويتر وفيسبوك ويوتيوب .....إلخ.

وكان الهدف هنا ليس مجرد تعريف الغرب بالشرق، ولا حتى التواصل معه أو تحديد الهوية قياساً به فقط، بل كان الهدف الأساس هو خلق بنية متكاملة من المعلومات والقوى التي تحدد مفهوم الشرق، وما هو شرقي من المنظور الغربي، ثم تقديمها للغربيين رؤية تعتمد على فكر الغرب أكثر مما تعتمد على حقيقة الشرق ،هذه الرؤية تعتمد على منظومة القيم والمعارف والأيدولوجيات

الغربية في إطار العلاقة بين الشرق والغرب، وطبقاً لهذا أصبحت الكتابات الغربية الاستشراقية كاشفة للقيم الغربية تجاه الثقافات الشرقية، وليست راصدة لهذه الثقافات، وهي النظرية التي تنطبق على الكتابات الأدبية الأميركية عن الشرق بمقدار إنطباقها على الكتابات الأوروبية، وهو ما لم تكن كتابات توين إستثناء عنه، رغم أنها كتبت قبل أن يصبح الشرق الأوسط محل اهتمام إستراتيجي وإقتصادي للولايات المتحدة، أو كما تقول الباحثة ميلاني ماكاليستر " أن الشرق الأوسط لم يكن في البداية إهتماماً أميركياً، بل كان ينبغي أن يصنع منه إهتماماً أميركياً على المستوى الشعبي، وهنا جاء دور المنتجات الثقافية التي ولدت لدى الرأي العام الشعور بوجوب الاهتمام الديني والإستراتيجي بهذه المنطقة البعيدة من العالم، والتي أدت بدورها لمناقشة علاقة الشرق بالمسيحية واليهودية، والتباين والصراعات التاريخية والثقافية والقيمية بين سكان الشرق الحاليين والعالم الغربي عموماً، وبهذا أصبح الشرق البعيد محل إهتمام القارئ الأميركي العادي من خلال الخلاف، أي أن الشرق قُدم منذ البداية كثقافة معادية لقيم الحضارة الغربية، وكان محل اهتمام من خلال هذا المنطلق".

نعم لم يكن الشرق الأوسط محل إهتمام كبير ربما حتى لفترة ما بعد الحربين العالمية الأولى والثانية، ولم يكن معروفاً جداً قبل منتصف القرن التاسع عشر بالنسبة للأميركيين، لكنه لم يكن مجهولاً بالكلية أيضاً فالإتصالات الأميركية الشرق أوسطية كانت موجودة منذ مرحلة ما قبل إستقلال الولايات المتحدة عن الإستعمار البريطاني، كما شكلت ما يعرف بالحروب البربرية في الفترة من١٨٠١م إلى ١٨٠٥م عاملاً مهماً في خلق الهوية الأميركية التي كانت نواة لإتحاد الولايات فيما بعد، وذلك في أول تجربة عندما شكلت الولايات أسطولاً موحداً للحرب على شمال إفريقيا، وربما كان هذا أول مراحل النظر إلى الشرق كثقافة معادية في وجدان الأميركيين الأوائل، أيضاً كان الشرق الأوسط هو الأرض المقدسة التي يحفظ الأميركيون المتدينون تضاريسها من خلال الكتاب المقدس، ورغم حظر السفر إلى الأرض المقدسة في أوائل القرن التاسع عشر؛ كانت كتابات وأدبيات المبشرين والإرساليات البروتستانتية مصدراً للمعلومات والمعرفة لدى المواطن الأميركي بالأراضي المقدسة، وقاطنيها من العرب والأتراك، ووسيلة لخلق مفهوم معين عن هذه الأرض عضدته رؤية مارك توين في كتابه "أبرياء في الخارج" أحياناً، وخالفته في أحيان أخرى كثيرة، ولم تقتصر المعرفة الأميركية بالشرق على هذه المصادر، بل عززتها أيضاً إعادة طبع منشورات وكتب لأوروبيين عن المنطقة، كذلك مشاهدات ومذكرات لمهاجرين جدد شاركوا في حروب بلادهم القديمة ضد العرب والأتراك، بالإضافة إلى إضطرار رؤساء الجمهورية المستنيرة المتحضرة الأوائل في نهايات القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر لدفع الجزية لولاة الهمج كما أطلقوا عليهم في الجزائر وطرابلس

وتونس، مما عده الأميركيون وصمة عار لطخت رؤسائهم العظام مثل جون آدم وتوماس جيفرسون، وبهذا كان الموقف الأميركي الأول تجاه الشرق الأوسط موقفاً عدائياً لأسباب إقتصادية وسياسية في المقام الأول، وعقدة بالتفوق كدولة متحضرة أمام كيانات همجية بغض النظر عن النشاط الأميركي في إختطاف البشر من مناطق السواحل الأفريقية وبيعهم كعبيد في الولايات المتحدة!، لقد آمن الأميركيون الأوائل أنهم يمثلون قمة الحضارة الغربية التي هي قمة الحضارة والحداثة والتقدم في العالم، ورأوا أن العرب لا يضاهوهم في تقدمهم ولا ديمقراطيتهم ولا حتى ثقافتهم، وكرسوا في أذهانهم التفوق الثقافي والمعرفي والقيمي الغربي أمام الدونية والجهل والطفولية الشرقية، ولم تفلح اتفاقية التبادل الحر للملاحة والتجارة بين الولايات المتحدة والإمبراطورية العثمانية في تغيير هذا المفهوم، بل على العكس عضد الإحتكاك التجاري المباشر من الفكرة المسبقة، وقواها لأن الذاهبين إلى الشرق كانوا يطبقون فكرهم المقولب مسبقاً على كل ما فيه، على العكس نما الآن في الوعي الأميركي أن الإسلام دين معاد لقيم التقدم الغربية الأميركية، فمعاملة العثمانيين وفكرهم وقوانينهم صورت في الذهن الأميركي المتأثر بأفكار مفكرين جمهوريين كدوجلاس ليتل، لم يرَ في محمد إلا غازٍ أجبر أهل الجزيرة العربية والأفارقة على إعتناق منظومة من الأفكار الملتوية بحد السيف، وان هذه الأفكار هي السبب الرئيس في تخلف الشرق، كما وجد الأميركيون في كتابات فلاسفة أوروبيين مثل جان بودين ودينس ديدرو ومونتسكيو ما يعضد هذه الفكرة، وهكذا دخل الدين مع السياسة في الرؤية الأميركية وجاءت الحرب اليونانية التركية في العام١٨٢١م لترسخ مفهوم الخلاف الديني أكثر فأكثر بين الإسلام والولايات المتحدة، خاصة مع الولع الأميركي بما عرف بالفيليلينيزم Philhellenism والخلافة الأميركية للديمقراطية الإغريقية، هذه الفكرة التي كانت إحدى محركات حرب الإستقلال عن بريطانيا، وأصبحت حتى يومنا هذا محدداً للصراع بين الغرب (الديمقراطي) والشرق الأوسط الدكتاتوري، وبين الإسلام الرجعي والمسيحية المستنيرة، مع هذا لم يرفض الأميركيون الشرق بالكلية رفضوا دينه وأناسه لكنهم لم يرفضوه كأرض، فمازال الشرق هو موطن الديانة وحلقة الوصل مع الإله، ولهذا كان الشرق المتخلف الجاهل مهماً لأسطورة إمبراطورية الله الأميركية؛ التي جمعت أعظم ما صنعه الإنسان ووضعه الله، وبهذا اكتسب الشرق أهميته الإستراتيجية كونه ضرورة لإبقاء دعائم الإمبراطورية المتفوقة بتخلفه، وكان لابد أن يصبح للدولة التي هي إسرائيل الجديدة ذلك الرابط مع إسرائيل القديمة التي تمثلها الأراضي المقدسة؛ فرأى الأميركيون البروتستانت البيوريتانيون أنه يجب أن تعكس إسرائيل القديمة الشكل الذي يحلمون به لإسرائيلهم الجديدة، لتكتمل أسطورة الحلم الأميركي بإمبراطورية الله على الأرض، وهكذا أصبح للرحلات إلى الأرض المقدسة في الحياة الأميركية معنىً جديداً، معنىً يرتبط بالوجود الأميركي نفسه

هذا المعنى هو الذي جعل الرأي العام الأميركي دائماً متحمساً لتغيير الشرق الذي يرفضه لشرق أكثر قبولاً من وجهة نظره، وأكثر تماشياً مع أسطورة الإمبراطورية الأميركية، شرق يؤمن بقوة وقدرة القيم الأميركية على حمل الكرامة الإنسانية والعدالة عبر العالم، وقد حملت الإرساليات هذه القيم قبل أية وسيلة أخرى، فقد أسست أول إرسالية أميركية في الأراضي المقدسة في العام١٨٢١م تحت رعاية ليفي بارسونز وبليني فيسك، وكان ممنوعاً عليها ممارسة العمل مع المسلمين طبقاً للقوانين العثمانية، فاتجهت الإرسالية لممارسة نشاطها مع الأرمن والمارون والأرثوذكس؛ على أمل أن يقنع هؤلاء مسلمي القدس بالتحول للمسيحية، وبدأ إنشاء المدارس مثل مدرسة روبرت في إسطنبول والكلية السورية البروتستانتية التي تحولت بعد ذلك إلى الجامعة الأميركية وفي غضون ثلاثين عاماً وبحلول العام١٨٥٠م أصبح عدد البروتستانتيين في الإمبراطورية العثمانية يعتد به، مما دفع السلطات البريطانية وتحت ضغط أميركي لأن تطلب من السلطان العثماني بأن يعترف بالبروتستانت كأحد مكونات الدولة، هذا النجاح الهائل لاقى صدى كبيراً في الولايات المتحدة بسبب النشرات التي كانت هذه الإرساليات تصدرها في الوطن الأم لتبين للجمهور تطور مراحله، مما دفع المواطنين الأميركيين لتقديم الدعم المادي والمعنوي والإيمان بأنه يمكن إنقاذ العرب من تخلفهم، ومن حكم العثمانيين عن طريق هدايتهم للإنجيل وتعاليمه، حتى أن القس ويليام تومسون راعي واحدة من أكبر هذه الإرساليات كتب كتاباً صدر في العام١٨٥٩م بعنوان "الأرض والكتاب"، وارسى فيه أسس هذه النظرية وباع مئتي ألف نسخة في الولايات المتحدة في وقتها، وأعقب هذا الكتاب مئات من الكتب المماثلة التي تحدثت عن نفس النظرية ولاقت رواجاً هائلاً في مختلف الولايات، كان الهدف الرئيسي من هذا الكتاب ومن بقية الكتب إرساء العلاقة الوثيقة بين الأرض المقدسة والكتاب المقدس، وجعلها مفهوماً واحداً لا ينفصل في الذهنية الجمعية الأميركية، هو مفهوم قواه أيضاً المؤلف الذي كتبه البروفيسور إدوارد ربينسون، وهو أستاذ للدراسات العبرية واليونانية عن رحلته للأراضي المقدسة في العام١٨٣٨م، عنونه باسم "أبحاث إنجيلية في فلسطين وجبل سيناء"، وصدر في ثلاثة مجلدات في العام١٨٤١م، ضمنه دراسات تاريخية وجغرافية ونقدية ووصفية، لتمنح القارئ والحاج الاميركي رؤية أميركية خالصة، وخاصة به للأرض المقدسة ،لقد طابق روبنسون جغرافية المشهد الفلسطيني على وصف الكتاب المقدس، برؤية بروتستانتية خالصة، وفي مؤلفه هذا أعطى لبعض القرى العربية أسماء ومواقع ذكرت في الكتاب المقدس، بدون أي دليل بحثي على صحة، هذا وحدد بهذه الرؤية الجغرافية ما سوف يراه الحاج البروتستانتي، وما سيتوقعه في الرحلات التالية، خاصة أنه بنهاية الحرب الأهلية الأميركية وانتشار استخدام السفن البخارية، لم يعد السفر إلى الأراضي المقدسة مجرد حج وتبشير ديني، بل أصبح أيضاً سياحة تدل على المكانة الإجتماعية

والإنتماء للشرائح العليا من الطبقة المتوسطة، والطبقات الأعلى، وبهذا أصبحت تجربة زيارة الأرض المقدسة لها جوانب اجتماعية، وليس مجرد زيارة دينية، فأصبحت تجربة ذات جوانب عقلية وإستشفائية وبحثية، بالإضافة إلى كونها تجربة تطهيرية دينية وتواصل مع الجذور الأولى للديانة، كما أصبح السائح أكثر إهتماماً بالجوانب الثقافية للشعوب الأخرى، ويرى في السياحة جانباً تعليمياً، وإثراءً معرفياً يرتبط بكون الشخص ينتمي لطبقة رفيعة، هذه الطبقة كان جل إهتمامها المادة والجوانب المادية للرحلة، أي الحصول على أقصى استفادة من الأموال التي دفعوها، كذلك كان الإهتمام بإستعمال أكبر قدر من المخترعات العلمية، والوسائل الحديثة وقد أدى هذان الاهتمامان لكثير من التغيرات في الأرض المقدسة، فتم التوسع في إنشاء الفنادق ووسائل الترفيه ومتطلبات السياحة الفارهة، كما ظهرت مهنة المرشد السياحي الذي كان من أبناء البلد وحل محل القس، ولكن هذا لم يغير من حقيقة أن السائح كان مازال يبحث عن الصورة الذهنية المسبقة على الأرض، ويسعى لإثبات ما قرأه من خلال المعايشة، فأصبح البشر والطبيعة في مخيلة السائح كمعرض كبير، يستعين لفهم معروضاته بالشروحات والتجارب السابقة عليه، أي أن التجربة الشرقية في عين الأميركي تغيرت كثيراً عن مجرد الحج، ولكن المحصلة والنتيجة ظلت واحدة، فقط أضيف للبعدين السابقين لصورة الشرق الأوسط في الذهنية الأميركية البعد السياسي، والبعد الديني بعد جديد، ألا وهو البعد الإقتصادي الإجتماعي المتمثل فيما عرف بسياحة الحج كدليل على الثراء والمركز الإجتماعي ، ولمواكبة السياحة كان لابد من وجود نصوص تختلف عن القصص الديني، والكتب التبشيرية والليالي العربية لتتناسب مع الوافد الجديد للشرق الأوسط، رغم أن هذه الكتابات الأولية كانت بمثابة المحفز الأولي للذهن الأمريكي تجاه الشرق الأوسط، وهي أيضاً ما زود العقل الأميركي بالمفاهيم الثقافية اللازمة لإستيعاب كتاب "أبرياء في الخارج"، والذي كانت شركات السياحة الأمريكية توصي مسافريها بالحصول على نسخة منه بالإضافة لكتب أخرى، و للحصول على فهم أعمق لفلسطين ،فما الذي جعل هذه الأهمية لكتاب توين والتي جعلته محط الأنظار حتى يومنا هذا؟!

قبل توين كانت الكتابات غالباً ما تتحدث عن فقر العرب، وتدهور أحوالهم كدلالة على دونيتهم وتختلط فيها تجارب السياح الشخصية مع حكايات سمعوها، وقصص من الكتاب المقدس وأساطير عن الحروب الصليبية ومغامرات فرسانها مع العرب الهمج، فجاءت كتابات من كتبوها متطابقة إلى حد كبير لأنها أتت من نفس الخلفية، حتى أن توين كتب منتقداً هذه الكتب قائلاً "بإمكاني أن أذكر لك بالنص ما كتبوه عما رأوه في طبرية والناصرة وأريحا والقدس، لأن لدي الكتب التي استقوا أفكارهم منها" وهذه الكتب بالفعل شكلت القالب الذي وضعه السائح الأميركي في مخيلته

للأرض المقدسة، ولم يكن المسافر ما بالك بالقارئ ليجرؤ على التفكير في أن واقع الشرق قد يكون مختلفاً عما كتبه هؤلاء الأوائل، ولذلك فسواءعاين ذلك المسافر المظاهر الثقافية للأراضي المقدسة على الطبيعة أو قرأ عنها في الكتب، فإنه يقوم بتحديدها طبقاً للكتابات والنظريات والآراء المسبقة التي وضعت ،ثم جاء توين ورفض هذه الكتابات التي نعتها بالرومانسية والخيالية وسخر منها، ولكنه أيضاً ورغم هذه السخرية أعطى للقارئ الأميركي رؤية جديدة للعرب والشرقيين إتفقت مع سابقاتها في إظهار الشرقيين كجهلة وقذرين ومتخلفين، وأختلفت معها في إدعائه أنها قائمة على الواقع دون مبالغة ولا إسقاطات دينية عقائدية، لكن الحقيقة أن واقعية توين كانت جاهلة وإنطباعية لأنه زعم تقديمه لصورة حقيقية لأرض وثقافة وأناس لم يتواصل معهم، ولم يكن يتكلم لغتهم ورآهم من منطق كلمة (بقشيش) مجرد شحاذين فكانت واقعيته غير صادقة لأنها اعتمدت على ترجمته هو لما رآه، وليس التوصل لحقيقة ما حوله، فعلى سبيل المثال لم يخرج توين عن الرأي الأميركي المعادي للإسلام، ولكنه أرجع هذه العداوة لأسباب إدعى فيها أن الإسلام ضد التقدم والمدنية، وأنه عقيدة تدعو للقدرية وتكرس للرضا بالعبودية، ونفى تماماً أن يكون العداء بسبب إنحيازه للمسيحية، وكان صادقاً في هذه لأنه انتقد الكاثوليكية أيضاً لنفس الأسباب ،ما فهمه توين عن الإسلام هو أنه دين يدعو إلى تحمل شظف العيش والإساءة في هذه الحياة، على أمل الحصول على الراحة والرفاهية بعد الموت، لهذا رأى فيه ديناً يدعو إلى التأخر ويمنع معتنقيه من أن يكونوا أفراداً فاعلين في هذا العالم، ولكنه كان أكثر تسامحاً من معظم معاصريه عندما دعا إلى تغيير ذلك من خلال إطلاع الغربيين للمسلمين على أفكارهم، ومحاولة تغيير نمط حياتهم ومعتقداتهم ليتناسبوا أكثر مع العالم المتقدم، وهي الرؤية التي ربما مازال الغرب يحاول تطبيقها في الشرق الأوسط حتى يومنا هذا.

لم يرَ توين في عرب سوريا وفلسطين غير القذارة والجهل والمرض، حتى حيواناتهم رآها قذرة ومريضة، ومقاهيهم وحماماتهم عفنة، ووصف الأحلام والقصص التي تروجها الكتب والكتيبات السياحية بأنها خدعة كبيرة، وأن السياحة في الشرق ماهي إلا عملية نصب منظم على الأميركيين المتقدمين العظماء فخر المدنية والنظافة والنظام في العالم الحديث، ولكنه عاد فأكد أن العرب أيضاً جنس طيب يتميز بالذكاء والسماحة إن توفرت له ظروف التعليم المناسب والعيش بحرية وعدالة، أما في حالتهم هذه فهم أقرب للدواب منهم للبشر أو على حد قوله "إنهم لا يعترضون على القذارة ولا الأسمال والعبودية، ولكنهم يحبون أن يكونوا أنقياء وأطهار أمام إلههم" وكان الحل من وجهة نظره لمأساة العرب هذه؛ أن تقوم روسيا بغزو الإمبراطورية العثمانية لتخلص العرب من معاناتهم وهو رأي غريب من رجل كان من أهم دعاة الحركة المضادة للإمبريالية، وإن كان رأيه أن هذا لا

يتعارض مع ذاك، فلا بأس من تدخل عسكري محدود لقوى كبرى لتخليص الناس من معاناتهم، وبهذا المنطق ساند توين أميركا في حربها مع أسبانيا على كوبا في العام١٨٩٨م ، وبهذا الطرح مهد توين للجمهور الأميركي الإهتمام بحاضر فلسطين، ليس لمجرد كونها مزاراً دينياً وموطناً للإنجيل، بل لكونها أيضاً مسكناً لأناس بحاجة للحاق بركب التطور والمدنية حتى ولو بالقوة، إن كانوا يريدون تحقيق نبوءة مملكة الله فعلاً فعليهم أن يكونوا فاعلين في إلحاقها بركب المدنية والتطور، وليس مجرد الحج لها ومشاهدة معالمها أي أنه عندما هاجم الطرح الرومانسي لفكرة الأرض المقدسة لصالح طرح أكثر واقعية كما يقول، لم يكن برفض الفكر الديني بل كان يريد أن تتم ممارسته بشكل فاعل مواكب للعصر، وهنا يظهر أن توين كان من الأوائل الذين ساهموا في توجيه إهتمام الرأي العام الأميركي لمناطق كانت خارج إهتماماتهم العادية فعين المواطن العادي كانت دائماً نحو ما يجري في أوروبا من منطلق المصالح المشتركة مع الأوطان الأم، لكن توين أعطاهم الآن ما أطلقوا عليه مثالاً لمنظور غربي رائد تجاه الشرق يدعم فكرة تفوقهم، وما دعم هذه الفكرة أكثر وجعل لها شعبية أكبر في أوساط الأميركيين أنها لم تأت من أحد النخب أو الأثرياء بل جاءت من صحافي ينتمي للطبقة المتوسطة في وسط أميركا ميسوري بالتحديد وأنها جاءت واقعية تخلو من رومنسيات النخبة والمتأثرين بأفكار مفكري القارة القديمة، بالرغم من أن الأفكار التي كتبها توين لم تختلف في مضمونها عن أفكار الأميركيين الأوائل، ومن أنه أخضع الشرق الأوسط لنفس القالب الجاهز الذي تشكل عبر عقود، لهذا كان "أبرياء في الخارج" هو الهدية المناسبة بكل المقاييس لإهدائها من نتانياهو لأوباما فهو خلاصة الفكر الثقافي الأميركي الخاطئ تجاه الشرق الأوسط، والذي تطور عبر عقود من سوء الفهم والأحكام المنحازة للتفوق الغربي وللنظرية الإستعمارية، واليوم وفي نهاية الفترة الثانية والأخيرة من حكم أوباما يبقى الوضع على ماهو عليه، ويبقى شعار السياسة الأميركية الخالد "نحن ملتزمون بامن إسرائيل"، وتظل الخارجية الأميركية تردد جملتها الشهيرة "من حق إسرائيل أن تدافع عن نفسها" لأن الثقافة الأميركية بنيت على أن وجود إسرائيل ضرورة، وانها سفيرة أميركا للمدنية والحرية والتقدم في أرض لم تتغير منذ زيارة مارك توين لها.

المراجع:

١- شذى يحي – مارك توين عراب أسطورة أرض الميعاد – مجلة الهلال – عدد نوفمبر٢٠١٥م

2-The Romance of the Holy Land in American travel writing (1790- 1876) - Brian Yothers –Ash Gate e-Book2007 –Burlington .USA

3-Cultural contact and cultural change Colonialism and Empire – Anne Marie Carsten's

4-Anglo- American Orientalism's – Contribution to the rise of Area studies

المركز العربي للأبحاث ودراسات السياسات –عبد الفتاح نعوم – ورقة بحثية أبريل٢٠١٥م

5-The Orientalist reality, tourism and photography – Tessa Handa –Duke University 2012

6-The traveling and writing self –Marguerite Helmers and Tilar Mazzeo – Cambridge Scholar publishing 2007

7- American Palestine: Mark Twain and touristic commodification of Holy Land –Hilton Obenzinger – working paper

8- American Palestine: Melville, Twain, and the Holy Land mania - Hilton Obenzinger 1999 –Princeton University Press

9- Unlearning great many things: Mark Twain, Palestine and American perspectives on the orient – Christopher Hyde – Trinity College

ذاكرة الثورة

تسجيل وتوثيق تاريخ الثورة الفلسطينية
شهادة الاخ فاروق القدومي "ابو اللطف"

جمع وتحرير: يحيى يخلف

فاروق القدومي (أبواللطف) قائد تاريخي وأحد مؤسسي حركة فتح وأحد قادة المسيرة لسنوات طويلة، وأحد قادة الدبلوماسية الفلسطينية .

النكبة والبدايات

تخرجت من المدرسة العامرية ببافا، وكان من زملائي في الدراسة شفيق الحوت. كان هذا عام ١٩٤٨، ثم في عام ١٩٥٠ ذهبت الى الارامكو وعملت في السكة الحديد للسعودية ولعدة سنوات، ثمّ التحقت بالجامعة الأميركية عام ١٩٥٤ وكنت منتميا الى حزب البعث العربي الاشتراكي وعندما حل عام ١٩٥٨ بدأت أبحث عن طريق للعمل من أجل فلسطين حيث كنت قد تعرفت على ابو عمار و ابو اياد وعدد من الاخوة الذين عملوا في رابطة طلاب فلسطين قبل ان يصبح هناك اتحاد عام لطلاب فلسطين، وبعد هذه الفترة ذهبت الى ليبيا لأعمل هناك ومن ليبيا الى السعودية، ثمّ ذهبت للعمل الى الكويت وهناك التقينا مرة اخرى مع الاخ ابو عمار والأخ أبو اياد ومع زملاء آخرين، ولا شك في ذلك التاريخ كانت الظروف قد نضجت.

شكل نجاح الثورة الجزائرية حافزا لنا، وللقيادات الفكرية الفلسطينية من اجل استلهام الثورة الجزائرية، فنشأت الهيئات والنويات في البلدان العربية من مجموعات صغيرة أهمها حركة فتح، وكان فيها اخوة كبار ويمتلكون تجربة، وكما قلت كان الأخ أبو عمّار والأخ أبو جهاد، والأخوة عادل عبد الكريم وعبد الله الدنان، وأبو الأديب، وصلاح خلف، وخالد الحسن، وعلي ناصر ياسين.

وبالطبع كنت أنا، وأسسنا حركة فتح، وكنت أشرف على اللجنة السياسية واخراج نشرة سياسية، وكنا أيضا قد أصدرنا مجلة فلسطيننا منذ العام ١٩٥٨ وكان للأخ (أبو جهاد) اليد الطولى في تأسيسها ومتابعتها، بالتعاون مع الأخ توفيق حوري وهو أخ لبناني نحترمه ونقدّره.

الانطلاقة

عام ١٩٦٤، في ذلك التاريخ كان هناك احتمال عقد مجلس وطني فلسطيني في القدس فتشاورنا واجتمعنا في الكويت بمن حضر. كان هناك رأيان، بعضهم يقول لابد من الانطلاقة وآخرون يقولون بالتأجيل. حقيقة قلت يجب أولاً انعقاد المجلس الوطني الفلسطيني، يعني اقرار العرب بضرورة وجود كيان فلسطيني، أو دعنا نقول جيش فلسطيني جيش التحرير فهذا يعني دعما لاتجاهنا المسلح، واخيرا قررنا خطة (حتى يغيب القمر) للإنطلاقة وكنّا في الكويت، وكلف الأخ ابو يوسف النجّار قائدا عاما من اجل الانطلاقة والأخ أبو عمّار نائبا له، فكانت الانطلاقة يوم ١-١-٦٥ في عملية نفق عيلبون والتي ارتقى فيها احمد موسى أول شهيد.

وكان للانطلاقة صدى واسع، غير أنّ بعض القوى الفلسطينية الموالية للمرحوم احمد الشقيري انتقدت حركة فتح وادّعت ان هذا التوقيت خاطىء وأن قادة فتح لم ينسقوا مع عبد الناصر، وقالوا ما اسميناها التاءات الثلاث، أي أن انطلاقة فتح كان يتعين عليها أن تختار توقيت غير هذا التوقيت، وأن تقوم بالتنسيق، لكيلا يحدث توريط للدول العربية في حرب غير مستعدين لها، يعني التاءات الثلاث (توقيت، تنسيق، توريط).. وقد كتبت مقالا حول ذلك ورددت على هذه الإدعاءات. كما أنّ بعض الاخوان القوميين كان يعتقدون أن فتح حركة اسلامية، فلما قرأوا الرد بمضمونه القومي بدأت الاتجاهات القومية تنظر بتقدير واحترام نحو حركة فتح.

أنا التحقت بحركة فتح وأنا أحمل فكرا قوميا، وفتح فيها قيادات من خلفيات سياسية من كل الاتجاهات، لكننا تركنا الأحزاب وانصهرنا في فكر فتح الوطني.

وما زلت أذكر كيف تعلمنا الوطنية منذ الصغر، وعلى سبيل المثال عندما كانت الحرب دائرة عام ١٩٤٨ كان هناك صيّاد في يافا يصيد السمك، وكنا ونحن شباب نعرفه ونزوره، ولما بدأت الحرب التحق ليقاتل ضد الاسرائيليين حيث كان يتقن استخدام الـ (TNT) وغيرها من المتفجرات، وخاض معركة ضد مستوطنة بيت فجار في المنطقة الجنوبية من يافا وكنا ايامها في الحارة فذهبنا اليه وكان يحمل معه بعض الجرحى، فأكبرنا فيه هذه البطولة. وصفّق له شباب الحارة بحرارة، فغضب الرجل، وقال: لو كان في أيديكم سلاح لما صفقتم. فكان هذا الحديث بالفعل احد الأمور التي اثرت بي بشكل كبير.

اعتقال القيادة في دمشق عام ١٩٦٦

عام ١٩٦٦ جاءنا خبر حادث استشهاد المرحومين يوسف عرابي ومحمد حشمة في دمشق والملابسات التي رافقت ذلك، واعتقال أبو عمّار وأبو جهاد وأبوصبري وأبوعلي إياد، وبعض الأخوة الآخرين وكلهم قيادات ووضعوا في السجن، جاء اخ اسمه حسام الى الكويت يخبرنا فبحثنا كيف يمكن ان نعالج هذه المسألة، وتم القرار ان الاخ ابو اللطف له علاقة جيدة ولكن من يذهب معه قال الاخ عبد الله الدنان انا اذهب معه، وبالفعل ذهبنا وكان لي علاقات بالاخوة هناك والشعبة الفلسطينية بحزب البعث، وكان اخ اخر اسمه لطف غنطوس، عندما قابلناهم سألونا عن الإخوة وتوجهاتهم السياسية، وأجبناهم عن هويتهم، قالوا كنا نظن ان هؤلاء إخوان مسلمون، قلت لهم أنا امين سر اللجنة المركزية كيف اخوان مسلمون.

فاستغربوا من ذلك وذهبنا لمقابلة القيادة القطرية وقابلنا وزير الدفاع آنذاك حافظ الاسد، كما بدأت اتصالاتي مع من نعرفهم من اخواننا في حزب البعث، القيادة القطرية، ثمّ عدت الى الكويت ومكثنا هناك فترة من الزمن لتقييم الموقف مع الإخوة في القيادة، وبعد ذلك عدت الى دمشق مرة أخرى وكانت قد توترت الاوضاع اكثر فقررت الاستعانة بالأخ أبو اياد، فكتبت اليه برقية اركب اقرب طائرة واتجه فورا الى دمشق، وفي غيابي كانوا قد وضعوا الاخ ابو عمار في الزنزانة فوصلنا الى هناك، وذهبنا الى وزير الدفاع آنذاك حافظ الاسد، فقال له ابو اياد يقولون انك سوف تشنق هؤلاء. قال يا رفيق ابو اللطف من قال لكم ذلك؟ قلت له شائعات يا رفيق ابو سليمان(كنا نقول له ابو سليمان رحمه الله)، فنادى على الاخ خالد وهو مرافقه وهمس في اذنه ثم قال تفضلوا اذهبوا اليه واخرجوه، فذهبنا الى الزنزانة واخرجنا الاخ ابو عمار ففرح طبعا وكانت هذه بشرى لنا وكان الأخ أبوجهاد قد خرج بعد وفاة ابنه الصغير.

خرج الأخ أبو عمار ومن معه باستثناء الأخوة ابو عبد العكلوك، وزكريا عبد الرحيم، والزغموت. لكن ابو العبد وزكريا خرجا بعد محاكمة، وحكم على الزغموت بالمؤبد.

بعد هذا الحادث مباشرة وكنت اقيم في فندق قاسيون بدمشق، اتصل بي أبو إياد وقال يا ابو اللطف اختفى ابو عمار بعدما اخرجناه من السجن، فذهبت اليه حيث يقيم وكان الاخوان جميعا موجودين، قالوا : ماذا نفعل؟ قلت لهم: دعونا نسال اخواننا السوريين.

عادة كنا نذهب الى الاخ احمد السويداني رئيس الاركان وكانت علاقتنا به جيدة وكان يستمع الينا، فعندما دخلت عليه بعد الساعة الثانية عشرة ليلا قال هل هناك بعض الحوادث؟ قلت له آسف ان اقول لك ان الاخ ابو عمار اختفى ونريد ان نبحث عنه، ونعرف أين هو؟ وتوقعاتنا أن يكون قد اعتقل إما من اللبنانيين أو الاسرائيليين، اذا اسرائيل الله يعوضنا لكن اذا القوات اللبنانية ممكن

ان نجد حلا، قال استريح اشرب فنجان قهوة والاخ ابو اياد ينتظر، فخرج قليلا ثم عاد وقال لي: لا تخافوا هو عند الاخوان اللبنانيين. ثمّ حدثت تدخلات وأفرج عنه.

المؤتمر الأول ومعركة الكرامة

عقدنا المؤتمر الأول لحركة فتح عام ١٩٦٧وحضره عدد ضيق، لانه عقد في بيت أبو جهاد، من الرعيل الأول يعني شباب كانوا معنا لاننا نحن سابقا شكلنا لجنة مركزية، وهؤلاء الشباب كانوا معنا وكانوا في نفس الوقت اعضاء في هذا المؤتمر ومنهم صلاح الزواوي ومختار بعباع ومحمود فلاحة الذي كان يشتغل سكرتير عند الرئيس الاتاسي، وصبحي أبو كرش وابو منهل وابو العبد العكلوك.

بحثنا كيف نصعّد النضال بعد نكسة حزيران وضرورة ان نستمر في الثورة .

كنت الموجه السياسي في معركة الكرامة، كنت مع أبو عمار، وأبو جهاد، وأبو إياد، وأبو صبري، وكان معنا كوادر هامة ومنهم صلاح التعمري، والحاج اسماعيل، وغيرهم، وكانت ام يوسف أم الشهداء، معنا أشبال حوالي مائة وعشرين وحفرنا لهم الانفاق حتى يختبئوا بها.

لم يكن احمد جبرين معنا. كان الأخ نصر يوسف في غور نمرين، كان ربحي الذي وضع الحزام الناسف. كان هناك شباب تدربوا في الصين التعمري واخرون يتسلحون بالبنادق ومدافع الهاون والـ آر بي جيه. وقد تصدت للدبابات الاسرائيلية مجموعات شجاعة اول مجموعة متقدمة استشهدت وهي تتصدى للإسرائيليين وتوقع بهم خسائر فادحة. كانت معركة الكرامة ملحمة بطولية. كان هناك الجيش الاردني والقائد العسكري اللواء مشهور حديثه الذي أبلى بلاءً حسن هو وجنود وضباط الجيش الأردني، وصعدنا أنا وأبو اياد الى الجبل، وكان الأخ ابو عمار يدير المعركة وكان في المنطقة الشمالية، وبعد أن صعدنا أنا وأبواياد حوالي مئتين أو ثلاثمائة متر، جلس أبو اياد الى جانب صخرة، والتقينا الأخ أبو صبري، فواصلنا المشي الى ان وصلنا مغارة في الجبل هناك قال انا لن اذهب حتى يخرج آخر فدائي مناضل من المعركة سالما، وبقينا حتى الساعة الخامسة والثلث، انسحب الاسرائيليون بعد الضربات التي تلقوها خاصة من المدفعية الاردنية وعدنا في الليل مشيا الى قاعدتنا في السلط، ولم يصل أحد منا عمّان الاّ بعد ظهر اليوم التالي، وكانت ام اللطف تبحث عنا ونزلت هي وصديقة لها من سوريا الى بلدة الكرامة تستفسر عنّي، فأدخلوها الى موقع فيه ثلاثة وتسعين شهيدا وقالوا لها ابحثي عنه بين هؤلاء الشهداء. وبدأت أبحث عنها بدوري عندما علمت بذلك واتصلت هاتفيا وقلت لها انا موجود.

في معركة الكرامة قاتل الفدائيون ببسالة، وبسلاحهم البسيط، يجب ان نعترف انه لم يكن عندنا الا عدد من قواذف آر بي جي٢، ولما حدثت المعركة وانتهت، أرسل الرئيس عبد الناصر لجنة من

الجيش مع خبراء روس وفحصوا ما جرى، وشاهدوا دبابة مضروبة والجندي الاسرائيلي بداخلها، وبعد فترة من الزمن بعثوا لنا الآربيجيهات ٧، وكان ذلك بداية لامتلاكنا نوعاً متقدماً من السلاح.

العلاقة مع عبد الناصر

حتى معركة الكرامة لم نكن قد التقينا بالرئيس عبد الناصر، فأول مقابلة طلبناها كنا ما زلنا في الكويت. كنت مع أبو عمار ومعنا الأخ محمود مسودة (أبو عبيدة) دعانا صلاح نصر مدير المخابرات، وبدأ يتحدث معنا، ووعدنا بترتيب موعد مع الرئيس عبد الناصر. انتظرنا يوم يومين ثلاثة، ولم نقابل عبد الناصر وكان ابو عمار موجوداً في بيت أخيه الكبير، ووجدته قلقا وقال لي: ماذا نقول للناس. وبذكائه وجد مخرجاً من المأزق حتى لا يقول الآخرون وخاصة جماعة الشقيري أنّ عبد الناصر رفض مقابلتنا. وكان في العمارة التي يسكن فيها شقيقه جمال الصوراني عضو لجنة تنفيذية مع الشقيري، وكذلك عبد الفتاح الشريف وكان يعمل مع الشقيري في منظمة التحرير، ففكر الأخ أبو عمار بذكائه المعهود أن يخترع كذبة بيضاء، فانتظر نزول عبد الفتاح الشريف وتظاهر أنه يهيء نفسه للذهاب الى المطار ورتّب سيارة تنتظره، وعندما نزل الرجل من شقته قابل أبو عمار فسأله عن أخباره، فأجابه جئنا والتقينا الرئيس عبد الناصر، ثمّ ركب السيارة وذهب الى المطار.

اخونا عبد الفتاح خبر الشقيري ان ابو عمار قابل عبد الناصر.

أنا مكثت في مصر أمارس نشاطا سياسيا مع القوى والشخصيات التقدمية والقومية ومع الطلبة الفلسطينين هناك، ومحاولة بناء علاقات مع المستوى السياسي الرسمي المصري.

ولم ننجح في البداية واقتصرت علاقاتنا مع اللواء صادق الذي كان مسؤولا عن الاستخبارات العسكرية. وكانوا يطلبون قبل الـ ١٩٦٧ ألاّ نصعّد العمليات في غزة الا بالتنسيق معهم.

وأحيانا عندما كنت أسافر يوقفوني في المطار فيأتي الأخوة من الجهات المختصة ويدخلونني. بعد عام ١٩٦٧ وتصعيد الكفاح المسلح بدأت العلاقات تتحسن، وجاء أحد كوادرنا وهو الرائد خالد (رحمه الله استشهد في ما بعد إثر غارة اسرائيلية على قواعدنا في السلط) وكانت تربطه علاقة شخصية بالسيد محمد حسنين هيكل. التقى بي وذهبت أنا وإياه لمقابلة هيكل.

وعندما دخلنا قدمت له نفسي كعضو لجنة مركزية، وقدّمت الرائد خالد كعضو مجلس ثوري.

اغتاظ هيكل وقال لي: اذهب وقابل رئيس المخابرات المصرية أمين هويدي، فأجبته: نحن نريد أن نقابل المستوى السياسي وليس جهاز المخابرات، تعبنا من كثرة لقاءاتنا مع الجهات الأمنية.

ثمّ جلسنا معه وتحدثت معه طويلا عن أفكارنا وأهدافنا وطموحاتنا وتوجهاتنا القومية.

وفي نهاية الحديث، قلت للاستاذ هيكل مرة أخرى نحن نريد ان نقابل سياسيين وليس مخابرات فأجاب: امهلني عشرة دقائق، وسأحاول.

غاب عنّا عشرة دقائق بالفعل، ثمّ عاد، وقال غدا ستقابل سياسيا، قلت له: سيكون معي أخ من اخواننا وهو عضو لجنة مركزية قال احضره معك. كان المعني هو الأخ ابو اياد الذي كان في ذلك الوقت موجودا في القاهرة.

عندما خرجنا اتصلت به وقلت له ستكون هناك مقابلة مع شخص سياسي، والسياسي هو علي صبري على ما أظن.

في اليوم التالي التقينا هيكل وركبنا معه في سيارته.

على الطريق سألنا مازحا: أتعرفون الى أين أنتم ذاهبون؟

وكنا وقتها على مشارف حي منشية البكري حيث يسكن الرئيس عبد الناصر.

أجبته وقد أدركت ماهية المفاجأة: نعم نعرف عند سيادة الرئيس.

دخلنا منزل الرئيس، وجلسنا في الصالة ننتظره وكنت أحمل حقيبة جلد لونها أخضر، جلست ووضعتها بجانبي، ولفت هيكل نظري أن هذا المقعد سيجلس عليه الرئيس، فانتقلت الى مقعد آخر ونسيت أن آخذ حقيبتي.

دخل الرئيس عبد الناصر علينا انا وابو اياد وهيكل، وجلس وبدأت الحديث معه كالتالي: نحن فتية آمنوا بالله وبربهم وبقضيتهم فمنا من هو القومي ومنا من هو البعثي ومنا من هو الناصري، قال لا يوجد حزب ناصري قلت له انا ناصري يا سيادة الرئيس فضحك، وانا قلت للاستاذ هيكل نحن نريد ان نقابل رجلا سياسيا فضحك وقال قبل مجيئكم جائتني برقية من المخابرات ان رجال الفتح دخلوا ليغتالوني، ثمّ ضحك وقال لمن هذه الشنتة الخضراء قلت سيادة الرئيس هي لي فيها أوراقي اذا شئت افتحها، قال لا شنتة الفتح ما تنفتح، وتحدث ابو اياد وقدم له شرحا وافيا، فقال لأبو إياد انا سأقسم الرغيف بيني وبينكم، وتأكدوا من ذلك. قلت يا سيادة الرئيس نحن نريد اتصالا سياسيا لا مخابراتيا، قال طيب. وقال سيكون محمد حسنين هيكل هو الصلة السياسية وانت قلت ان صادق كان صادقا معنا قلت له نعم يا سيادة الرئيس، قال واللواء صادق هو العلاقة الأمنية. وانتهت المقابلة وخرجنا وبدأت العلاقة تتطور بالفعل.

ثمّ كان لنا معه اللقاء التاريخي بعد معركة الكرامة، وصرّح بعدها أن المقاومة الفسطينية وجدت لتبقى.

أوراق عربية

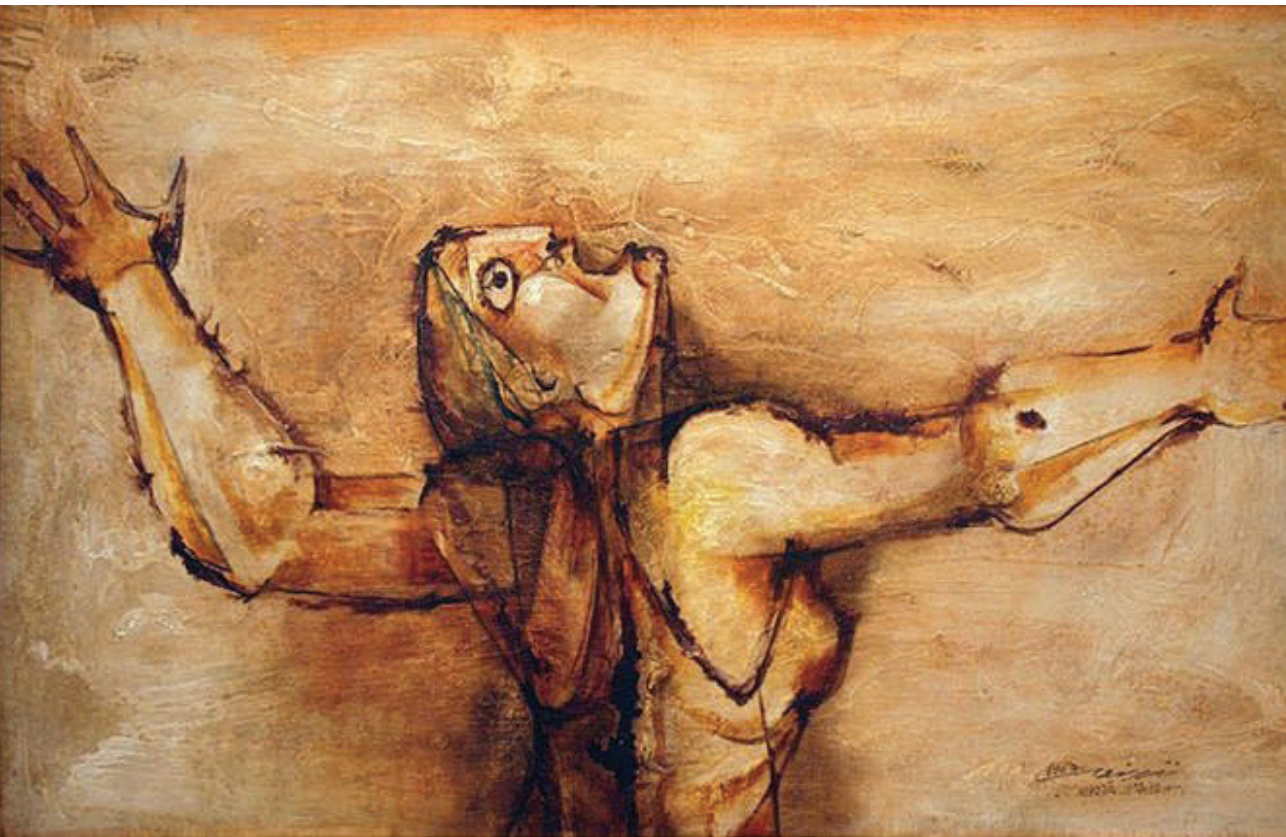

هل نحتاج لمستبد ..حتى لو كان عادلا؟

محمود الورداني*

في أعقاب ثورات الربيع العربي، أطلّت من جديد فكرة المستبد العادل، وهي فكرة لم يتوقف عالمنا العربي على الانشغال بها بين الحين والآخر، باعتبارها حلا للمشاكل التي تواجه شعوبنا.. سوف أحاول في السطور التالية أن أتتبعها وأفحصها وأناقش ماورد حولها هنا وهناك.

لنبدأ بأشهر من أُطلق عليه هذا التعبير عربيا، وهو جمال عبد الناصر طبعا. ففي رواية توفيق الحكيم الشهيرة "عودة الروح"، توقف الكثيرون عند جملة "الكل في واحد" الواردة فيها. وهناك ما يشبه الإجماع على أن المقصود بالكل: الشعب، أما كلمة الواحد فقد اختلف دارسو أدبه حولها. هل المقصود بها الوطن أم الزعيم؟.. وعندما ذكر جمال عبد الناصر أكثر من مرة أنه قرأها وتأثر بها، بات المعنى الأخير هو الأكثر ترجيحا.

ولما كانت رواية عودة الروح صدرت طبعتها الأولى عام ١٩٣٣، فلا شك أن عبد الناصر قرأها في مطلع شبابه، وأغلب الظن أنها حفرت بصمات عميقة في وجدانه. والرواية- كما هو معروف- تتخذ من ثورة ١٩١٩ في مصر مسرحا لها، وتنادي بمستبد عادل يعيد الروح لهذا الوطن، ويلتف حوله الجميع، بوصفه عادلا ومستبدا معا، وهي معادلة بالغة الصعوبة، إلا أنها كانت المعادلة الوحيدة - آنذاك - التي يمكن الركون إليها، حسبما رأى الحكيم.

على أي حال، وبحثا عن تأصيل نظري للفكرة يجب العودة إلى الوراء. وحسبما أشار أحمد صادق سعد في كتابه "تاريخ مصر الاقتصادي الاجتماعي" الصادر عام ١٩٧٩ عن دار ابن خلدون، فإن الحضارات الشرقية عموما، تميّزت منذ فجر التاريخ، بما أطلق عليه "الطغيان الشرقي"، ويحدد

* كاتب من مصر

معناه بأن "الدولة في أشكالها البدائية تجسدت في ذات الملك أو السيد الأعلى، وبدت أعمالها وكأنها نابعة من إرادته الشخصية فقط".

وينقل صادق سعد عن كتاب لكارل فيتفوجل عنوانه "الطغيان الشرقي" أن النظم المائية التي أسست حضارات في بلدان عديدة مثل مصر والمكسيك وبيرو والعراق والهند والصين، لم يكن ممكنا لها أن تستقر وتنمو هذا النمو الهائل، إلا من خلال حكام أقوياء يستطيعون فرض أوامرهم للسيطرة على الأنهار، بوصفها شريان الحياة في كل حضارة من الحضارات السابق الإشارة إليها.

وفي هذا السياق، من المؤكد أن الحاكم أو الملك كان يأمر وكلاءه بتعبئة عمالة ضخمة، لتنظيم الري مع إيجاد تقسيم جيد للعمل، وهو مالم يكن ممكنا إلا بوجود سلطة مركزية طاغية، وهو الأمر الذي لم يحدث في البلدان المعتمدة على ماء المطر. وهكذا مارس الحاكم سلطة غير محدودة على الكادحين، وهكذا أيضا تطورت تلك السلطة ورفعته إلى مصاف الآلهة.

على ذلك النحو يمكن تفسير بناء المعابد الهائلة التي لم تزل آثارها قائمة حتى الآن، فمثل تلك المعابد كانت تحتاج إلى سيطرة على أعداد ضخمة من الأيدي العاملة، مع قدرة عالية على التنظيم واستخدام السجلات المحاسبية ونظم المراقبة واللوائح والقوانين. وبينما بادر التجار بإقامة الاتصالات البريدية المنتظمة في أوروبا ذات المجتمعات اللامركزية، تولّت الدولة في الحضارات المائية تنظيم البريد. هذا بالإضافة إلى أن الدولة الثابتة الأركان في الحضارات المائية تحتاج إلى موظفين ثابتين، لذلك حكم الملك من خلال مجموعة من الإداريين الذين يسيطرون على أغلب النشاط السياسي و الاقتصادي والديني، وهو ما حال دون بلورة قوى أخرى في المجتمع ذات نفوذ كاف في مواجهة سلطة الملك.

وقد ذكر فيتفوجل بالنص، حسبما أورد صادق سعد في كتابه السابق الإشارة إليه أن الطغيان الشرقي "لايسمح بوجود سياسي غير حكومي، وفي التحليل الأخير، الحكومة المائية (أي تلك المنتمية للحضارات المائية) هي حكومة تعتمد على التخويف "ويضيف" وهكذا تصبح الدولة أقوى من المجتمع وترفض رقابته، كما أنها لا تسمح بنمو دين غير دينها".

والحال أن المستبد لم ينشأ من الفراغ، ومنذ اللحظة الأولى في المجتمعات المائية، كان وجود المستبد – وهو ليس عادلا على الأرجح- مرتبطا بمجموعة من الموظفين الكبار أعضاء الأرستقراطية ممن يتمتعون بامتيازات يمنحها لهم الملك.

في هذا السياق، بادر عدد من علماء الاجتماع والمفكرين الاقتصاديين – وخصوصا الماركسيين- بطرح نمط جديد للإنتاج أطلقوا عليه "نمط الإنتاج الأسيوي"، استغرق مرحلة كاملة من نشوء وتكوّن

الحضارات المائية التي حكمها الاستبداد الشرقي، مما شكّل دعائم مجتمع مختلف عن المجتمع المعتمد على ماء المطر، مجتمع مرهون استقراره بمستبد، وليس ضروريا ولامهما أن يكون عادلا أو ظالما!

وفي ظل ذلك النمط اكتشفت الأدوات الزراعية مثل المحراث الخشبي وتربية الحيوانات الأليفة وفنون العمارة والتشييد، إلى جانب اختراع الكتابة وظهور العُملة والأديان.. أي ان التحول إلى الزراعة المسقرة المعتمدة على شبكة منتظمة مركزية تحقق أقصى استفادة من ماء النهر، أطلق في حقيقة الأمر قوى إنتاجية جديدة.

وفي ظل ذلك النمط أيضا، تقدم بلاد ما بين النهرين أحد نماذج نمط الإنتاج الآسيوي، حيث تشير الأساطير البابلية إلى أن الملك سارجون مؤسس الأسرة الأكادية، اعتمد على الشعب في مقاومته للغزو الأجنبي، وفي الوقت نفسه قام بالقضاء على معارضة الأرستقراطية القديمة المحلية (حوالي ٢٣٠٠ ق.م)، وأصبح يمثّل في شخصه وحدة البلاد. لذلك حصل على سلطات هائلة، سواء لسيطرته على النهر أو لكونه الكاهن الأعلى. وتوالت أسر حاكمة عديدة بعد ذلك، لكن الملك كان ضرورة وأساسا لأي نظام، ودائما ما يمنح نفسه سلطات واسعة، ودائما مستبدا سواء كان عادلا أو ظالما!

من جانب آخر، يؤكد باري ج كيمب في كتابه "تشريح حضارة" الذي ترجمه أحمد محمود وصدر عن المركز القومي للترجمة في مصر أن التواصل المنتظم للمَلَكية في مصر هو الصورة الرئيسية التي تخيلها المصريون للماضي مهما كانت تلك الصورة. لذلك احتفظوا بقوائم للملوك الراحلين التي يعود أغلبها إلى الدولة الحديثة، أي بعد تراكم ألف وخمسمائة سنة من استقرار الملكية, ويضيف كيمب أن ممارسة تقديس الأسلاف الملكيين، وتكرار أسمائهم في قوائم مختلفة تعود لعصور متباينة من التاريخ المصري القديم، إنما يؤكد الدور المركزي للمستبد الأعلى, ومن اللافت للنظر أن ملوك القوائم اشتركوا في لقب واحد، فجميعهم ملوك الوجهين القبلي والبحري، وهما التقسيمان النموذجيان للوادي والدلتا، كتعبير قوي عن الوحدة المتجسدة في شخص الملك الإله.

وفي العصور التالية ،بعد ظهور الإسلام مثلا،لعبت الخلافة الإسلامية دورا أساسيا في صياغة مفهوم جديد ومختلف للمستبد الذي سبق أن رأيناه في الحضارات المائية. وكان الصراع السياسي، وليس الديني، بين الخليفتين عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب، أفضى إلى مزيد من الاستبداد في أعقاب الفوضى والاضطراب السائدين بعد قتل عثمان وانتقال الخلافة إلى علي. واشتد الصراع ووصل إلى حمل السلاح، واندلعت معارك طاحنة على النحو المذكور في مصادر التاريخ الإسلامي بين شيعة علي وشيعة عثمان، حسبما أورد الأصفهاني مثلا في مقاتل الطالبيين، والطبري في تاريخه المعروف.

وبعد اتساع الأراضي التي فتحها المسلمون ودخول أمم الأرض في الدين الجديد، اتجهت الخلافة الأموية إلى مزيد من الاستبداد، وحكم بنو أمية بالسيف وحده. أما انتقال الخلافة إلى العباسيين، وفق ما ذكره صادق سعد في كتابه المشار إليه، فلم يكن مجرد تغيير للأسرة المالكة الحاكمة، بل كان ثمرة لثورة حقيقية قادها الموالي والتجار والحرفيون ضد الارستقراطية العربية وماتمثله من استبداد.

ليس المقصود في الدراسة التي بين يدي القارئ السرد التاريخي، أو إعادة قراءة التاريخ إلا من زاوية محددة، هي تتبع الاستبداد ومحاولة تقصي مساره، لذلك أنتقل بسرعة للفترة التالية التي شهدت تمزق الخلافة الإسلامية ونشوء دويلات وأسر حاكمة في أرجاء العالم الإسلامي، ساد فيها الحكم المطلق والاستبداد – دون عدل غالبا. فعلى سبيل المثال حكم المماليك مصر والشام والجزيرة العربية حكما مطلقا مستبدا. صحيح أنهم كانوامحاطين بالأعداء المتحينين لأي فرصة للانقضاض والتهام أجزاء من أراضي المسلمين، وهو ما حدث بالفعل حيث أقام الصليبيون مستعمرات راسخة في أجزاء من فلسطين والشام عموما، لكن الاستبداد بات هو النظام المعمول به في الحرب والسلم على السواء، ويحفل التاريخ المدوّن بالكثير من حوادث وأشكال الاستبداد الفظ لأمراء وسلاطين المماليك، في ظل وجود قوة سياسية وعسكرية وحيدة تحكم بالسلطة المطلقة للسلطان، وفي ظل عدم وجود قوة أخرى توازن تلك السلطة.

وهنا لابد من الإشارة إلى أن الخليفة منذ بداية نظام الخلفاء ظل هو الحاكم بأمره، فلم تكن هناك أشكال من المجالس والهيئات التي تستطيع مناقشة أورفض سياسات وأوامر الخلفاء، وهو مالم يكن مقصورا في حقيقة الأمر على الخلافة الإسلامية، لأن الاستبداد والحكم المطلق كان سمة أساسية لكل النظم الإقطاعية في أرجاء العالم طوال حقب عديدة، ليس في الشرق فقط، بل في الغرب أيضا.

بعد هذا العرض شديد الإيجاز لتاريخ الاستبداد، لابد من الإشارة إلى واحد من أشهر المستبدين، وهو محمد علي باشا، الذي حظى بهالة من السحر والتألق، رفعته إلى مرتبة الأسطورة. كان محمد علي، كما هو معروف، مجرد ضابط من ضباط الفرقة الألبانية التي وصلت إلى مصر لفرض الأمن والسيطرة من جانب السلطان العثماني، عشية رحيل قوات الحملة الفرنسية عائدة إلى بلادها بعد احتلال دام بين ١٧٩٨ و١٨٠١ م . ثم قام السلطان العثماني بتعيين محمد علي قائدا للقوات التي أرسلها لإعادة السيطرة، غير أن محمد علي استطاع أن يتسلل إلى مشايخ الأزهر، نخبة البلاد في ذلك الحين، ووثّق علاقاته بمختلف القوى والتيارات الناشطة في وطن تم احتلاله لأكثر من ثلاث سنوات، قام المصريون خلالها بعدد من الثورات العنيفة ضد الاحتلال، مما خلق حراكا سياسيا واجتماعيا طوال فترة الاحتلال، خصوصا أن بونابرت، قائد الحملة، كان يحمل معه مشروعا سياسيا

مثّل أول احتكاك مباشر وعنيف بين الغرب، الذي كان بونابرت ممثله وممثل الثورة الفرنسية في الوقت نفسه، وهي التي حملت شعارات الحرية والديمقراطية والمساواة. وفي هذا السياق قام بونابرت بإنشاء مؤسسات تمثيلية مثل الديوان في مصر، لكنها كانت مؤسسات كاريكاتورية لم تنجح في الصمود طويلا.

أما محمد علي فقد انعقد إجماع المشايخ على اختياره واليا، ومن ثم بقية الطوائف المؤتمرة بأمر المشايخ، بل إن المصريين ثاروا على السلطان العثماني، ورفضوا تعيين الوالي الذي قرر السلطان تعيينه، وفرضوا محمد علي فرضا على السلطان، وهو أمر كان في ذلك الحين متجاوزا لكل ماهو مستقر من شرائع وتقاليد وأعراف، فالشعب لم يكن من شأنه اختيار حكامه، فضلا عن أن رفض قرار السلطان كان له اعتباره الديني، لأنه خليفة المسلمين وليس مجرد سلطان.

على أي حال لم يعرف التاريخ العربي الحديث منذ حملة بونابرت وحتى جمال عبد الناصر حاكما مثل محمد علي، فقد شهدت البلاد في عهده نهضة عمرانية وزراعية وصناعية وعسكرية وعلمية لم تتحقق من قبل، كما بنى جيشا عصريا لم تتوقف انتصاراته وفتوحاته إلا عندما دق أبواب القسطنطينية مقر السلطان العثماني، وواجهته قوات التحالف الدولي الأوربي، وأجبرته إجبارا على العودة والبقاء داخل حدود مصر.

وإذا كان أغلب المستبدين طغاة، وتتراوح درجات طغيانهم وسيطرتهم وقمعهم لشعوبهم بالاعتماد على قوة أمنية قوية مسيطرة، إلا أن محمد علي أضاف إلى طغيانه إحساساً قوياً بضرورة بناء دولة عصرية حقيقية، ولذلك شهدت البلاد في عهده مالم يتحقق في مصر أبدا حتى استيلائه على السلطة، فقد أرسل البعثات العلمية لأوروبا، وشيّد سلسلة من الجسور والقناطر لضبط مياه النيل، وأدخل محاصيل جديدة استورد بذورها خصيصا، وبادر بإقامة عدد من المصانع التي كان أغلبها لسدّ احتياجات الجيش، واستعان بخبراء – فرنسيين في معظمهم بسبب العلاقات التقليدية مع فرنسا في أعقاب حملة بونابرت- وأنشأ مدارس نظامية وعسكرية. لم يكن محمد علي يملك السلطة وحدها، بل يملك أيضا الأرض وما عليها، وتصرف على هذا الأساس، أي بوصفه يدير مؤسسته الخاصة التي يملكها، ولذلك أصرّ في المعاهدة التي وقعّها مع التحالف الدولي، في أعقاب المعارك الي خاضها ضد السلطان العثماني، على أن تكون مصر ولاية له ولأبنائه من بعده!

من جانب آخر يكاد يكون متفقا عليه بين المفكرين والفلاسفة أن التطور السياسي والاحتماعي لدول أوروبا انتهى في بدايات الثورة الصناعية إلى فصل الدين عن الدولة، ونزع اختصاصات الكنيسة لصالح مؤسسات الدولة، مما أتاح الفرصة لتطور تلك المؤسسات لتصبح مؤسسات مدنية

وليست دينية, لذلك تطورت الأخيرة ونَمت مستقلة عن المؤسسة الدينية، التي أمست اختصاصاتها محصورة في الشأن الديني وحده.

ويرى هؤلاء المفكرون أن هذا التطور لم يحدث في الحضارات المائية، وظل الشأن الديني مهيمنا ومسيطرا، وعندما جاء الإسلام كانت شؤون الحكم مرتبطة بالعقيدة، مما منع تطور المؤسسات التمثيلية بعيدا عن سلطة الحاكم.

ولما كانت وظيفة المؤسسات التمثيلية مراقبة الحاكم والحدّ من سلطاته والفصل بين السلطات المختلفة، وبالتالي تقليل سلطات المستبد لصالح تحقيق العدل، فإن استبداد الحاكم وقبضته المطلقة على السلطات المختلفة ازدادت إلى هذا الحد أو ذاك، وفي أغلب الأحيان اعتمد المستبد على دعم المؤسسات الدينية له.

ومثلما بدأت هذه المحاولة التي بين يدي القارئ بالإشارة للدور الذي لعبه توفيق الحكيم بروايته عودة الروح الصادرة عام ١٩٣٣ في التأصيل لفكرة المستبد العادل، أؤكد أنه واصل تأصيله في أعماله التالية مثل "براكسا أو مشكلة الحكم"١٩٣٩ و"شجرة الحكم"١٩٤٥.

ويستند غالي شكري في كتابه "المثقفون والسلطة في مصر" الصادر عن دار أخبار اليوم عام ١٩٩١، إلى مقال نشره الحكيم عام ١٩٣٨ عنوانه: "لماذا أنتقد النظام البرلماني؟" في تحليل مواقف الحكيم تجاه المستبد العادل, كتب الحكيم "إن كل البلاء الذي نحن فيه ناشئ من نظامنا السياسي بوضعه الحالي" ويضيف: " الرأي عندي في علاج كل هذا الأمر، موكل بتغيير عام يحدث في محيط المجتمع المصري من جميع نواحيه، أن الفساد جاء من عاصفة جامحة لمبادئ شوّهت وأسيء فهمها، والعلاج يكمن في عاصفة أخرى جامحة من المبادئ تهبَّ فتقيم ماوقع ".

وسرعان ماجاءت العاصفة في يوليو ١٩٥٢. وهنا يقرر غالي شكري أنه عندما صدر قرار بفصل توفيق الحكيم من عمله كمدير لدار الكتب، في حركة التطهير في بداية الثورة، سارع ضباط يوليو بطرد الوزير الذي أصدر القرار. وفيما بعد أعلن عبد الناصر أنه تأثر برواية "عودة الروح"، ومنح صاحبها أرفع وسام في الدولة، وحاول مسؤول المراسم تنبيه عبد الناصر إلى أنه من المستحيل بروتوكوليا منح الحكيم هذا الوسام لأنه لا يُمنح إلا لرؤساء الدول، أصرّ عبد الناصر معتبرا أن الحكيم لايقل مكانة عن رؤساء الدول.

على أي حال، وبعد كل هذه السطور السابقة، التي حاولت فيها تقديم تاريخ موجز للمستبد:

"هل نحتاج لمستبد حتى لوكان عادلا؟".

حول علم الأولويات

عبد الفتاح القلقيلي

إن ترتيب الأولويات من حيث الاهمية والضرورة (نظريا وعمليا) يكاد يكون العامل الاهم في النجاح. والتزاما بهذه القاعدة سأبدأ ورقتي بالاشارة إلى أربعة علوم أراها ضرورية لكل حركة سياسية، يجب ان تُدرّسها في مدرسة كوادرها (وقد اشرت اليها حينما طُلب مني أن أعدّ منهاجا لمدرسة كوادر لحركة فتح). وهذه العلوم الأربعة هي: علم الاجتماع السياسي، وعلم النفس السياسي، وعلم النفس الاجتماعي، وعلم الاولويات. وسأشير إشارة عابرة للعلوم الثلاثة الأولى لأكرّس ورقتي هذه للعلم الرابع "علم الأولويات".

١-علم الاجتماع السياسي (Sociologie politique)

لم يظهر هذا العلم إلا في فترة متأخرة مقارنة بالعلوم السياسية، وبالضبط في أواخر النصف الأول من القرن العشرين (بعد الحرب العالمية الثانية).

ولكن ثمة كتابات ومؤلفات قديمة تتضمن قرائن ومؤشرات وعلامات دالة على وجود علم الاجتماع السياسي، بطريقة من الطرائق، كما يبدو ذلك جليا عند أفلاطون في كتابه "الجمهورية"، وأرسطو في كتابه "السياسة"؛ وكذلك عند المثقفين العرب الذين اهتموا بالكتابات السلطانية أو بمبادئ السياسية الشرعية كابن خلدون وغيره (محمد امزيان: في الفقه السياسي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الاولى، ٢٠٠١ ذكره جميل حمداوي على رابط:

http://www.alukah.net/culture/090522//#ixzz42fUvIQOP

---

* باحث فلسطيني

٢- علم النفس السياسي

علم النفس السياسي كما جاء في "ويكيبيديا، الموسوعة الحرة" هو مجال أكاديمي متعدد الاختصاصات، يقوم على فهم السياسة والسياسيين والسلوك السياسي من منظور نفسي. وتعتبر العلاقة بين السياسة وعلم النفس ثنائية الاتجاه؛ فيستخدم العلماء علم النفس كمرآة لفهم السياسة، وكذلك السياسة مرآة لعلم النفس. ويُعد هذا العلم مجالا متعدد الاختصاصات، لأنه يأخذ مادته من مجموعة واسعة من التخصصات الأخرى، بما في ذلك: علم الإنسان، وعلم الاجتماع، والعلاقات الدولية، والاقتصاد، والفلسفة، ووسائل الإعلام والصحافة بالإضافة إلى التاريخ.

ويهدف علم النفس السياسي إلى فَهم العلاقات المترابطة بين الأفراد و المواقف التي تتأثر بالمعتقدات، والدوافع، ومعالجة المعلومات، واستراتيجيات التعلم، والتنشئة الاجتماعية وتشكيل السلوك. وقد تم تطبيق النظرية النفسية السياسية ومناهجها في العديد من العمليات مثل: الدور القيادي، وتكوين السياسات الداخلية والخارجية، والتحركات الجماعية والصراعات، والسلوك العنصري، وسُبُل ودافع التصويت، بالإضافة إلى دور وسائل الإعلام في التصويت، والنزعة القومية، والتطرف السياسي والسلوك في العنف العرقي الذي يشمل الحروب والإبادة الجماعية. ووفقاً لهذا يدرس علماء النفس السياسي أسس، وديناميات، ونتاج السلوك السياسي باستخدام التفسيرات المعرفية والاجتماعية.

نشأ علم النفس السياسي في أوروبا الغربية، حيث ارتبط ارتباطاً وثيقاً بنشأة علوم معرفية و فلسفات جديدة، فضلاً عن الأنماط الاجتماعية والسياسية المتعارف عليها في مختلف البلدان. وبدأ فرع علم النفس السياسي في الظهور رسيماً خلال الحرب الفرنسية البروسية، والثورة الاشتراكية التي اندلعت بقيام كومونة باريس (١٨٧١م). وقد استخدم أُدولف باستيان Adolph Bastian، المتخصص في علم الأجناس مصطلح علم النفس السياسي لأول مرة في كتابه رجل في التاريخ (١٨٦٠م).

كما ساهم سيغموند فرويد (١٨٥٦م – ١٩٣٩م) Sigmund Freud كثيراً في منهاج علم النفس السياسي، عن طريق تأثير التحليل النفسي (حيث أنه ربط التحليل النفسي بالسياسة).

٣- علم النفس الاجتماعي

علم النفس الاجتماعي هو فرع من فروع علم النفس، يدرس السلوك الاجتماعي للفرد والجماعة، كاستجابات لمثيرات اجتماعية، وهدفه بناء مجتمع أفضل قائم على فهم سلوك الفرد والجماعة.

وبمعنى آخر فإن علم النفس الاجتماعي عبارة عن الدراسة العلمية للإنسان ككائن اجتماعي. يهتم هذا العلم بالخصائص النفسية للجماعات وأنماط التفاعل الاجتماعي والتأثيرات التبادلية بين الأفراد مثل العلاقة بين الأباء والأبناء داخل الأسرة والتفاعل بين المعلمين و المتعلمين.

ومن مكونات علم النفس الاجتماعى "السلوك الاجتماعى وديناميات الجماعة" فالجماعة هي وحدة إجتماعية من مجموعة من الافراد تربط بينهم علاقات اجتماعية ويحدث بينهم تفاعل اجتماعى متبادل فيؤثر بعضهم في بعض.

ويقوم عِلْمُ النَّفْس الاجتماعي بدراسة الأسس النفسية لعلاقات الناس بعضهم ببعض. كما يقوم علماء النفس الاجتماعي بدراسة عمليات مثل الاتصال والتعاون والتنافس واتخاذ القرار والزعامة والتغيير في المواقف. (أنظر بهذا الخصوص الجماعات الوظيفية للدكتور عبد الوهاب المسيري، دار الشروق ٢٠١١).

وقد نشرت أوائل الكتب الدراسية في علم النفس الاجتماعي في بداية القرن العشرين الميلادي. ويدين علم النفس الاجتماعي الحديث بالكثير لعلماء النفس السلوكيين في بداية ثلاثينات القرن العشرين الميلادي الذين نادوا بالدراسة العلمية للسلوكيات التي يمكن ملاحظتها.

٤- علم الأولويات

يتعامل علم الاولويات مع القضايا المختلفة على مستويات عديدة، فيُتعامل به على مستوى الأفراد وعلى مستوى الأسر والجماعات والشعوب والأمم، فإذا استطعنا أن نُدخل في ثقافة الفرد "فن" ادراك الأولويات ومنهجيّة تحديدها فذلك سيعود على الفرد بانتظام حياته ما دام حيّا. وتعاملُ هذا العلم مع المستوى الفردي لا يجعل منه أمراً هيناً يمكن لأي أحد ممارسته، فإن من الصعب تحديد أولويات الفرد من غير ملاحظة مجموعة كبيرة من القضايا والشؤون المختلفة تتناول بالتحليل والتعليل صحة الفرد وعمره التقديري وماله وأسرته وسكنه ونمط معيشته وزمانه ومكانه وبيئته وسائر شؤونه وشجونه المتعلقة بماضيه وبحاضره وبمستقبله، ثم يوازن بعد ذلك بين طموحاته وآماله وتوقعاته وجوانب الضغط عليه أو التيسير له لكي يستطاع بعد ذلك رسم خارطة لأولوياته فيقدم ما حقه التقديم من شؤونه ويؤخر ما حقه التأخير، ذلك لأن طموحات الانسان وتطلّعاته تتجاوز في الغالب أوقاته ووسائله وأدواته، كما تتجاوز قدراته الآنيّة سواء في اطار عدم توافر الشروط أو في دائرة وجود الموانع. وما ينطبق على الفرد يكاد ينطبق ايضا على الأسرة والشعب.

فإذا تجاوزنا الفرد إلى النظر في تحديد "أولويات أسرة" باعتبارها الوحدة الصغرى في بناء المجتمع فإن المتطلبات التي نحتاج إلى ملاحظتها لتحديد أولويات الاسرة ستكون أكبر بكثير من متطلبات

تحديد أولويات الفرد، وتظل الدائرة تتسع من وحدة لأخرى فتكون بالنسبة للمؤسسة الكبرى أوسع منها بالنسبة لمؤسسة أصغر حتى نأتي إلى دائرة أولويات الشعب. وهنا لابد من تضافر الجهود كلها واستخدام مبدأ الشراكة بأوسع معانيها، والقيام بالدراسات المكثّفة لسائر الجوانب الفاعلة والمؤثرة في حياة الشعب: السياسية منها والثقافية والاقتصادية والاجتماعية، واستعمال سائر العلوم الانسانية الاجتماعية أو رصيد الخبرات والتجارب الانسانية للوصول إلى تحديد مناسب لأولويات الشعب في مرحلة زمنية محددة، من حيث إمكانياته، وطموحاته، وأحوال محيطه، بما في ذلك اصدقاؤه وخصومه واعداؤه.

ومعلوم أن إدراك الأولويات يعتبر درعاً وحماية من الكسل أو الفتور النفسي أو العقلي، وتجاوز الأولويات مدعاة إلى الوقوع في ذلك وتهيئة أسبابه.

حُسن ترتيب الأولويات الحياتية هو سر نجاح الناجحين في الحياة في كل ميادينها

وقد قسم علماءُ الإدارة الأعمالَ حسب أهميتها إلى أربعة أنواع، هي: أعمال هامة وعاجلة، وأعمال هامة ولكنها غير عاجلة، ثم أعمال غير هامة ولكنها عاجلة، وأعمال غير هامة وغير عاجلة ايضا. فالأولوية يجب أن تكون دوما على جدولك للأعمال الهامة العاجلة، وثانيًا للأعمال الهامة غير العاجلة، وثالثًا للأعمال غير الهامة العاجلة، وأخيرًا للأعمال غير الهامة غير العاجلة. وترتيب الأعمال بتلك الصورة ترتيب يجعلك تقوم بفعل أولوياتك الحقيقية بعيدًا عن توهم الأولوية للأعمال التي لا تستحق الجهد أو على الأقل لاتستحق أن تكون في مقدمة اهتماماتك. ويجب مراعاة ذلك في إدارة الأعمال سواء كانت هذه الأعمال اقتصادية أو سياسية أو ثقافية أو فنية.

فالمستوى الأول من الأعمال هو مستوى الأعمال الهامة العاجلة، وهي الأعمال التي تمثل صلب عملك، والتي تحسن إنجازها، كما أنها هي التي تكون مطلوبة منك على وجه عاجل، وهي تلك الأعمال التي لا يمكن تأخيرها عن موعدها أو الاعتذار عنها أو التفويض فيها وكذلك كل الأعمال التي سيترتب على غيابك عنها أو تأخرك عنها أو عدم إنجازك لها أو عدم تركيزك فيها ضرر ما.

وأما المستوى الثاني من الأعمال: فهو مستوى العمل الهام غير العاجل وهو يتمثل في مسؤوليات الأعمال بشكل عام من حيث المتابعة والتدقيق لتحسين الكفاءة وتقويم الآداء وكذلك رسم الخطط وترتيب الأولويات وتحديد الإمكانيات وتنظيم الأوقات واختيار سبل ووسائل الوصول للأهداف التي قد سبق ووضعتها لنفسك سواء كانت أهدافا مرحلية أو أهدافا بعيدة.

والمستوى الثالث من الأعمال: هو العمل العاجل، ولكنه غير هام، وهذا المستوى الذي يقدمه معظم الناس في أولوياتهم على أعمالهم الأخرى، وربما يتسبب ذلك في إرباك كبير في جدول أعمالهم، وهذا المستوى يحسن فيه استخدام التفويض في العمل بحيث ما أمكن أن يؤديه غيرك من أعمال هذا المستوى فلا تتردد فورا في تفويض أحدهم بذلك وأما المستوى الرابع: فهو مستوى الأعمال غير الهامة غير العاجلة، ومكانها في مؤخرة الجدول ولا شك.

وحين نحاول رصد الآثار السلبية الخطيرة والانحرافات والأمراض الكثيرة التي يُصاب بها شعب أو أمة نتيجة الخطأ بترتيب الأولويات نستطيع أن نرصد من السلبيات على عجل ما يلي:

١- الاستغراق بالجزئيات والتفاصيل والانشغال عن الكليات والعجز عن رد الجزئيات إلى الكليات والفروع إلى الأصول وفهم العلاقة الدقيقة بينها.

وفي الساحة الفلسطينية تجلّت هذه الظاهرة بوضوح بعد أوسلو وإقامة السلطة الوطنية منذ عام ١٩٩٤.

٢- تقديم التكتيكي على الاستراتيجي والتضحية بالثاني لحساب الاول، وهو مايشبه في الدين "تقديم النوافل على الفرائض". وبالمناسبة فإن الفقه الاسلامي فيه فرع مستقل بعنوان "فقه الأولويات".

وتجلّت هذه الظاهرة (التضحية بالاستراتيجي من اجل التكتيكي) في الساحة الفلسطينية بعد عام ١٩٩٩ حيث انتهى العمر الافتراضي للمرحلة الانتقالية للسلطة الوطنية الفلسطينية، وكان يجب ان تبدأ المرحلة النهائية بإقامة الدولة الفلسطينية.

٣- العزوف عن الأخذ بالأسباب، والميل إلى تجاوزها لأدنى سبب توكلاً أو تواكلاً أو اعتماداً على مُفترض أو متوهم مع تجاهل أن الارتباط بين الأسباب والمسببات ارتباط سُنن (قوانين طبيعية حتمية). وتجلت هذه الظاهرة في الساحة الفلسطينية بعد الاجتياح الاسرائيلي (عام ٢٠٠٣) لمناطق السلطة الوطنية الفلسطينية التي كان يُطلق عليها مناطق "أ".

٤- انحراف في خط التفكير وانحراف في منهجيته، ويترتّب عليه اضطراب في المنطق، وانحراف في أساليب البحث، وتجاهل لمناهج الحوار والاستدلال والاستنباط، وتخبّط في النضال والتفاوض والبناء.

٥- خلط شديد بين ما هو ثابت وما هو متغيّر، وكثير من الثوابت تتحول إلى متغيرات بدوافع وأسباب ساذجة وشخصية. وكثيراً ما أدى ذلك إلى خلط في قضايا المقبول والمردود، والفردي والجماعي. وتجلت هذه الظاهرة في الساحة الفلسطينية منذ استعادت التفاوض مع نتنياهو

بضغط من الولايات المتحدة الاميركية.

٦- الرغبة عن التمحيص العميق، والميل إلى الارتجال بدعاوى مختلفة، منها البحث عن البساطة، أو الرغبة في تجاوز التكلف.

٧- المساواة بين التخطيط الدقيق للامور وبين الارتجال، مرة بحجة التساوي في النتائج، أو تقارب تلك النتائج. وتجلى ذلك في الساحة الفلسطينية من خلال التعامل مع النقابات والمنظمات الشعبية والنضالات المطلبية.

٨- من يصاب بكل ما تقدم ينزع دائماً إلى تبرئة الذات واتهام الآخرين، للعجز عن مراقبة الذات ومحاسبتها، فإن هول هذه الاصابات يجعل مجرد استحضارها أمراً صعباً على النفس فتسارع الجماعة إلى تزكية ذاتها، والقاء التهمة على الآخر، لكنها ايضا تفقد الثقة بالنفس اضافة إلى فقدانها بالآخرين، ويتردد على ألسنة نخبتها تحديد مسؤوليات الآخرين دون القيام بمسؤولياتهم هم. تكاد هذه الظاهرة تسود منذ الانقسام الفلسطيني (عام ٢٠٠٧) الذي تسميه حركة فتح "إنقلابا" وتسميه حركة حماس "حسما عسكريا".

٩- حين لا تُستحضر الأولويات ينشغل الناس بالشعارات والتهاويل ويتجاوزون المضامين، ويستعجلون النتائج، ويضطربون بين اليأس والقنوط والطمع المبالغ فيه والرجاء القائم على غير أساس والاحباط أو الغرور. ونشير هنا الى قول محمود درويش: "ويدعو لأندلس إن حوصرت حلب!!!". وهذه الظاهرة هي السائدة الآن في الساحة الفلسطينية.

١٠- الجهل بترتيب الأولويات يؤدي إلى أن ينشب صراع بين أهل العلم والعمل، أو بين أهل الفكر والعمل لعدم تحديد العلاقات بشكل مناسب.

١١- تجاوز علم الأولويات يؤدي إلى هيمنة كثير من الأوهام على العقل الانساني، فيضطرب الانسان اضطراباً شديداً، فمرّة يندفع بدافع الخوف، وكل ذلك إنما ينجم عن فقدان "سلّم" الأولويات، وتداخل المراتب، والعجز عن التفكير الكلي وتنظيم الأمور داخله.

١٢- حين يتراجع علم الأولويات في أمة تسود حياتها الاتجاهات الشكلية وعمليات الفصام بين النظرية والتطبيق، وقد تعمد إلى تعاطي ما يُعرف بـ (الحيل والمخارج) او ما يُعرف بـ"الفهلوة" والبهلوانية السياسية، سواء في السياسة الخارجية او السياسة الداخلية.

١٣- حين يضطرب علم الأولويات في أمة يسود حياتها التناقض أفراداً وجماعات، فقد تجد الانسان يحرص الحرص كله على أداء الصلاة جماعة ولكنه لا يتردد في المشي بين الناس بالنميمة أو اغتياب

الناس وتفريق الجماعات وربما التجسس على هذا وتتبع عورة ذاك أو غير ذلك من المفاسد.

١٤- تجاوز الأولويات يؤدي إلى ممارسات خاطئة كثيرة تنطلق من اضطراب المفاهيم، فقد يختلط على الانسان مفهوم (التهور) بمفهوم (الشجاعة)، ومفهوم (البخل) بمفهوم (الاقتصاد)، ومفهوم (الكرم) بمفهوم (الاسراف) وتنعدم المساحات الفاصلة بين هذه المفاهيم وتضمحل.

١٥- من يتجاوز الأولويات قد يتجاوز الواقع كله إذا كان مراً ويهرب من مضايقاته إلى الخيال ليرسم لنفسه من خلال الخيال الصورة المرغوبة أو المناسبة، وقد يهرب إلى الماضي ويتجاوز الحاضر والمستقبل والواقع للغرض نفسه. وذلك ما يعانيه العديد من المثقفين الفلسطينيين.

١٦- من يتجاوز الأولويات يغلب عليه الاهتمام باللفظ، وتجاوز المعنى وعدم تحديد المفاهيم وعدم العناية بالمصطلحات (كما أسلفنا أعلاه) وربما يتجاوز ذلك كله إلى نوع من الوجدانيات والتأمّلات يُغيّب بها عقله ونفسه لكي لا يدرك حقيقة ما عليه أن يفعل.

١٧- من يتجاوز الأولويات كثيراً ما يفقد الموازين الدقيقة لما يأخذ ولما يدع ويعمد إلى التعميم، وايقاف المعايير، والانحياز دون مبرر إلى الذات أو إلى الفئة أو سواها.

١٨- من يتجاوز الأولويات يصير إلى هيمنة التفكير الأحادي واللجوء إلى الأحكام القيميّة والتسرُّع في اصدارها وقد يؤدي ذلك به إلى نفي وجود الآخر حكماً.

١٩- تجاوز الأولويات يؤدي إلى فقدان مداخل من أهم مداخل النقد والتصحيح الذي يمكن أن ينطلق من خلال ادراك الأولويات، ودقة ترتيبها وتنظيمها إلى غير ذلك من انحرافات وسلبيات يمكن رصدها كظواهر وأعراض تنجم عن حالة تجاوز أو فقدان الاهتمام بعلم الأولويات.

٢٠- إن كثيراً من المشكلات وأسباب الخلاف التي تقع بين حركة الاصلاح، وتيّارات التغيير الاجتماعي تنجم عن الاضطراب في تحديد الأولويات، والاختلاف عليها، ومعرفة علم الأولويات قد يساعد على حسم كثير من الخلاف الدائر بين حركات الاصلاح، (داخل الحركات السياسية نفسها، ومنها حركة فتح بالطبع). فالخلاف بين هذه الأطراف يرجع (عند التدقيق) إلى الاختلاف حول الأولويات وطرق تحديدها، والمرجع في تحديدها.

وهذا كله يؤكد ضرورة بناء هذا العلم، وتربية أجيالنا على قواعده، والبحث عن الخلل في ترتيب الأولويات عند دراسة اي خلل في مسيرتنا الشخصية أو العامة في أي مجال من المجالات.

ويُضرب المثل على قمة الغباء في ترتيب الأولويات انه جاء شخص يبحث في ارجاء إحدى الغرف، فساله احدهم: ما الذي تبحث عنه يارجل؟

قال الرجل: أبحث عن مفتاحي الذي أضعته أمس.

سأله السائل: اين كنت تجلس؟

قال الرجل: على الكرسي في الغرفة الثانية.

ضحك الجميع، وقال أحدهم: لماذا لا تذهب وتبحث عنه في الغرفة المجاورة حيث أضعته؟

أجاب الرجل: كيف سأبحث عنه هناك وليس هناك ضوء؟!!!

ضحك الجميع مرة اخرى، ولكن بصوت أعلى، وقال احدهم: ابحث عن المفتاح حيث اضعته يا مغفل!!!

وكان أحد الظرفاء الفلسطينيين ضمن الحضور، فقال: لعلّي إلتقيتُ بمثل هذا الرجل في بعض "دهاليز" السياسة!!!!!!

دور التعليم في تعزيز الهوية الوطنية

دنيا الأمل إسماعيل*

تمهيد:

يعد التعليم أهم حق من حقوق الإنسان، فهو القاعدة الصلبة، التي تبني الدول عليها مشروعاتها الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية، وتحقق من خلاله مستقبلها، الذي تتطلع إليه. ومن خلال التعليم تتم تنمية مكونات الهوية الثقافية الوطنية وغرس القيم المعرفية والخلقية. لكن بالرغم من أهمية التعليم في تعزيز الهوية الوطنية، غير أنّ تأثيره لا يبدو بالمستوى المطلوب – وأسباب ذلك كثيرة ولا شك- بل أحياناً قد يقود إلى نتيجة عكسية لخلل أو لآخر في بناء وعناصر العملية التعليمية، أو لفصل العملية التعليمية عن العملية التربوية، ثم فصل المجالين معاً عن المحيطين: الأسري والاجتماعي العام. خاصة إذا أدركنا أهمية الدور – فعلاً، لا قولاً- الذي يؤديه التعليم في عمليتي التنشئة الاجتماعية والسياسية، كما أنه في الآن ذاته يخضع للتوجيه من جانب الجماعة التي تحرص على تربية وتعليم أبنائها لكي يصبحوا /نّ متوافقين/ات مع فلسفتها ورؤاها، الأمر الذي يسهم في تشكيل الهوية للمتعلم / المواطن/ـة في مراحل عمره/ها المختلفة.

ومن هنا ينبغي أن نطرح سؤالنا الكبير والمؤلم في آن: إلى أي مدى تسهم أهداف التعليم في تعزيز الهوية الوطنية ودعم الهوية الثقافية، وتعميق الإحساس بالانتماء والمواطنة، وينبغي هنا أيضاً ونحن نتساءل أن نضع في أذهاننا أنّ التشريعات التعليمية، تعد تطبيقاً وتحقيقاً وإنعاشاً للرؤية العامة للدولة/ الحكومة المتضمنة في دستورها؛ لذلك كان من الضروري أن تشتق الأهداف العامة للسياسات التعليمية من المقومات الأساسية للمجتمع، بحيث تسهم في تكوين شخصية مستقلة

* كاتبة وباحثة فلسطينية

ومتوازنة ومتفتحة، تدرك تحولات الحضارات الإنسانية وتطوراتها، هذا من جانب أول وأساس.

في الجانب الآخر، ينبغي أن لا يغيب عن أذهاننا وبرامجنا أنّ المدرسة هي المجال الحقيقي لترسيخ القيم الأخلاقية وقيم المواطنة وحقوق الإنسان، وممارسة الحياة الديموقراطية، وإذا كان المنهاج التعليمي والعملية التعليمية برمتها لا تراعي هذه الحقيقة من خلال التأكيد على قيم ومقومات الانتماء والهوية والاعتزاز باللغة الأم كعماد لهذه الهوية ومفتاح للوعي النقدّي البنّاء، وهو ما يتطلب – من خلال قراءة مخرجات التعليم- تطوير المحتوى القيمي والاجتماعي للمنهاج المدرسي والجامعي، بحيث يصبح هذا المنهاج عاملاً معززّاً للهوّية لا مشكّكاً فيها أو متجاوزاً لها.

إنّ التعليم هو اللبنة الأولى في تشكيل وبناء شخصية الإنسان وصقلها ووضعها على الطريق الصحيحة لتساهم في عملية التنمية، لذلك فلا قيمة ولا أهمية لتعليم دون هوّية في ظل وجود ثقافات أخرى متنوعة ومهيمنة وفاعلة، باتت تلعب دوراً وتأثيراً سلبياً في حجب الهوية الوطنية وتعزيز الانتماء الوطني والافتخار بقيمه، وعليه ثمة مسؤولية يجب تحمّلها نحو استنهاض بيئة تحفيزية تعيد أبناءنا وبناتنا إلى هويتهم الوطنية، التي يجب أن تحظى بالاهتمام الأكبر من قبل المؤسسة التعليمية وواضعي السياسات التعليمية أولاً وثانياً من قبل المجتمع بأسره أفراداً وجماعات ومؤسسات، وبحث سبل الحفاظ عليها ومواجهة الأخطار التي تتهددها وأسباب ذلك، دون تعصب مفرط أو إهمال قاتل.

إن تعاظم القلق من الأخطار التي تحدّق بهويتنا الوطنية، لا يأتي من فراغ، خاصة في ظل التحوّلات السياسية والاجتماعية التي يشهدها مجتمعنا الفلسطيني، فالفلسفة الاجتماعية التي تعد الوسط الذي تتحرك العملية التعليمية في إطارها مشوّشة وهشة، كما أنّ الفلسفة السياسية منقسمة على ذاتها وتتناحر على مكتسبات - وإن طالت – عابرة.

إنّ التأكيد على عنصر الهوّية في ظل هذه التحوّلات، فيه حماية للمشروع الوطني برمته، وفيه حماية للسلم الاجتماعي وتعزيزُ لقيم الوحدة والانتماء في مواجهة التشتت والاغتراب الوطني – إن جازت التسمية- كما أنه لا قيمة لأية مقاومة تخرج التعليم من قائمة أهدافها، بل على العكس من ذلك

يجب أن يكون هدفاً أول، متفقاً حوله في السلم والحرب، في التنمية وفي الطريق إلى التنمية، لا أن يكون محل صراع وتجاذب، ولا أداةً للهيمنة والإقصاء.

الهوية الوطنية والتعليم: أيهما يشّكل الآخر؟:

إنّ المدرسة كبيئة تعليمية أولى – بالمعنى المنهجي- هي ذاتها مصنع الشخصية الوطنية، فيها تتشكل

الهوية الوطنية الأولى، فكل عنصر من عناصر العملية التعليمية له دوره في تشكيل شخصية وهوية الطفل/ المتعلم/ المواطن/ـة وينبغي لهذه العناصر أن تتكامل؛ لا أن تتضارب أو تتناقض، كما ينبغي عليها أن تتسم بالمرونة والانفتاح ؛ لا الانغلاق والتشدد، فإلغاء الذات/ الهوّية الوطنية يساويه تماماً تضخيمها بحيث لا ترى نواقصها، إنّ الحكمة التعليمية – ممثلةً في السياسات وتطبيقها- ينبغي لها أن تعي جيداً مسارها وهو مسار قد لا يسير بشكلٍ أحادي أو مستقيم، وقد لا يكون مساراً واحداً ثابتاً جامداً، إنها الفلسفة مرة أخرى التي يجب أن تدير العملية التعليمية برؤية تستلهم الماضي والحاضر والمستقبل دون إعلاء لأحدهم عن الآخر، ودون تهوين أو تهويل، فكلاهما عند النتائج سواء.

التعليم ليس هو الهوية الوطنية، لكنه المصنع الأهم في تشكيلها وصناعتها وإخراجها إخراجاً حسناً، كما أنّ الهوية الوطنية لا تموت في غياب التعليم لكنها تنقص كثيراً ولنا في تجارب العمل داخل الخط الأخضر خير شاهد وإثبات فقد تحول العمل داخل (إسرائيل) مطلباً وطنياً حين كانت قيمة التعليم أقل من قيمة المال، وحين أصبح الاثنان غائبان، أصبحت عودة الاحتلال حلاً مقبولاً . فحينما يصبح التعليم رهينة المقارنات المالية مهما علت رتبته أو عظمت فوائده، ويصبح عامل البناء داخل الخط الأخضر – مع الاحترام لقيمة العمل في حد ذاته ولإنسانية العامل- هو حلم الأسر الفلسطينية، علينا أن نقر أن المنظومة القيمية للمجتمع برمته في خطر.

إنّ العمل داخل الخط الأخضر كان ضربة قاسية للتعليم الفلسطيني وشرخاً في الهوية الوطنية في معظم مكوناتها في اللغة و السلوك و الانتماء، إنها رؤية الحياة بمنظار غير فلسطيني/ بعين المحتل / ببقايا منزله وقمامته التي نفتش عنها سراً وعلناً/ بمدفعه المسلّط على أحلامنا التي تقزمت إلى فرصة عمل في (إسرائيل) أيّ فرصة عمل.

إنّ ترميم خراب هجرة أبنائنا من مدارسهم إلى أعمالهم في بلادنا المحتلة، لم يكن فقط لإصلاح أوضاع اجتماعية وقيم وسلوكيات تسربت مع حركات الفجر والمساء إلى ومن معبر بيت حانون، لكنها وكان يجب أن تكون كذلك إعادة لإعمار الشخصية الفلسطينية وهويتها الذاتية والوطنية

والإنسانية، لكننا عجزنا عن تحويل أحلامهم نحو الهجرة إلى الشمال إلى بناء وطن أو نصف وطن، بنصف الجهد ونصف العزيمة ونصف الانتماء، فهل المشكلة في التعليم أم في القائمين/ ات عليه أم في الشخصية الفلسطينية ذاتها؟.

إنّ تعليمنا الفلسطيني لم ينجح في تعزيز هويتنا الفلسطينية، ولم ينجح في شدّ إرادتنا من قفص الاحتلال، بل أبقى عليه كامناً في عقولنا وفي سلوكنا اليومي، في مأكلنا ومشربنا، في عملنا وفي سفرنا،

في حربنا و استقرارنا، أبقى عليه أيقونة معلقّة في أذهاننا. إنه موجود بيننا بلا مواجهة حقيقية، بل نتحايل على غيابه باستحضار ماضيه والتنقيب في أيامه، فهو الحاضر دائماً وهو الفائز دائماً في كل مقارناتنا البسيطة والمركبة . لم يخلصنا تعليمنا من شعورنا القاتل بفوائد الاحتلال ونعمه، بل على العكس من ذلك كل إخفاقاتنا في التعليم تعيد تقييد أفكارنا به، فأصبح يحتل مخيلتنا من كلام آبائنا عن فضائل وخيرات العمل في (إسرائيل)

المناهج التعليمية والهوية الوطنية: تعزيز أم تقويض؟:

تعد المناهج التعليمية الثقافة المشتركة غير الاختيارية بين الفرد ووطنه من جهة، ومن جهة ثانية، فهي الثقافة المشتركة بين جميع أفراد الشعب، على عكس الإعلام الذي يحدده الفرد بذاته، لذلك يصبح من الضروري جداً أن يكون هذا المنهاج كافياً ووافياً لتعزيز وتجديد الولاء الوطني كمدخل أساس للهوية الوطنية، وتحصين أبناء الوطن من الانجرار نحو تغليب النزعات الطائفية والقبلية والحزبية حمايةً للسلم الاجتماعي الذي تنتعش في أجوائه الهوية الوطنية والاعتزاز بها فينتعش الوعي الوطني والوعي بالهوية الوطنية التي تأتي في مرحلة لاحقة على الأول – الوعي الوطني- الذي قد يتواجد بين الطلاب، فيما لا يكون هناك اعتزاز بالهوية الوطنية، وهو ما نلحظه في مناهجنا الفلسطينية التي تعاملت مع الوعي الوطني باعتباره مرادفاً للهوية الوطنية، غير أنّه شتان بينهما، فبقي المحتوى المعرفي للمنهاج الفلسطيني التعليمي في جميع مراحله قاصراً عند حدود الوعي الوطني فقط (جغرافيا- معلومات وطنية-...).

مما لا شك فيه أنّ المنهاج هو أداة التعليم الأهم التي يمكن خلالها تحقيق الأهداف التربوية للتعليم، لكنه يبقى أداة عاجزة عن إحداث تحولات في سلوك وتوجهات الطلاب في غياب رؤية علمية / وطنية تعزز من دور المعلّم/ـة في تنمية الإحساس بالهوية والبناء على الجانب المعرفي البسيط المتضمن في المناهج وربطه بالواقع الفلسطيني الاجتماعي والثقافي والسياسي، ونحن هنا لا نتحدث

فقط على مناهج التربية الوطنية أو التربية المدنية أو التاريخ الفلسطيني، على الرغم من حصتهم الكبيرة في هذا الإطار، لكننا نتحدث عن كل أنواع المناهج بما فيها العلوم العلمية والرياضية.

كما أنّ السياسات التعليمية المتبعة سواء تلك الصغرى على مستوى المدرسة أو الكبرى على مستوى البيئة التعليمية الوطنية – بالمعنى الجغرافي هنا- تلعب دورها في تقليص الشعور بالهوية الوطنية فأداء المدرس وتوجهاته وآرائه، بل أقول أكثر من ذلك احباطاته وآماله، تفتحه وانغلاقه، تسلطه

وتسامحه، جميعها تمارس تأثيراتها المرئية والمخفية في تعزيز أو تقويض علاقة الطالب/ ت' بوطنه/ـها .

إننا نرى اليوم أكثر من أي وقت مضى في تاريخ الشعب الفلسطيني، كيف لعبت الحزبية في التعليم الفلسطيني دورها التخريبي في تحطيم جوهر التعليم الوطني وتغييب قيم الانتماء والوحدة والشعور بالفخر الوطني من نفوس طلابنا، ونرى أيضاً في يتم استخدام المناهج ولو بصورة مبطنة لإعلاء قيمة الحزب على الوطن، والتناحر على التسامح، وكان المدرسون/ات عوامل هدم لا بناء في تعزيز الشعور بالهوية الوطنية، سواء بالعلاقة المهنية – التي لم تعد كذلك- بين المدرسين وبعضهم البعض، أو بين المدرسين وطلابهم، بل أزيد وأقول : أصبح الولاء الحزبي معياراً للنجاح أو الفشل في الدراسة، الاهتمام أو الإهمال، المحبة أو الكره، وأصبحت المدرسة والجامعة مرتعاً لتصفية الحسابات الحزبية والقبلية، بدل أن تكون مظلة للوحدة وداعية لها، ومعلية من قيم الوطنية.

إن هويتنا في خطر لأن تعليمنا في خطر ولا يمكن أن يتحرر أحدهما إلاّ بتحرر الآخر، وعلينا أن نعي أن الوهم بتحقيق مكاسب حزبية فانية في التعليم باعتباره ساحةً لحسمٍ جديد، لن يكون فيه منتصر أو مهزوم فتعليم وتربية أبنائنا ليس مجالاً للصراع والانتقام وتصفية الحسابات، فكلنا خاسرون. وطننا كله هو الخاسر الأكبر.

فمن يعيد للتعليم قدسيته وهيبته وهويته الوطنية التي سقطت من حساباتنا وأفعالنا وتصرفاتنا التي أقل ما توصف سوى أنها تصرفات لا تعي معنى المسؤولية الوطنية.

التحدّيات التي تواجه التعليم لتحقيق الهوية الوطنية:

١- إن أكبر تحدٍّ يواجه التعليم الفلسطيني تحديداً هو الانقسام الفلسطيني، الذي لم يبق قيمة وطنية إلاّ ونالها في مقتل، ففي غياب الوحدة يصبح التعليم ساحة للمعركة، على الرغم من أن المفترض تحييده سياسياً وانحيازه للهوية الوطنية بغض النظر عن الاختلافات الحزبية؛

٢- في خضم الانجرار وراء تبعات الانقسام السياسي، تناسينا تداعيات العولمة الثقافية، التي غيبت العقل الثقافي الوطني لصالح ثقافات أخرى وهويات أخرى نراها تتسرب إلى تعليمنا، وطلابنا وسياستنا التعليمية – إن وجدت- تسير عمياء على غير هدى؛

٣- إنّ جوهر الهوية الوطنية في التعليم اللغة والقضية، وكلاهما يعاني من قصور واضح نلمس آثاره في لغة أبنائنا ونظرتهم الجديدة للوطن والقضية والوطنية التي تخلو من الإيجابية في كثير من الأحيان؛

٤- تغليب الهوّية الدينية مقابل الهوية الوطنية، ليس في صالح الوطن من شيء، واعتبار التعليم مدخلاً لتعزيز الهوية الدينية باعتبارها طريق التحرير والخلاص فيه مخاوف كثيرة، أهمها الارتهان لثقافات وهويات خارجية تختلف عن ثقافتنا وهويتنا الوطنية، كما أنّ فيه إسقاطاً لنضالات كثيرة ولمواطنين/ ات من ديانات مختلفة قدموا وأعطوا لأنهم جزء من هذا الوطن وليسوا ضيوفاً عليه؛

٥- أصبحت المعايير الوظيفية التي تحكم أو تتحكم في التعليم تهدد بناء منظومة تعليمية تراعي المهنية ومصلحة المتعلمين/ات، قد تركت آثارها السلبية، ناهيك عن آثارها المستقبلية، على المستوى التعليمي، ومن ثم فقدان الثقة في المؤسسة التعليمية وامتداد أثر ذلك على علاقة الطلاب بوطنهم وقادته.

التوصيات:

١- أولاً: علينا الاعتراف أن هويتنا الوطنية تعيش مأزقاً خطيراً للغاية وأن التعليم هو أحد أهم انعكاسات هذا المأزق الخطير، كما أنه قد يكون في المستقبل القريب أحد أهم المساهمين في تكريس هذا المأزق بكل تبعاته الاجتماعية والسياسية والثقافية؛

٢- ثانياً: يجب فوراً اتخاذ خطوات جمعية في سبيل استدعاء رشد القائمين على الفصيلين المتناحرين ودفعهما إما إلى التخلي عن سياساتهما غير الوطنية بحق الوطن والشعب والقضية، أو إقصائهما معاً وإلى غير رجعة عن قيادة هذا الشعب وسياساته ومؤسساته؛

٣- ثالثاً: دعوة المفكرين /ات والكتّاب وكل المثقفين والمثقفات إلى إعادة قراءة واقعنا الفلسطيني التعليمي والثقافي وفك عزلة المدرسة عن محيطها ممارسة وفكراً؛

٤- الاستمرار في تعزيز دور التعليم اللامنهجي من قبل مؤسسات المجتمع المدني في محاولة لسد ثغرات التعليم الحكومي في هذا الجانب؛

٥- تعزيز دور العمل البحثي التربوي في مجال التعليم، ليس فقط من قبل الباحثين والباحثات التربويين والتربويات، لكن من قبل المثقفين والكتّاب عامة؛

٦- استخدام وسائل الإعلام باعتبارها المحرك الرئيس للمعرفة في ثقافتنا الفلسطينية في تعزيز دور التعليم في حماية وتعزيز وتطوير مفهوم الهوية الوطنية على نطاق واسع ومدروس.

أوراق ثقافية

المثقف في رواية جبرا إبراهيم جبرا

«كل شيء يعلن الخيال بأنه جميل فهو حقيقة،
وجد من قبل أو لم يوجد..»

كيتس

د. فيصل دراج

تفرض هذه الدراسة، من البداية، سؤالين: هل في روايات جبرا إبراهيم جبرا ما يسوّغ البحث عن دلالة المثقف؟ وإذا كان الجواب إيجاباً، فما هي خصوصية هذا المثقف، وما الذي يجعله جديراً بدراسة خاصة به؟ يستمد السؤال الأول شرعيته من وضع جبرا بما هو مثقف متعدد الوجوه، جمع بين الرواية والقصة القصيرة والشعر والترجمة والسيرة الذاتية، والنقد الفني، وخلّف وراءه مادة مكتوبة واسعة، انطوت على تصوّر محدد للثقافة وللمثقفين. إضافة إلى ذلك، فإن المثقف الذي اقترحه جبرا عبّر عن اتجاه فكري، في الحياة الأدبية العربية في خمسينات القرن الماضي وستيناته، عثر على تجسيده في مجلتي: «شعر» و «حوار»، اللتين كانتا تصدران في بيروت.(١)

يعثر السؤال الثاني على جوابه في مقولة: المثقف الرومانسي، الذي له خصائص لا تلحقه بغيره من المثقفين؛ فهذا المثقف متصل بالمستقبل أكثر من اتصاله بالحاضر، يؤمن بقوة الكلمة، ويطمئن إلى قوة الخيال الخالقة، ويلتبس بشخصية «الرسول»، الذي يقود بشراً لا يملكون بصيرته إلى هدف يراه، ولا يدرك غيره معناه إلا بعد حين. ولعل إيمان هذا المثقف بقوة الكلمة المبدعة، هو الذي يقنعه بأن التاريخ الوحيد هو تاريخ الفنون، الذي يقترح معايير وأخلاقاً جديدة. احتفت هذه المبادئ بعلم جمال الإبداع، الذي يدور حول أفراد لهم من الرؤى ما ليس لغيرهم، وبعلم جمال المستقبل، الذي يتحقق في الفن قبل أن يتجسّد في الواقع.

أرادت الرومانسية، التي صاغها عقل شعري يتاخم الفلسفة، أن تكون ثورة على الواقع الثقافي العربي، واحتجاجاً على عقلية موروثة راكدة العناصر. ورفضت إرجاع الإبداع الفني إلى علم هزيل للأخلاق. واجتهدت في التحرر من الواقع والواقعي. ونسبت قوة فاعلة إلى هذه الأساطير والرموز، وتطلعت إلى «إنسان خالق» يؤمن بـ «الخلق الكوني» ويسهم في تجدده. اقتنع الرومانسيون، بأقساط مختلفة، أن الثورة الفنية هي التجسيد الأكمل للثورة الاجتماعية الحقيقية.

اطمأن جبرا في روايات ثلاث إلى البطـل الرومانـسي، وأقصى الواقع المعيـش في رواية رابعة مثل هذا البطل. والروايات الثلاث هي : صراخ في ليل طويل، صيادون في شارع ضيق، والبحث عن وليد مسعود. أما الرابعة، التي لم يجد فيها البطل الرومانسي مكاناً مريحاً، فهي عمله الأكثر كمالاً: «السفينة»، التي تسلل إليها التاريخ، دون أن يستشير كاتبها.

١. المثقف الرومانسي وتثوير الأرواح:

أنهى جبرا إبراهيم جبرا روايته الأولى «صراخ في ليل طويل» في العام ١٩٤٦ وهو مقيم في القدس. يفترض تاريخ كتابة الرواية حديثاً عن مجتمع فلسطيني مهدد بمشروع صهيوني مسلّح، يريد اقتلاع أهله وطردهم خارجاً. لكن الرواية تبدأ بفرد مغترب، كما لو كان له عالم خالص مغلق لا يختلط بغيره. بل إن الاكتفاء بالذاتي، المصاغ بمعادلات كتابية مجردة، منع الروائي الشاب، آنذاك، من تحديد المكان والزمان. فلا شيء يشير إلى «البلدة المتمدنة»، التي يتسكع فيها الفرد المغترب، ولا شيء يحدّد هويتها أو يعطيها اسماً يميّزها من غيرها. يصدر عن تغييب هوية المكان تغييب موازٍ، لا يحدّد الزمان ولا يحفل بتعيينه. تترافد علاقات الرواية المختلفة وتصب في شخصية مثقف، يعمل في الصحافة ويكتب الرواية. تبدو الشخصية المهيمنة، في هذه الحدود، مركزاً روائياً، يقترح علاقات ثانوية، وتفصح، في اللحظة ذاتها، عن منظور روائي مأخوذ بالفردية المكتفية بذاتها، ومؤمن بتراتب البشر، الممتدين من قاع اجتماعي يثير الرثاء، إلى ذروة ممتلئة بكيانها، مروراً بمادة وسيطة من أخلاط إنسانية متعددة. (٢)

من أين يأتي اغتراب المثقف، الذي له طلعة تشبه «طلعة المسيح»؟ يأتي الاغتراب من عدم التكيّف الفكري والأخلاقي مع مجتمع أخمد عقله وغاص في أمراض خلقية، تدع المجتمع مع طبيعة شوهاء مستقرة، وتترك للمثقف بحثه المرهق عن النقاء والحقيقة. يفرض الفرق على الفعل الروائي اتجاهين متقاطعين، يترجم أحدهما مسار المثقف وإحباطاته المتواترة، ويكشف ثانيهما عن وجوه بشرية سكنها المرض.

يدور البحث، في التصوّر الرومانسي، عن حقيقة يجب الوصول إليها، وعن بيان ما يحجب الحقيقة وضرورة تدميره. ولأن إصلاح مجتمع سقط في السبات العقلي والخلقي يساوي الثورة ويستلزمها، فإن للمثقف وسائله الرومانسية التي تمهد لولادة مجتمع مبرأ من الزيف والرذيلة. بيد أن هذه الوسائل، المشدودة إلى براءة أولى، تغاير وسائل الإصلاح المتعارف عليها مغايرة كاملة، لا تقبل بالجزئي والمنقوص والمتطور، ولا ترضى إلا بالجديد الكلي، مقترحة : الحريق دواء شاملاً للأمراض جميعها. (٣)

اتكاء على مفهوم «الإبداع الخالص»، الذي يأخذ به المثقف الرومانسي، «خلق» جبرا مدينة ذهنية تتسع لمقولاته الجمالية، محددة البداية والنهاية، لها بوابة متوجّة بالرذيلة ونهاية مفتوحة على المستقبل، وبينهما فراغ مؤثث ببشر أقرب إلى المقولات. وبين البداية والنهاية عين مثقفة بصيرة، تفصل بين الخير والشر، وبين الجميل والقبيح، مساوية بين المثقف والخير والجمال، ودافعة بما تبقى إلى النار المقدسة، التي تستولد الحياة البريئة من بقايا الحريق. اشتق «البطل» اقتراحاته بتجديد العالم من مدينته الذهنية، متوسلاً الأسطورة والرمز، ومؤمناً بأن في اللهب الضروري ما يحرق الموروث المريض ويستنبت أرواحاً ثائرة. (٤)

أنتج جبرا في «صراخ في ليل طويل» خطاباً روائياً يواجه فساد العالم بثورة أخلاقية شاملة، تصالح المثقف مع مجتمعه وتصالح المجتمع مع مستقبله، وتبني الصلح متعدد الأبعاد على عقيدة «الجديد»، التي تدفن الماضي دفناً نهائياً. أما العلاقة بين الثورة الأخلاقية وبين مواجهة الخطر الصهيوني، فتظل سراً يحتاج إلى التأويل، أو نقطة عمياء تعلوها «السذاجة" ذلك أن فلاح ثورة ١٩٣٦ لم يكن معنياً بجدل الولادة والحريق. اعتقد جبرا، ربما، أن المقاومة تأتي من القيم الجاهزة، أو من منظومة فكرية حداثية تمتثل إلى مثقف مفرد ينسى، وهو المثقف الوطني البريء، أن هوية الإنسان المقاوم تتشكّل ولا تورّث، وأن الهوية عينها تنبني في الحاضر ولا «تستورد» من مستقبل قادم لا ينقصه النقاء. (٥)

والسؤال هو: ما الذي جعل مثقفاً وطنياً حاسماً يسترشد بأفكار الشاعر الإنجليزي بيرسي شلي، ولا يلتفت إلى تجربة الفلاح الفلسطيني المقاتل؟ ولماذا أقصى منظوره السياسي والتاريخي عن «مدينة» محاصرة بالسياسة والتاريخ؟ يستدعي السؤال دور «الجهاز المدرسي» في بناء منظور المثقف، ذلك أن جبرا حظي، بفضل اجتهاده، بمنحة دراسية مكّنته من متابعة تحصيله العالي في جامعة إكستر البريطانية، حيث انشدّ إلى الشعراء الرومانسيين واعتنق أفكارهم. ويقود السؤال الثاني إلى المناهج الدراسية الإنجليزية في فلسطين، إبان الاحتلال، التي كانت تعتبر «التسييس» وباء، يجدر بالطلاب «الحقيقيين» أن يحذروه، كما حكى الراحل الكريم د. إحسان عباس ذات مرة.

تمكن إضاءة منظور جبرا الشاب بالعودة إلى حالة د. إسحاق موسى الحسيني، الذي تعلّم بدوره في جامعة إنجليزية وكتب، لاحقاً، روايته: «يوميات دجاجة»، التي نشرها في القاهرة عام ١٩٤٣، أي بعد أربع سنوات من إخفاق الثورة الوطنية الكبرى ١٩٣٦ - ١٩٣٩، التي شكّلت جسراً إلى هزيمة ١٩٤٨. فقد وضع د. الحسيني في روايته خطاباً أخلاقياً، بعيداً عن السياق ومغترباً عنه، رأى في «مكارم الأخلاق» حلاً نموذجياً لأمراض البشرية كلها. يتمثل الفرق بين جبرا، وهو المثقف اللامع متعدد المواهب وبين د. الحسيني، وهو الأستاذ الجامعي التقليدي، في ركون الأول إلى أفكار حداثية رومانسية تروم التجديد الاجتماعي، وفي انغلاق الثاني في خطاب يحرّض على الزهد والقبول بالمتاح. غير أن الفرق بين الطرفين لا يحجب غياب «الوعي السياسي»، أو تغييبه، الذي كانت تحض عليه المناهج التربوية الإنجليزية في فلسطين.(٦)

٢. المثقف الرسولي وإعادة بناء العالم:

في روايته «صيادون في شارع ضيق»، التي نشرها بالإنجليزية عام ١٩٦٠ ثم ترجمت إلى العربية بعد أربعة عشر عاماً، استأنف جبرا ما قال به في روايته الأولى، وقد أضاف إليها سقوط فلسطين بعداً جديداً. كان الروائي قد وصل إلى بغداد في خريف ١٩٤٨، وعثر على عمل في مجال التعليم العالي، بدعم حميم من المؤرخ الراحل د. عبد العزيز الدوري، بعد أن التقى به في دمشق. ولأن جبرا مزج، في رواياته جميعاً، بين المتخيل الروائي والسيرة الذاتية، فقد سرد في «صيادون في شارع ضيّق»، أشياء من أحوال بغداد في ذاك الزمان ومن تجربته الذاتية فيه. (٧)

انطوت الرواية على «حكاية» مركزية، تبدأ بالفلسطيني المثقف وتنتهي به، وعلى قول روائي متضافر العناصر، يعيّن دور المثقف وماهيته، ويحدّد المهام الموكولة إليه. والحكاية تقليدية، أو شبه تقليدية، تؤالف بين العزيمة والانتصار، وتسوق قصة حب محاصرة بعقبات متعددة، تذللها عزيمة الذات المنتصرة. ذلك أن أحد الطرفين العاشقين فلسطيني وفقير ومسيحي وبعيد عن المحافظة، على خلاف عائلة الطرف الآخر، التي تنتسب إلى اليسر والوجاهة الاجتماعية وإلى محافظة مغلقة عثمانية الأصول. ومع أن الحكاية، في وجه منها، آية على الحب الذي لا يهزم، فهي في بعدها المسيطر تعبير عن «بطل رومانسي»، يزرع التمرد في نفوس مقيدة ويهزم العادات المتوارثة، مذكراً بالبطل اليوناني الأسطوري بروميثيوس، الذي سرق نار الآلهة وأضاء بها سبل المقموعين. التبس بطل جبرا الروائي بالمعرفة والمغامرة وبشهوة إصلاح العالم، وأوحى بأن من يحرّر إنساناً من قيود الجمود والمحافظة قادر على تحرير المجتمع بأسره.

يتعيّن البطل المثقف، الذي هو مرآة ذاته، بصفات تضعه بين البشر وخارجهم، وتنسب إليه من الإمكانيات ما يضيق به غيره. فهذا المثقف يبني ذاته بمواد مشتقة من ذاته، ولا يحتاج إلى آخرين يحتاجونه، كما لو كان في كيانه ما يوحّد بين الوسيلة والهدف، وما يرفع الهدف إلى مقام يقصر عنه الآخرون. ولعل تقصير المسافة «العابرة» بين الرغبة وتحققها، هو الذي يجعل حاضر المثقف الرومانسي مستقبلاً، إنْ لم يُمح الزمنان معاً بزمن جمالي عنوانه: الانتصار. يقول بطل الرواية جميل فران: «عندما وصلت إلى بغداد كان لديّ ستة عشر ديناراً»(٨). بيد أن المفرد الرومانسي، الغيور على فرديته، يهزم اختبار الغربة، موحداً بين القدس وبغداد، وموكلاً إلى انتصاره الفردي تحرير المدينتين معاً. لذا ينتقل الغريب، سريعاً، من هامش المدينة إلى مركز المجتمع. وسواء اتفق جبرا مع الشخصية الروائية التي صاغها، أم أخذ مسافة عنها، فقد أرادها تجسيداً للبطل الرومانسي في حقل الثقافة، حيث الثقافة قوة وشكل فريد من أشكال البطولة.

يساوي المثقف الرومانسي فرديته، وتساوي فرديته بطولته الثقافية (٩). يصدر عن الثقافة ـ القوة تصور: الهالة الثقافية، التي تنقّل المثقف من مركز اجتماعي إلى آخر، موحدة بين رغبة إصلاح العالم وبين رغبة مضمرة، في التسيّد عليه. لذا ينتقل بطل جبرا بيسر من حياة هامشية إلى مواقع النخبة، ومن الشعور بالغربة إلى اندماج دافئ أنيق الأطراف. يقول بطل الرواية جميل فران : «ودارت بي سلمى لتعرفني بضيوفها الآخرين: إنكليزيين اثنين، وأميركي من سفارة الولايات المتحدة وزوجته، وفتاتين شديدتي الحماس عادتا للتو من الدراسة في إحدى الجامعات الأميركية» (١٠)، يؤكد المثقف الرومانسي ميله إلى العزلة وينفيه معاً، فهو يلتحق بفئة ضيقة من خارج المجتمع، لا من داخله، كاشفاً، في الحالين، عن حداثة «نخبوية»، تهاجم الأعراف والتقاليد ولا تتعرّف على المجتمع الذي ينتجهما. وواقع الأمر أن في مثقف جبرا، المشدود إلى الفنون وخريجي الجامعات الأجنبية، ملمح من ملامح المثقف الطقوسي، المنتسب إلى ما قبل الأزمنة الحديثة، ذلك أنه يرى في الثقافة احتكاراً نخبوياً، ويضع بين الثقافة و «العوام» مسافة شاسعة لا تقبل بالتجسير. ومع أن في الفرق الثقافي الكيفي ما يستدعي مفهوم الاغتراب، الذي يردّ إلى إنسان لا يتكيّف مع بيئته، فإن هذا الفرق محتشد بتصور المنزلة، الذي يقسم البشر إلى أعلى وأدنى وإلى قائد ومقود. يفصح «جميل فران» عن دلالة الفرق وهو يتحدث عن صديقته : «لقد رأيت الفقيرات يفضن زرافات من أحيائهن الشعثاء ويجلسن على الأرض وأكوام الروث. أما أمثال سلافة فلربما تجمعن في حدائق بيوتهن لسماع الراديو أو للعزف على آلات موسيقية»(١١).

يحرّر المثقف الرومانسي الثقافة من شروطها الاجتماعية، فالفقيرات فقيرات الثقافة لأنهن يجهلن معناها، ويحررها من خصوصيتها التاريخية ما دامت «أسطوانات التانغو» تتوزّع على حي في

بغداد ومواقع من أميركا اللاتينية. تتكشّف الثقافة، والحال هذه، إبداعاً إنسانياً له تاريخ خاص به، منعزلاً عن تواريخ المجتمعات، إن لم تكن هي التاريخ الحقيقي الوحيد، وما غايره زمن نافل لا معنى له.(١٢)

يحوّل التصوّر الرومانسي العلاقات الاجتماعية إلى علاقات جمالية، ويفصل بين الجميل والقبيح، بين المثقفين المرتبطين بزمن جمالي كوني وغير المثقفين المشدودين إلى أزمنة اجتماعية محلية فقيرة. لا يتحدد الجمال والثقافة، بهذا المعنى، ببشر لهم شروط اجتماعية، بل بتاريخ جمالي أنجزته فئات مبدعة. ولذلك تحيل «سلافة»، الأنثى الجميلة الميسورة التي تعشق الموسيقا، على الشاعرة الإنجليزية «باريت»، أو على صورة إميليا فيفاني، الفتاة الإيطالية التي التقى بها الشاعر الإنجليزي شلي، وتستحضر عينا "سلافة" «عيون المنحوتات والجداريـــات الآشوريات»(١٣). يلغي الفن المسافة بين «المجتمعات المختلفة»، ويتيح للبشر المثقفين تبادلية المواقع، التي تتجاوز الجغرافيا والتاريخ، فتصبح العراقية صورة عن شاعرة إنجليزية، ويغدو عالم الآثار الإنجليزي عربياً مثقفاً؛ «أما براين، فبعد أن أصبح طلق اللسان بالعربية، بدأ يتعلّم العزف على (المطيح)، تلك الآلة أصيلة العروبة المصنوعة من زوج من القصب...». تخبر الرواية، في صفحاتها المتتابعة، عن منظور المثقف الفلسطيني جميل فران، كاشفة عن دلالات الرسم والموسيقا والأشعار والتماثيل، كما لو كان في الفن ما يقيم الحدود بين الوجود الإنساني العارض وبين الوجود الأصيل. تبدو الثقافة حالة نوعية ترفع الذي يتمتع بها، وتسوغ له السيطرة على من هم أقل ثقافة. فبالثقافة يتحرر الإنسان الخاضع من قيوده، ويغدو الإنجليزي عربياً والعربي إنجليزياً، وبالثقافة يستعيد الفلسطيني أرضه المغتصبة.

تضع الثقافة المرتبة مسافة بين المثقف الفلسطيني الرومانسي وبين المتعلّمين العراقيين: «ما كان يسئمني أن أراهم يثورون ويتشاجرون جراء أفكار أولية. وكدت في شيء من إرهاق الإرادة أن أضع نفسي مكانهم لأذوق نشوة اكتشاف أفكار مهزوزة كتلك لأول مرة. فقد كانوا كمن ينظر إلى نهر دجلة ثم يهتف فجأة : «انظروا إنه يتحرّك، وفيه سمك يعوم». لا غرابة في أن يتحول «الشرق»، في منظور مسكون بأطياف شلي واللورد بايرون إلى متحف للمخلوقات الغريبة الطريفة: «كان ثمة رجل عاري الجذع يتدلى ثدياه السمينان كأثداء الزنجيات»، و «تأملت قدمي شاب، وتذكّرت تماثيل ميكيل أنجلو».

تتحوّل الثقافة، إلى دين نخبوي يختزل التاريخ إلى علم الجمال، ويحرّر الجمالي من شروطه الاجتماعية فاصلاً بين بشر «الأثداء السمينة» وبشر صدورهم من رخام صقيل، ومختصراً البشر إلى ظلالهم الفنية. فالفتاة العراقية «تشبه إليزابيت باريت، بل إنها مثلها شاعرة»، وصدر عامل الحمّام الأسود «يصلح أن يكون صدراً لأبوللو». يساوي كل موضوع اجتماعي ملموس ظله الجمالي، ويساوي المجتمع كله ظلاله الجمالية. (١٤)

تحتضن مقولات الرومانسية المتطرفة مفارقة صاخبة، فهي تقول بتحرير المجتمع الذي فاتته التربية الجمالية، وهي في اللحظة عينها تختزل المجتمع إلى ظلاله الفنية. يقول جبرا: «لقد أعطتني الثورة الرومانسية فكرة إمكانية قيامنا بثورة مشابهة».(١٥) لكن الثوري الرومانسي لا يقبل إلا بأفراد يوازعونه أفكاره الجمالية، أفراد ـ ظلال، منتهياً إلى ثورة رمزية، قوامها بشر من الرموز والإشارات الفنية، يخلقهم ويرسل بهم إلى مدار ثوري مخلوق. لا غرابة أن يحرّر بطل جبرا المجتمع العراقي التقليدي بشكل رمزي، مستلهماً حكاية رمزية لبيرسي شلي، عن الأقفاص والأجنحة المتمرّدة. تأخذ العراقية «سلافة» موقع الطير الأسير، ويأخذ بيتها العثماني التقليدي موقع القفص، ويأخذ الروائي جبرا مكان الشاعر الرومانسي، الذي يخلق الأقفاص والأجنحة والطيران. بعد اختصار التاريخ إلى علاقات جمالية، يختزل التحرر الاجتماعي في إشارات حكائية، ويترسب التاريخ والتحرر في بنية قصيدة متسقة، تنتظر التأويل. غير أن الخطاب الروائي، عند جبرا، لا يلبث أن يوسّع فضاء الاختزال، حين يساوي، رمزياً، بين العراقية المحرّرة وأنثى فلسطينية «سابقة»، دفنها الإرهاب الصهيوني لحظة سقوط فلسطين. كل شيء يتحرر ولا يتحرّر في معادلات الموت والانبعاث، ولا يتبقى إلا المخلّص الرمزي، المطمئن إلى أصداء الكتابة المبدعة.

من أين جاء جبرا بمواده الروائية التي اشتق منها مثقفاً فلسطينياً رسولياً؟ جاء بها من ثقافته الشعرية الإنجليزية الرومانسية. يقول في كتابه شارع الأميرات: «برسي بيش شلي، الشاعر الإنجليزي الذي، وهو متزوج بماري غودين، تعلّق بفتاة أرستقراطية إيطالية في جنوى، أوحت إليه بأنها سجينة أهلها، فتخيل أنه يريد إنقاذها من سجنها، وتحريرها..»(١٦). حاكى جميل فران في «صيادون في شارع ضيق» الشاعر الإنجليزي، وساوى بين فتاة من جنوى والفتاة العراقية الأرستقراطية، وحوّل السجن إلى عملة مرنة تصرف في عراق منتصف العشرين وفي إيطاليا مطلع القرن التاسع عشر. تنفي القرابة الشكلانية، التي تدور حول العشق وكسر الأقفاص، القرابة التاريخية، ذلك أن إيطاليا لم تكن تابعة للسيطرة الإنجليزية. ولعل الاحتكام إلى تاريخ الفن، الذي يهمّش التواريخ، هو الذي سمح بتبادلية المواقع بين الواقعي والحكائي، وأسبغ على مثقف فلسطيني لجأ إلى بغداد ملامح شاعر إنجليزي. يتمثّل العنصر الثاني بمنظور رومانسي يعطف «الإنسان الخيّر» على السيد المسيح، ويعطيه قدرة فائقة، تسحب المستقبل إلى الحاضر، على مقربة من «البطل البايروني»، الذي يعيش على الأرض وتخفق أجنحته في السماوات.

جاء العنصر الثالث من قلق اللاجئ الفلسطيني وحلمه بالعودة. غير أن جبرا، الذي آمن ببطولة النخبة الثقافية، لن يشتق «الحلم الفلسطيني» من حياة اللاجئين، كما فعل غسان كنفاني، بل من قول سمعه، صدفة، من المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي: «ذكرت قبل مدّة لأحد أصدقائي ما قال لي

توينبي في الخمسينات عندما التقينا في بغداد. قال «أنتم الفلسطينيون خرجتم من فلسطين كما خرج العلماء الإغريق من القسطنطينية بعد أن احتلها الأتراك سنة ١٤٥٣. أنتم تلعبون بنفس الدور الحضاري الهائل في الأمة العربية، هذا هو مصيركم أم حتفكم، لا أعرف»(١٧). يأخذ الفلسطيني بعداً رسولياً تحوّطه المأساة، لأن الموت لا يتجنّب حامل الرسالة إلا في ظروف محدودة.

استعار جبرا مفهوم المثقف المنقذ من الشاعر الإنجليزي شلي، واعتنق فكرة المؤرخ الإنجليزي توينبي عن المثقف الفلسطيني الذي يحرّر أمته. طبّق الفكرتين تطبيقاً لا انزياح فيه، إذ المثقف العاشق ينجد معشوقة حبيسة، وإذ المثقف الفلسطيني يهزم التقاليد العراقية المحافظة. والسؤال: ما الذي جعل جبرا يأخذ على محمل الجد فكرة ملتبسة ؟ تتوزّع الإجابة على فكر رغبي يحذف المسافة بين الرغبة وإمكانية تحقّقها، وعلى نزوع تعويضي يقنع اللاجئ الفلسطيني بتفوقه على غيره حتى لو كان منفياً، وعلى تصوّر ميتافيزيقي يعيّن الفلسطيني «بطلاً للقدر»، كما لو كان في خسران الفلسطينيين لوطنهم حكمة غامضة، تشتق من مأساتهم انتصاراً عربياً شاملاً، ... والاحتمالات في وجوهها المتعددة مسكونة بوعي تاريخي منقوص، على الأقل، ذلك أن اللاجئين الفلسطينيين كانوا، بعد النكبة وحتى اليوم، يحتاجون إلى من ينصرهم، وجزءاً من واقع عربي موروث، بعيد عن «علماء الإغريق». وإذا كانت «النكبة قد كشفت للعرب أن تاريخهم لم يجعل منهم أمة بعد»، كما يقول قسطنطين زريق في كتابه «معنى النكبة» (١٨)، فما الذي يمكّن الفلسطينيين، الذين وقعت عليهم النكبة، من أن ينجزوا ما لم ينجزه بعد تاريخ أمتهم؟

يقول إدوارد سعيد في كتابه «تأملات في المنفى»: «ما طرحه ١٩٤٨ هو أحجية باقية، طفرة وجودية لم يكن التاريخ العربي مهيئاً لها»(١٩). وما قال به توينبي أحجية رمزية أقنعت الفلسطيني جبرا، بأن قوة الأمل تخلق التاريخ الذي تريد. آمن جبرا بقوة الخير والأشعار، وانطلق سعيد من وحدة السياسة والتاريخ. يقول إدوارد: «فالقومية العربية، والتقليدية الإسلامية، والعقائد المنطقية، وضروب التضامن الطائفي أو القروي الضيق، جميعها، فوجئت بالنتيجة العامة المتمثلة بالنجاح الصهيوني والتجربة الخاصة المتمثلة بالهزيمة العربية»(٢٠).

انجذب جبرا، الذي درس في جامعتي إكستر في بريطانيا وهارفرد في أمريكا، إلى كلمات توينبي، ملبياً فكرة: المثقف الرسولي. يصدر المثقف الرسولي، خارج الرواية، عن أيديولوجيا الفضيلة، ويصدر في «صيادون في شارع ضيّق» عن أيديولوجيا الإبداع القائلة بإمكانية الخلق من عدم. يطرح بطل جبرا سؤال المعرفة الروائية التي تنفذ، نظرياً، من ظاهر الواقع إلى جوهره، منتجة معرفة بالواقع متحررة من الوعي الزائف، لا تأتلف مع معادلات البطل الرسولي. ولعل الفرق بين النخبة الممكنة، التي لا تلغي ممارسات البشر بإبداع مفترض، والنخبة الرومانسية المتعالية، هو الذي

يقسم رواية جبرا إلى قسمين غير متجانسين: أحدهما يتكئ على المتخيّل ويرصد نخبة بغدادية في أوائل خمسينات القرن الماضي، ويستند ثانيهما إلى روائي يعيّن المبدع خالقاً للوقائع. لذا تبدو الرواية متسقة وهي تنسج حواراً شائقاً بين شخصيات بغدادية مختلفة، ومكسورة مفتتة العلاقات وهي تختصر التاريخ إلى قفص يضغط على الأجنحة.

يتبقّى سؤالان: ما هو السياق العربي الذي دفع بمثقف لامع حداثي الثقافة، إلى معادلات ذهنية تعالج الهزيمة والانتصار؟ أليس المثقف الرسولي الرومانسي استتباعاً للنزوعات التقليدية التي فوجئت بالنجاح الصهيوني، كما ذكر سعيد؟ أكثر من ذلك: إذا كانت النخبة الثقافية المفترضة جزءاً من الواقع المهزوم، فما معنى النخبة وما هو دور الثقافة؟ بعد عشرات السنوات، وفي عمله الروائي الكبير «السفينة»، سيقوم جبرا بحل «الأحجية الباقية»، متأملاً الاستبداد السلطوي، ومدركاً أن الثقافة علاقة اجتماعية وأن المثقفين لا دور لهم في شروط طاردة للإبداع والثقافة معاً.

٣. شارع الأميرات والنخبة الثقافية المؤودة:

أصدر جبرا في العام ١٩٩٤ كتابه «شارع الأميرات» ـ فصول من سيرة ذاتية، أخذ الكتاب عنوانه من شارع بغدادي شهير، سكن فيه المؤلف وعايش نخبة ثقافية متعددة الاختصاصات انتظرها، لاحقاً، مآل غير سعيد مرّ عليه جبرا، بأسى شفيف، في روايته : «السفينة».

قرأ جبرا، في سيرته الذاتية المنقوصة، بغداد خمسينات القرن الماضي، مستعيداً سيرة «شارعه» الأثير، الذي توزعت على بيوته نخبة ثقافية تلقت معارفها في جامعات غربية متعددة. ومع أن في النخبة المحملة بثقافة أوروبية وأميركية ما يوحي بـ «اغتراب ثقافي»، كما يقال، يضع بينها وبين شعبها مسافة غير حميدة، فقد كان هاجسها، كما يؤكد جبرا، توليد «عراق جديد»: «كانت المخيلة العربية يومئذ في توثّب رائع تريد تحقيق الجدي والأصيل، وكل ما يعطي الأمة أملاً في مستقبل لا يتخطى فقط الموت، الذي ابتليت به لأكثر من سبعمئة سنة، بل يتخطى، أيضاً، حتى ما أنجزته النهضة التي جاء بها التنوير منذ أواسط القرن التاسع عشر حتى الحرب العالمية الأولى. "شارع الأميرات- ص : ١٢٠".(٢١)

كان في عراق الخمسينات، كما في غيره من البلدان العربية، «نهضة في النهضة»، تحتفي بالجديد والنقدي و «المعاصر»، رداً على ثقافة «قرون بائدة»، وإدراكاً من حملة النهضة، أي المثقفين، أن أمتهم مهددة بثقافة فات أوانها، ومهددة أكثر بالقوى الخارجية الطامعة فيها. ولعل هذا الطموح الوطني ـ الثقافي هو الذي أطلق في بغداد مدارس أدبية وفنية متعددة، وأعطى المرأة المتعلمة دوراً

فاعلاً في أكثر من مجال، كما يذكر جبرا، وجعل العراقيين يستضيفون كفاءات علمية من بلدان عربية متعددة: «كانت المؤسسات العراقية ميالة دوماً لاستخدام مثقفين عرب من ذوي الخبرة والكفاءة حيثما وجدتهم، مع أن الرواتب لم تكن كبيرة، والاعتماد أصلاً على حماس المتقدم للوظيفة. وفي الفلسطينيين ميل قديم إلى العراق تزايد منذ أواسط الثلاثينات، لإيمانهم بالدور القومي الأساسي الذي يلعبه العراق في حياة الأمة العربية : شارع الأميرات ص: ١٦٨». أكدت فلسطينية جبرا انتسابه إلى العراق، ووطّدت ثقافته العراقية انتسابه إلى فلسطين، في انتظار زمن أربك الانتساب في شكليه.

اعتنق مثقفو بغداد، في «عصرنا الذهبي» الحديث، مقولات الكفاءة والمعاصرة وفاعلية المعرفة، من وجهة نظر وطنية. ولذلك يمر جبرا على الاختصاصات الحديثة، وعلى الجامعات الأجنبية التي تخرّج منها العراقيون، ويتوقف أمام «الوظيفة الوطنية للمعرفة»، في تجديد أجهزة الدولة بعامة، كأن يكتب وهو يتذكّر حيدر الركابي: «فهو خريج الدبلوماسية العراقية التي كانت في الأربعينات والخمسينات والتي تجمع عدداً من ألمع الشخصيات الثقافية التي لأي بلد ناهض أن يفاخر بذكائها وخبرتها ووطنيتها. "شارع الأميرات- ص : ١٨٠". عايش جبرا، الذي اختبر العراق واختبرته العراق، المخاض الثقافي العراقي الخصيب، وساوى بين الوطني والجديد، أكان ذلك في بغداد أم في عواصم عربية أخرى. فهو يكتب: «كأن ثمة إحساس في مطلع الخمسينات عند شباب الأدباء في بغداد، وكذلك، في بيروت ودمشق والقاهرة، بأن الجديد الذي بات عليهم أن يأتوا به إنعاشاً لروح أمة مهددة من كل صوب، يعطيهم الحق في أن يفرضوا نزوعاتهم الفكرية الانقلابية، "شارع الأميرات- ص : ١٢٩". بنى المثقفون العراقيون مشاريعهم على شعار : الجديد الوطني، الذي يقرأ أغراض الثقافة بمعايير وطنية.

قدّم جبرا في «شارع الأميرات» شهادة دقيقة التفاصيل، عن البيئة الثقافية البغدادية في خمسينات القرن الماضي، ونظر إليها بعد خمسين عاماً بحنين وأسى، لا تأييداً منه للنظام الملكي، بل احتفالاً بأطياف وعد كبير، بدا صاخباً مظفراً، ثم انطفأ. فقد رأى في تلك البيئة، التي لن تتكرر، ربما، تحالفاً بين «روح العصر»، المندفعة إلى جديد غير مسبوق، و«الروح القومية المتوثبة»، التي تعيد تخليق العروبة وتمدّها بالقوة والأمل والتحدي. ولذلك لم ينظر إليها بمعايير «الطبقة» و «الصراع الطبقي»، و «الثورة القومية»، بل بمعيار «الحداثة الاجتماعية» التي «استولدها مثقفون نقديون انتموا إلى فئات اجتماعية مختلفة. ولعل العلاقة المتجانسة بين المواضيع الثقافية والأساليب المثقفة التي طبقت عليها هو الذي وضع على لسان جبرا تعبير: أرستقراطية الثقافة التي تعيّن الثقافة قيمة وأسلوباً في الحياة. عبّرت «أرستقراطية الثقافة»، في منظور الأديب الفلسطيني، عن الفضول المعرفي الباحث عن إجابات جديدة لأسئلة قديمة، وعن الرغبة في تحويل الثقافة إلى حاجة يومية وضرورة

أخلاقية، وعن قناعة حاسمة بوحدة الثقافة والقيم الوطنية والقومية الراقية. لم يفت جبرا الإشارة إلى أن المجتمع كان أبطأ حركة من أولئك المثقفين الثائرين. وإلى أن «الهجرة من الريف إلى المدينة لا تعني دائماً التحضّر والتحلّي بروح المدينة العصرية بين عشية وضحاها، "شارع الأميرات ص : ١١١". غير أن توقفه أمام الفروق الاجتماعية، التي كانت تجعل التعليم العالي من نصيب الأسر الغنية، لم يخفف من انبهاره بالوثبة الثقافية العراقية الكبرى: «أي فوران ثقافي كان يتصاعد في المدينة يومئذ!»، أو أن يقول: «كما كان هناك أصحاب الفكر الاقتصادي، والاجتماعي، والسياسي، والفلسفي، والتاريخي، من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، وكلهم لا يقلون شأناً عن رفاقهم من الأدباء والفنانين في زعزعة القديم والتبشير بحداثة ستغيّر الوطن العربي برمته، ليس فيما يخص المواقف السياسية والاجتماعية وحدها، بل فيما يختلج في دواخل الأفراد رجالاً ونساء من تطلع ورؤية، وتأكيد على الحرية في كل أشكالها. "شارع الأميرات ص : ١١٣".

رسم جبرا في «شارع الأميرات» عوالم بغداد، «الفائرة الثائرة»، وعوالم بغداد لاحقة لا تشبه الأولى. دفعته حرارة التجربة ومآلاتها إلى كتابة روايته «السفينة»، التي هي ترجمة فنية «دقيقة» لصعود المثقفين وانكسارهم. يستطيع القارئ أن يقارن بين ما جاء في الفصل الخامس من «شارع الأميرات»، الذي مرّ على عالم المثقفين واهتماماتهم وأسمائهم ومآلهم، وبين شخصيات الرواية التي هي مرايا فنية لشخصيات حقيقية، عاشت في بغداد، أو غيرها، ذات مرة. يقول جبرا في سيرته المنقوصة: «ولا يقل عن هذا أهمية ما راحت الأيام والليالي، منذ أواخر الخمسينات، تتقاذفه من أحداث في حيوات بعض المقيمين في منازل هذا الحي، بشارعيه المتوازيين، منها المفرح، وهو كثير، ومنها المأساوي المزعزع، ولعله الأعم والأعمق فعلاً في النفس. هناك من استشهد في الحرب. وهناك من تحطّمت حياته الزوجية، ومن هاجر يأساً، ومن جُنّ، ومن قُتل، ومن انتحر، ص : ٨٧، المذكرات، ١٩٩٤.

كتب جبرا رواية السفينة عام ١٩٧٠، وكتب مذكراته عام ١٩٩٤، مارس في الكتابة الأولى «الإيهام بالحقيقة»، وأكد في الثانية أنه لا يتوهم بل يقول الحقيقة. وكما هو حال الحقيقة دائماً، تولد مرة أولى ولا ينتبه إليها أحد، وتولد مرة ثانية وتحظى بالاعتراف، لكن بعد فوات الأوان، (٢٢)

٤. السفينة: المثقف الحديث وطبقات الاغتراب

أحالت الرواية بلغة هامسة على عراق ما بعد الحكم الملكي، وساءلت مصائر مثقفين ينتمون إلى أكثر من بلد عربي، وانتهت إلى «رؤيا» قاتمة، تقيم حداً بين مرحلتين متغايرتين. أوجزت قولها، وهي ترثي مثقفاً دمّره السياق الجديد، بكلمات إحدى شخصياتها: «بانتحاره، يخيّل إليّ أن فئة كاملة من

المجتمع تنزاح عن مسرح حياتنا، ... تلك الفئة المفكّرة التي تتحدى سيف الظلم بصدرها. إنها في زوال سريع. "السفينة- ص : ٢٩". لم يكن المثقف المنتحر، أو الذي سيق إلى انتحاره، إلا المنظور الثقافي العربي الذي يوائم بين المعرفة والحداثة الاجتماعية والديمقراطية، ولم تكن الفئة المفكرة إلا الصوت الأخير لـ «حقبة نهضوية» عربية، لعب المثقفون المستنيرون فيها دوراً حاسماً. يشير تعبير : «تتحدى سيف الظلم بصدرها» إلى معركة ميؤوس منها. أقامت الرواية قولها على التضاد بين الحرية والطغيان، بين الشرط الطبيعي الذي يستولد المثقف ويحمّله أحلاماً واسعة والشرط السلطوي الذي يدفع المثقفين إلى المنفى والانتحار. صرّحت، في الحالين، ببصيرة ثاقبة، ترثي زمناً وتنظر إلى «الرعب القادم»، كما تقول إحدى شخصيات الرواية.

قرأ جبرا مآل المثقف السائر إلى نهايته بمجاز الانتقال الذي يقوده مكانياً من الوطن إلى المنفى، ويردّه زمنياً من مرحلة الصعود الاجتماعي إلى مرحلة الصعود السلطوي، الذي يعيد تعريف المجتمع والثقافة. وسّع الروائي المجاز بمعادل جمالي عنوانه: السفينة، التي هي واسطة نقل وموضوع يوقظ الذاكرة، وموقع لقاء بين زمن واضح مضى وزمن قادم غادره اليقين. تقول الرواية: «السفينة تشعرك جسدياً بانسيابك خلال الزمان والمكان معاً». ولعل الاختلاف بين رحلة الجسد وبين رحلات الروح هو الذي يضع في الرواية حواراً بين جماليات البحر وقلق النفس البشرية المخذولة والهاربة. أثث جبرا روايته بإشارات فنية ترسم أحوال المثقف الديمقراطي المغترب، مستدعياً رائحة الموت وصرخات الغرق وعاصفة بحرية مرعبة ترهق الأرواح والأجساد.

تستهل الرواية بجملة سعيدة: «البحر جسر الخلاص»، تعد براحة قادمة. والخلاص الذي ينشده المثقف المغترب، الذي أطاحت «الشرعية الثورية» بأحلامه، قائم في «أوروبا»، وفي «جامعات أوروبية» زوّدت المثقف بمعارف حديثة، لم يتح له الاستفادة منها في بلده إلا في لحظات سعيدة. بيد أن الاستهلال، الذي يعد بالخلاص، يتلوه استهلال آخر، يكشف أن الخلاص المشتهى يفضي إلى الجحيم: «عن كل أمل تخلوا أيها الداخلون هنا». تستعيد الجملة ما قاله الإيطالي دانتي في «الكوميديا الإلهية»، فاصلة الأمل عن أفقه، مؤكدة أن المثقفين الذين خسروا في الوطن تنتظرهم خسارة فادحة خارجه. صاغت الرواية مأساة المثقف الديمقراطي المهزوم بثنائيات متعددة: العقاب والخلاص، العشق والحرمان، الوطن والمنفى، السلطة والثقافة، الماضي والحاضر، .. تكشف الثنائيات، عن اغتراب يقترب من الموت مترجمة جملة المراقب الفلسطيني: "إن فئة كاملة من المجتمع تنزاح عن مسرح حياتنا،.". أبصر الروائي مستقبل المثقف المستنير، متوسلاً لغة الحوار ولغة الإشارات الفنية التي ترى «البحر الهائج» في مكانه وفي مكان آخر. أضاف إلى اللغتين أطياف فلسطين المحتلة التي تعلم المثقف الفلسطيني النزيه الفرق بين الوطن والمنفى، بين جحيم التنقل ونعمة الاستقرار.

واجهت الرواية رخاوة المنفى بقوة الوطن والأمل، وساوت بين الوطن ودفء المرأة. يفصح مرجعاً الاستقرار، في علاقتيهما بالمثقف المغترب، عن مصير أقرب إلى اللعنة، فلم يسمح له «الصعود الثوري» بوطن سعيد ولا بوصال مريح مع المرأة المعشوقة، كما لو كان في المثقف عطب

وجودي، تستكمله السلطة بأدوات الرقابة والمراقبة. لذا يبدو المثقف، منذ البداية، موضوعاً لأكثر من اغتراب: فهو موزع على ثقافتين لا تنتميان إلى زمن تاريخي واحد، وعلى لغتين بينهما فرق ومسافة، ومشدود إلى «آخر أوربي» يحتفي به ولا يتعايش معه، ففتنة جان بول سارتر لا تحجب جرائم الاستعمار، وهو معجب بالدساتير الأوربية ونافر من عشائرية فظة دستورها عشائريتها، لكن اغتراب المثقف لا يبلغ ذروته إلا بانتصار سلطة تصادر حرية التعبير،وتعتبر الثقافة، كما المثقفين، مرضاً يستقدم الخراب، يصيّر «إزاحة المثقفين عن مسرح الحياة» عملاً وطنياً.

يستدعي مفهوم المثقف مفهوم السلطة، فلا وجود للمثقف إلا في موقفه من السلطة، ويستدعي شكل الوصول إلى السلطة سؤال الثقافة، ذلك أن الوصول المؤسس على «شرعية العنف» يختلف عن وصول تأسس على تعاليم الدستور. استولدت الرواية موضوعها من الفرق بين معادلات القلم ومنطق السلطة القامعة منتجة «رواية سياسية» بامتياز، تخفّف قولها باسلوب يجمع بين النثر والشعر والفلسفة. لا غرابة أن تفترش سطورها مفردات واضحة الهوية: الحرية،: والطغيان، القانون، التعذيب، حقوق الإنسان، السجن، الظلم والقيم والخير والشر،.... قارب الحوار في الرواية المواضيع السياسية، المتمحورة حول الإنسان وحقوقه الأولية، هذه التي تختصر، في أزمنة الطغيان إلى حقوق بيولوجية منقوصة.

أخذ جبرا بوجهة نظر المثقف النهضوي العربي، الذي شكّلت وحدة الثقافة والحرية مرجعاً لأحلامه، والذي واجه ثقافة تقليدية متكلسة، و«جهازاً ثورياً» يعيد إنتاج العلاقات التقليدية بلغة جديد.

وصفت الرواية أحوال المثقفين وأشواقهم بأشكال مختلفة: «التعطش إلى الثقافة تعطش ارستقراطي»، «الكتب الجيدة وحدها لا تكذب»، و «إيثار الموت على العبودية». يصف الفلسطيني المثقف العراقي التنويري المهزوم فيقول: «يذكرني بتلك الفئة الارستقراطية التي إذ ترى، بذكائها المفرط. مصيرها المظلم، تحاول اقتحام الموت قبل أن يقتحمها الموت: "السفينة- ص١٢٩". ليس الطبيب المنتحر ارستقراطي الثقافة إلا الوجه النقيض «لشرعية الثورة» التي تفتقر إلى قيم الحداثة الثقافية وإلى «الذكاء المفرط»، ذلك أن المثقف وضع فكرة النظام فوق الثورة والثقافة معاً، وأكّد النظام شرط التحقق الإنساني. وسواء كان المنتحر ليبرالياً أم لم يكنه، فهو كبقية المثقفين «لا يستطيعون الحياة إلا في جو من الليبرالية التي تتيح لهم الكتب، واللقاءات والدراسة والتنظيم، "السفينة- ص ١٣٢".

إذا كان المثقف لا يستطيع الحياة إلا في مجتمع حر فإن وجوده في مجتمع طرد الديمقراطية مضمون الخسارة. تدفعه المفارقة إلى اغتراب أفقه المنفى، ويدفعه حب الوطن إلى بقاء خاسر، متحولاً إلى «وجود معطوب» لا خلاص له في الوطن ولا خلاص له في المنفى. ولعل الوقوف أمام الخلاص المستحيل هو الذي جعل رواية السفينة تذكّر برواية ديستويفسكي «الأبالسة»، التي عالجت ضياع اليقين بالانتحار وبكتاب البير كامو: «أسطورة سيزيف»، الذي قرأ عذابات الإنسان في تحدي ما لا يمكن تحدّيه (٢٣)، استعار جبرا من رواية «الأبالسة» فحيح الانتحار ورؤيا الرعب القادم، واستعان بكامو ليضع على لسان أبطاله هو ما يضيء قوله الروائي: «التحدي الأهم هو السلطة. أين الحد الفاصل بين السلطة والاستبداد، السلطة كفتح طريق مسدود أم السلطة كمقصلة؟ التاريخ كما يقول البعض هو قصة صراع الحرية مع الطغيان. "السفينة- ص ١٢٣".

قرأت رواية جبرا المعوّقات الاجتماعية والسلطوية التي تقوّض أحلام المثقف وأعطتها صفة: العطب الوجودي، كما لو كان المثقف المتمرّد غير قابل للحياة، بسبب «نقص ما» يلازمه منذ البداية، أو يقع عليه في منتصف الطريق. فقد ورثت الشخصية الروائية الأولى شيئاً من الجنون وحملت نزوعاً انتحارياً وتشبعاً بفكرة الإنسان المستقل وبفكرة النظام. وبالرغم من وجاهة وضعه الاجتماعي الذي انتزعه بجدارة، فهو الطبيب الناجح الذي درس في جامعة أدنبره، فقد كان مخفقاً في زواجه وغير مقبل على الحياة. ولم يكن الخلل في حياة زوجته أقل عنفاً، فهذه الفيلسوفة التي درست في جامعة أكسفورد لم تستطع أن تقترن بالإنسان الذي أحبته، ولم تستطع، وهي المثقفة اللامعة، أن تتحرر من موروث عشائري لا يقبل بفكرة القانون. لذا يحتشد حديثها عن برجسون وتوما الإكويني والإيمان الشعري بسخرية سوداء، لا يضعها في المجتمع الذي ولدت فيه ولا يدعها في المجتمع الإنجليزي الذي اقتربت من عاداته، أما المثقف الثالث، الذي درس في فرنسا وعاد إليها منفياً، فدفع ثمن هوسه السياسي القائل بالحزب والثورة والنظرية العلمية، وعرف السجن والتعذيب، و «هاجر» ملاحقاً بأطياف الجلادين، الذين زرعوا في روحه شيئاً من الجنون.

جاء المثقفون في رواية جبرا من أوساط اجتماعية ميسورة، ودرسوا في بلاد الأحلام ـ أوروبا ـ وشكلوا نخبة اجتماعية مشغولة بالقيم والتحرر والآداب والفنون وانتهوا جميعا إلى البوار، مترجمين مآسي ذاتية ومفصحين عن مأساة تاريخية في آن. فقد تميّز المثقف الحداثي العربي بدعوة إلى تحديث المجتمع ونقله إلى «التاريخ الكوني»، وتميز مجتمعه، لأسباب مختلفة، بركود موروث لا يعرف الفرق بين الماضي والتاريخ. يتكشّف استبداد الماضي في وعي متوارث لم يتعوّد على فكرة القانون، وفي سلطة هجينة الحداثة تعتقل البشر والقانون معاً. جاء في الرواية: «رجل استبد به الغضب بسبب أرض في قضاء مغمور في جنوب العراق نسيته الجغرافية، فقتل رجلاً آخر. "السفينة- ص

٦٣". يعيّن القاتل نفسه بديلاً عن القانون، مشخصناً القانون والأحكام. ليس القاتل الغاضب إلا صورة مصغرة عن سلطة غاضبة، تطلب ولاء مجتمع لا تعترف به. بيد أن جبرا بحسه النقدي الساخر أوصل فردين من عائلتي القاتل والقتيل إلى جامعتي لندن وأكسفورد، سائلاً «دور الثقافة» في زمن اجتماعي تحكمه «الأجساد» وينفر من العقول.

أقام جبرا روايته على خطاب ليبرالي، عالج به نخبة فكرية بغدادية ضيقة، يعرفها وتعرفه، وأبصر نهايتها. غير أنه همش نقطتين أساستين: واجه النخبة بسطوة «العامة»، دون أن يدرك أن الطرفين ضحية لاستبداد الماضي ولموروث استعماري اختصر الثقافة إلى «ضرورة إدارية»، منقطعة عن دلالة الحداثة والتحديث. ولعل هذا التهميش، وهنا النقطة الثانية، هو الذي منعه عن رؤية «تناقضات الثورة» في ستينات القرن الماضي التي لا يمكن ان تختصر، وهي صاحبة «المشاريع الكبيرة»، إلى الطغيان والاستبداد وتدمير العقول. وعلى الرغم من هاتين النقطتين تظل رواية «السفينة» وثيقة فريدة عن مأساة المثقفين الحداثيين العرب، الذين حملوا قيماً وطنية ليبرالية في سياق ساوى فيه الشعب العربي بين الليبرالية والاستعمار وسيطرت عليه نزوعات وطنية شعبوية، لم يتح لها حظاً كبيراً من الثقافة والمعرفة.

أعطى جبرا في روايته متعددة الأصوات مساحة خاصة لمثقف فلسطيني، يقف إلى جانب غيره من المثقفين العرب، يحاورهم ويحاورونه ويغايرهم جميعاً، اعتماداً على فكرة: جمالية التوازن(٢٤). فعلى خلاف غيره من المثقفين المغتربين، يبدو الفلسطيني متكاملاً ولا انقسام فيه، متصالحاً مع ذاته ومع غيره، يقدس الوطن ولا يهجس بالمنفى. والفلسطيني في تكامله مبرّأ من النقص، يساوي بين القدس والصخر، ويرى في ذاته صخرة من صخورها، حال تلامذة السيد المسيح الذين أخلصوا لرسالته، وهو مشبع بقضيته، يحمل معاناتها في ذاكرته، ويجعل من ذاكرته كتاباً يسرد أحزان ١٩٤٨.

تضيء شخصية المثقف الديمقراطي العربي المنتحر شخصية المثقف الفلسطيني البصير وتملي عليه، معتمداً على التجربة، أن ينتبه إلى حقيقة أولى وأن يعيش حقيقة ثانية: فهو الذي رأى أن «فئة مفكرة تنزاح عن مسرح حياتنا»، هاجساً بالتخلّف العربي وسقوط فلسطين، وهو الذي أدرك، أن عليه أن يعتمد على ذاته وأن يدافع عن «قدسه»، في انتظار زمن عربي لا يدمّر العقول المفكرّة. لذا يتسع الحوار الروائي المتشعب لمواضيع فلسفية وجمالية وسياسية دون أن يمر، ولو من بعيد، على أسئلة الوحدة العربية وآفاق العروبة، مكتفياً بالإشارة إلى ما يعطلّهما من أعراف الاستبداد والبداوة والبادية والأخذ بالثأر، و «قتل إنسان من أجل قطعة أرض مهجورة في مكان نسيته الجغرافية». قرأ الفلسطيني «عروبته المخذولة» في أقدار المثقفين، الذين أرادوا وطناً عربياً جديداً

ونزل عليهم الانتقام، وقرأ في مصائرهم خسراناً ذاتياً. فقد كان بينهم وهم يدخلون إلى سفينة «غادرها الأمل»، وكان مع ذاته وهو يتمسك بأحلامه الشاقة.

احتفى النقد الأدبي، غير مرة، برواية جبرا اتكاءً على مبدأ: «تعددية الأصوات الروائية»، وقرأ بعضهم فيها تقنية «حكاية في حكاية»، إذ كل صوت يسرد حكايته وهو يسرد حكاية آخرى، وتوقف بعض أمام مجاز السفينة الذي يختصر العالم كله في ركاب لهم جنسيات مختلفة. مع أن في رواية جبرا ما يحيل على هذا كله، إضافة إلى تقنية رواية وليم فوكنر «الصخب والعنف»، التي ترجمها الروائي الفلسطيني وتأثر بها، فإن قيمتها تقوم في بصيرتها، التي استشرفت «الرعب القادم»، قبل قدومه.

٥. حلم البطل الذي لا يخذل الأحلام:

قاد تصوّر المثقف الرومانسي إلى نص منقسم، يعالج جزؤه الأول واقعاً معيشاً يعلوه الغبار، وينصرف الثاني إلى توصيف مثقف متعال، له عالم مفارق. ظهر هذا في روايتي جبرا، الأولى والثانية، وتراجع في «السفينة» حيث المؤلف أراد رواية، وثيقة، سرد فيها سير مثقفين لهم «بطولة عادية». عاد الروائي إلى مثقفه الأثير في «البحث عن وليد مسعود» ١٩٧٨، الذي هو صورة ذهنية عن الفلسطيني، كما يجب أن يكون، وعن «السوبرمان الرومانسي»، الذي «ترفعه صفاته الفائقة إلى علو يرفعه إلى السماء». (٢٥)

يقول الشاعر الرومانسي جون كيتس: «كل شيء يعلن الخيال بأنه جميل فهو حقيقة، وجد من قبل أم لم يوجد... وأشبه شيء بالخيال حلم آدم إذ أفاق فوجد حلمه حقيقة واقعة»(٢٦). أخذ جبرا بقول الشاعر وتخيّل فلسطينياً مرغوباً، له من الجمال والثقافة والإبداع ما لا يحاكى، مؤمناً بوحدة الخيال والحقيقة، وبأن ما ينسبه الخيال «الخلاّق» إلى الفلسطيني يتجسّد حقيقة. لا غرابة في أن يتمتع «وليد مسعود» بالصفات التالية: «أصالته في دخيلة ذهنه، في خلايا دماغه، كأنه وهج حديد مصهور في بوتقة ذكاء ونفاذ وبصيرة واتزان، رجل عبر الماء ولم يغرق، عبر النار ولم يحترق...»(٢٧).

تكتفي الصفات التي صنع الروائي بطله منها، بمراجع الكتابة الداخلية، ولا تلتفت إلى ما خارج الكتابة، مساوية، ضمناً، بين البطل الذهني وبين صورة القدس المقدسة، أو بينه وبين القداسة الغامضة التي تحوّم فوق فلسطين. ترفع هذه الصفات المنظور الرومانسي إلى حدوده العليا، وتحتفي بقوة الخيال التي تستولد من الواقع ما تشاء. يلبي هذا الخيال، بداهة، أشواق مثقف فلسطيني يحنّ إلى أرضه المغتصبة، ولا يرى السبل «الواقعية» التي تفضي إليها، ويوكل إلى الخيال واجب استعادتها، مؤكدين فكرتين : الخيال قوة خلاّقة فاعلة، والمستقبل يحقق ما يعد به الخيال.

آمن جبرا بقوة الثقافة والخيال، وفصلهما عن الواقع فصلاً كاملاً، معتبراً أن في إمكانياتهما ما يفوق إمكانيات الواقع المعيش وما يعيد خلقه وتشكيله. لم يكن هذا الإيمان منعزلاً عن أسطورة «الإنسان الأعلى، الذي تحتاجه فلسطين، التي انتمى إليها جبرا وكتب عن بطلها «الموعود»، وألغى المسافة بين البطل الروائي وبين خالقه، مؤكداً المثقف بطلاً، داخل الكتابة وخارجها. وهذا الانتماء الصوفي إلى فلسطين، هو الذي أملى على الروائي أن يصوغ فلسطينياً ضمان انتصاره في داخله، ولا يحتاج إلى ظهير خارجي. غير أن جبرا، الذي واءم بين الرومانسية وبين عشقه الفلسطيني، بالغ في «بناء الضمان»، حتى بدا أن الانتصار ينتظر الفلسطيني، قبل أن يذهب إلى المعركة (٢٨).

جمع جبرا بين الحداثة والصوفية، وبين القدس وبغداد، وبين الثقافة والميتافيزيقا، محاولاً أن ينتج قولاً روائياً يتداخل فيه التحريض وهندسة العلاقات الجمالية. ومع أن في رواية «البحث عن وليد مسعود» ما يحتاج إلى دراسة جديرة بجمالياتها، فالسؤال الأكبر الصادر عنها هو : لماذا يقاتل الفلسطيني إنْ كانت فلسطينيته ضمان انتصاره؟ ولماذا خسر أرضه إن كان تجسيداً لكل ما هو خيّر وجميل؟ أراد جبرا، ربما، أن ينتج نصاً تحريضياً، يكشف للفلسطيني «إمكانياته الضرورية الخارقة»، وقولاً تعويضياً يخبر المغلوبين أنهم قادرون على الانتصار، وأراد أيضاً أن يمجّد الإنسان، الذي يليق بالحياة وتليق به الحياة. والمحصلة كتابة نوعية، توحّد بين سيرة القدس وبين سيرة فلسطيني مات خارجها، ودعوة طليقة إلى الأمل، الذي يتطلع إليه مغلوبون خابت آمالهم، وروايات ـ ذاكرة، تحتفظ بأطياف فلسطين، كما كانت قبل اغتصابها، وبأطياف فلسطينيين، طردوا من أرضهم، وجعلوا من فلسطين فكرة لا تعرف الأفول.

المراجع

١. يمكن الرجوع إلى كتاب: عبد الرحمن منيف (اعداد وتقديم)، القلق وتمجيد الحياة، بيروت كتاب تكريم جبرا إبراهيم جبرا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٥.

٢. Manfred Frank: le dieu a venire، actes Sud، paris، ١٩٩٠، p.p:١١ – ٢٦.

٣. جبرا ابراهيم جبرا صراخ في ليل طويل، بيروت: دار الآداب، ١٩٧٩.

٤. في ما يخص المزاج الرومانسي يمكن الرجوع إلى: Mario praz: The romantic agony، oxford university press، ١٩٧٩.

٥. جبرا إبراهيم جبرا: الفن والحلم والفعل، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، طبعة أولى، ١٩٩٢، ص: ٢٣، بتصرّف.

٦. انظر حوار، العدد ٢٣، السنة الرابعة، تموز، آب ١٩٦٦.

٧. فيصل درّاج : ذاكرة المغلوبين، بيروت: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٢، ص ١١٧- ١٣٨.

٨. جبرا إبراهيم جبرا : صيادون في شارع ضيق، بيروت: دار الآداب، ١٩٧٤.

٩. المصدر ذاته، ص ١٣.

١٠. انظر جبرا إبراهيم جبرا: الحرية والطوفان، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٩، ص ١٤٣.

١١. جبرا، صيادون في شارع ضيق مصدر سبق ذكره، ص ١٤.

١٢. المصدر ذاته، ص ٢٠٤.

١٣. جبرا إبراهيم جبرا: ينابيع الرؤيا، بيروت المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٨، ص ٧١.

١٤. جبرا، صيادون في شارع ضيق، ص ٤٣.

١٥. انظر روبرت بارت: الخيال الرمزي، بيروت: معهد الإنماء العربي، ١٩٩٢، ص ٧١.

١٦.شؤون فلسطينية، العدد: ٧٧، ص ١٧٨.

١٧. جبرا إبراهيم جبرا: شارع الأميرات، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٤، ص ١٠٩.

١٨. شؤون فلسطينية، مرجع سبق ذكره، ص ١٨٩.

١٩. إدوارد سعيد: تأملات حول المنفى، بيروت: دار الآداب، ٢٠٠٧، ص ٦٢.

٢٠. المصدر ذاته، ص ٦١.

٢١. المصدر ذاته، ص ٦١.

٢٢. جبرا، شارع الأميرات، مرجع سبق ذكره.

٢٣. جبرا إبراهيم جبرا: السفينة، بيروت: دار الآداب، الطبعة الخامسة، ٢٠٠٨.

٢٤. انظر دراسة د. أحمد الزعبي في «القلق وتمجيد الحياة، مرجع سبق ذكره.

25. Umberto eco: art et beaute dans l›esthetique medievale، Grasset. Paris، 1997، p. 37.

26. Umberto Eco: de Superman au surhomme، Grasset، Paris، 1993، p:7

٢٧. جبرا، الحرية والطوفان، مرجع سبق ذكره، ص ٨٤.

٢٨. جبرا ابراهيم جبرا البحث عن وليد مسعود، بيروت: دار الآداب، ١٩٨٧.

جمال أبو حمدان في روايته الموت الجميل
قراءة في موتيف الحب والموت

إبراهيم أبو هشهش

١ – عتبة النص:

يدلف القارئ إلى عالم رواية (الموت الجميل) (١) لجمال أبو حمدان عبر ثلاث درجات متتالية هي العنوان والإهداء والشواهد أو الاقتباسات الاستهلالية التي صدرت بها الرواية وأثبتت على صفحة الغلاف الخلفية، وهذه الدرجات الثلاث هي موازيات نصيّة (Paratext)، والموازي النصي من مصطلحات ما بعد البنيوية ويقصد به النص الذي لا ينتمي مباشرة إلى العمل الأدبي، مثل صفحة الغلاف، والشعار (Motto)، أو الاقتباس الاستهلالي، والتقديم واسم المؤلف، والعنوان، ولكنه في الوقت نفسه ذو علاقة مع النص لأنه يؤثر في استقبال العمل الأدبي أو النص بشكل ما من دون أن يعي القارئ ذلك دائماً، ومن ذلك على سبيل المثال نوع المقدمة وشمولها، أو المعلومات التي تقدم للقارئ، وحوارية النص .. الخ وانطلاقاً من ذلك فإن تحليل الخطاب لا يقتصر على عمل واحد فقط، بل يتعدّاه إلى سياقات أخرى متعلقة به أي ما يعرف بالتناص (Intertextuality)(٢) .

وسوف يتم فيما يلي تناول هذه الموازيات النصية حسب تسلسلها وتتبّع علاقاتها النصية مع متن الرواية أو مع سياقات من خارجها لا تلبث أن تعود لتتصل بالرواية من زاوية أو أخرى .

١,١:العنوان:

إذا اعتبرنا أن العنوان مفتتح للنص ومؤسس لنقطة الانطلاق فيه في استهدافه إلى تبئير انتباه المتلقي بصفته تسمية مصاحبة للعمل الأدبي ومؤشرة عليه(٣) فإن عنوان الرواية يرفع إلى الواجهة الأمامية النواة التي تدور الرواية حولها، لأنه يشكل هنا قيمة دلالية كبرى عند الدارس

باعتباره واجهة النص الإعلامية التي تمارس على المتلقي إكراها أدبياً يؤشر على معنى ما، فضلاً عن كونه وسيلة للكشف عن طبيعة النص والإسهام في فك غموضه، فهو يظهر معنى النص ومعنى الأشياء المحيطة به، لأنه يلخص معنى المكتوب من ناحية ويكون بارقة تحيل خارج النص من ناحية أخرى، وكأن المؤلف يحاول أن يثبت فيه قصده برمته، ولذلك يعتبر النواة المتحركة التي يخيط عليها المؤلف نسيج النص(٤)، وحسب الدكتور صلاح فضل فإن العنوان مسألة ذات أهمية بارزة تتصل بتحديد النص الأدبي، فعن طريق العنوان تتجلى مجموعة من الدلالات الأساسية للنصّ الأدبي مما يجعلنا نسند للعنوان دور العنصر الموسوم سيميولوجياً في النص، بل ربما كان أكثر العناصر وسماً (٥).

وارتباط الموت بالجمال في عنوان الرواية يحيل مباشرة إلى واحد من أبرز تجليات موتيف الحب والموت (Liebestod) فقد برزت صلة الموت بالجمال منذ أقدم العصور وخاصة في الشعر، ولكنها وصلت مداها لدى الشعراء الرومانسيين بشكل خاص، وحسب ماريو براز (Mario Praz) في كتابه "Liebe ,Tod und Teufel: die schwarze Romantik"(الحب، والموت، والشيطان: الرومانتيكية السوداء) فإن هاتين القوتين، أي الجمال والموت، كانتا مرتبطتين على نحو عميق في وعي الرومانتيكيين حتى كأنهما انصهرتا في كينونة ذات طبيعة ثنائية من الجمال المشؤوم الذي يودي إلى التهلكة، حيث تتجاور الكآبة والرغبة في جوهر واحد (٦).

وعلى سبيل التمثيل على ذلك فقط نستشهد بمقطوعة من قصيدة كتبها هوغو (Hugo) عام ١٨٧١ يتجلى فيها هذا الارتباط الغامض بين الموت والجمال:

الموت والجمال أمران ساميان

يحتوي كل منهما على كثير من الضوء والظل في آن معاً

حتى ليكاد المرء أن يعتبرهما شقيقين

الخوف نفسه، والرعب نفسه

فهما ممتلئان بالغموض ذاته، والأسرار ذاتها (٧).

١,٢: الإهـــداء :

يهدي الكاتب عمله هذا إلى " رساس " القرية التي لم يعش فيها فعاشت فيه . وهو إهداء بالغ الأهمية في تعيين المكان أي القرية التي دارت فيها وقائع الرواية، وتزداد أهمية هذا الإهداء من خلال ربطه بالترجمة الموجزة للكاتب في الصفحة السابقة التي تقرر ولادة جمال أبو حمدان في

قرية رساس، وذلك لأنها تعمل على إزالة القناع الدرامي الرقيق بين شخصية الكاتب وشخصية سارد الحكاية الإطار وكاتب الأوراق في الحكاية المتضمنة، وخاصة إذا تذكرنا دائماً أن جمال أبو حمدان هو كاتب المطلق، فهناك دائماً في أعماله إنسان، أو رجل، أو أمرأة، أو قرية، أو موت، دون تعيين ؛ فهو لا يرتبط بالتفاصيل التي تعينها الأسماء بقدر ما يلتصق بالجوهر الذي يتضمنه المطلق (٨).

١,٣: الاقتباسات الاستهلالية:

الاقتباس الاستهلالي (Epigraphy) أو الشعار(Motto) جملة أو عبارة قصيرة في صدر كتاب أو في رأس فصل منه ذات صلة بموضوعه، وغالبا ما يقدم هذا الاقتباس أو الشعار العمل برمته، وعادة ما يمارس علاقة دلالية تبادلية مع النص بحيث يكتسب الخطاب الأدبي المتضمن في العمل دلالات جديدة أو محددة من خلال هذا الشعار، وفي الوقت نفسه يتحدد استقبال الشعار ودلالاتـه من خلال قراءة النص الأدبي، مما يعمق دلالة النص أو يركزها أو يجعلهـا تأخذ منحى معيناً، ولذلك كان لهذا الشعار أهمية كبيرة في تحليل الأعمال الأدبية (٩).

وقد أثبت الكاتب في مقدمة الرواية كما على صفحة غلافها الأخير سبع عبارات منصصة بعضها مقتبس من الرواية نفسها، وبعضها الآخر مـن خارجهـا، وجميعهـا تدور - بشكل رمزي أو مباشر – حول الحمل العضوي للموت أو ما يعرف بالموت الحال،

أو حول ارتباط الموت بالجمال، وهي على النحو التالي:

١." الموت عكازة الحياة " جدّي .

٢." الحياة عكازة الموت" هو .. الغريب .

٣." النهار ظلّ الليل " محي الدين بن عربي .

٤." الليل شمعة النهار " هي . . الغريبة .

٥." حيف يا فنجان صيني يكسرك فنجان طيني " من الندب على الميت .

٦.ما نحن إلاّ القشرة والورقة

والموت الكبير الذي يحمله كل واحد منا

هو الثمرة التي يدور حولها كل شي " راينر ماريا ريلكه .

٧. " بحثت في ميراث الذين ارتحلوا، فما وجدت في أكفانهم الناصعة البياض

إلا قصائد ممزقة عن الموت الجميل " جمال أبو حمدان

وهذه الشعارات أو الاقتباسات أعطاها المؤلف اسم " شواهد "، وهي كلمة ملتبسة الدلالة بشكل مقصود لتوحي في بعض معانيها بشاهدة القبر وما ينقش عليها من عبارة موجزة تكثف معنى عميقاً في شهادة الموت على الحياة أو الحياة على الموت، لوقوفها على هذا البرزخ الفاصل بينهما .

ومن هذه الشواهد السبعة يعود ثلاثة إلى شخوص الرواية نفسها وهي الأول والثاني والرابع، بينما نجد الشاهد الأخير ممهوراً باسم " جمال أبو حمدان " وهو تعيين آخر يؤكد ما ذهبنا إليه في حديثنا عن وظيفة الإهداء في إزالة القناع الرقيق بين السارد الضمني والسارد الحقيقي أو المؤلف الصريح الذي أثبت اسمه على غلاف الرواية.

ولو توقفنا عند دلالات هذه الشواهد، ولو بسرعة، فإننا سنلاحظ تمركز الدلالات فيها حول حلول الموت في الحياة أو ما يعرف بالحمل العضوي للموت، وخاصة إذا أجرينا الربط بين بعض هذه الشواهد وبين مواقف معينة في سياقات السرد الروائي، من جهة، وتناصاتها الخارجية في بعضها الآخر، من الجهة الثانية .

فعلى سبيل المثال تتقابل الدلالة في حلول الموت في الحياة أو الحياة في الموت في الشاهدين الأول والثاني: " الموت عكازة الحياة " و " الحياة عكازة الموت " مثلما يبدو أن الشاهدين الثالث والرابع " النهار ظل الليل " و " الليل شمعة النهار" تنويع رمزي أو استعاري على هذا التقابل، فكأن الحياة تتوكأ على الموت وصولاً إلى نهايتها الحتمية أو العكس، في إشارة إلى زمن يسير بشكل لا يرد نحو موت محتوم هو صورة أخرى للحياة، أو مثلما أن الحياة هي وجه آخر للموت في الوقت نفسه. وهذه الاقتباسات أو الشعارات لم تقتصر وظيفتها فقط على تصدير الكتاب لكي تسهم في توجيه الاستقبال وإضاءة الدلالة من الخارج ومن الوهلة الأولى التي تقع عليها عين المتلقي – بل تجاوزت ذلك لتصبح جزءاً من المتن الروائي، كما في قول ابن عربي " النهار ظل الليل " الذي قوبل بقول الغريبة " الليل ظل النهار " فقد احتلا مقطعا كاملاً في المتن الروائي الذي قسم إلى عشرات المقاطع ذات العنوانات المنفصلة والمتكررة أحياناً وفق استراتيجية سردية محكمة . وجاء ذلك تحت عنوان " الليل والنهار " (ص ٥٤ – ٥٥) ثم استطرد السرد في تأمل قول ابن عربي في المقطع المعنون بـ " الظل " (ص ٥٥ – ٥٧) مما يعطي امتداداً وظيفياً لهذا الشعار بعد أن يصبح جزءاً من مقولة الرواية من خلال تأمل السارد في فحواه وفي وجوهه المختلفة التي هي بشكل أو بآخر زوايا النظر التي يرى منها الكاتب / السارد هذا المعنى الملتبس في حلول الموت في الحياة .

وهذا الموت الحال يدفعنا إلى التوقف بشكل أكثر ترويا عند أبيات ريلكه (R.M.Rilke) (١٨٧٥ -١٩٢٦) التي اقتبسها الكاتب في صدر روايته، ويتجلى فيها بشكل واضح ما يعرف بالحمل

العضوي للموت، أي تضمن الحياة للموت في ذاتها منذ البداية:

" ما نحن إلا القشرة والورقة

والموت الكبير الذي يحمله كل واحد منا

هو الثمرة التي يدور حولها كل شيء ."

وهذا الوعي بالموت المتضمن في الحياة أساسه وعي لزمن لا يرد يسير حتماً نحو موت لا مفر منه، وهذا يجعل توقع الموت يدخل في حياة الإنسان كجزء لا يتجزأ ولا يقتلع منها، ويرتبط ارتباطاً وثيقاً بموت حالٍ يحمله الإنسان معه ويولد مع الحياة، وفي الوقت نفسه يكسب الحياة شكلها بوضع حد لها في النهاية، فوعي الموت هو الذي يقوي بدوره رغبة الإنسان في معرفة العالم في وقت واحد، وهذا الوعي الحديث يختلف عن الأفكار الدينية التي ترى أن الحياة تمتد بعد الموت، ومثل هذا الوعي هو ما ألحّ عليه الفكر الحديث(١٠) . وهو ملخص أشد التلخيص في قولـة مارتن هايدغر (Martin Heidegger) (١١) (١٨٨٩-١٩٧٦) الشهيرة " حالما يولد الإنسان يكون قد أصبح ناضجاً للموت " وهي فكرة تكررت بصورة متنوعةً في أدب ريلكه الذي عرف الموت غياباً للأبـد، وهـذا الغياب يربـك حيـاة الأحياء الباقين (١٢)، وقد ظهرت هذه الفكرة بتنوعات متعددة وخاصة في قصائده الشهيرة المعـروفة بمراثـي دوينو "Duineser Elegien " (١٩٢٢) (١٣) وفـي عمله شبه الروائي " مذكرات مالته لوريدز بريغه "(Die Aufzeichnungen des Malte Laurids Brigge) التي منها على سبيل المثال هذا الاقتباس عن فاكهة الحياة التي تحمل في داخلها بذرة الموت:

"فيما مضى كان المرء يعرف (أو ربمّا كان قلبه يحدّثه بذلك) بأنه يحمل الموت في داخله مثلما تحمل الثمرة البذرة . الأطفال يحملون موتاً صغيراً في ذواتهم، والنساء يحملنه في أحضانهن، أما الرجال فيحملونه في صدورهم ." (١٤)

وأما فكرة الموت الذي يولد مع الحياة فقد عبّر عنها ريلكه تعبيراً موحياً في روايته

هذه عندما قال:

"وما الذي يمنح النساء ذلك الجمال الحنون عندما يكن حوامل ويقفن بينما في بطونهن المتكورة التي تظل اليدان تستلقيـان عليها بحركة غير إرادية تنمو ثمرتان في آن معاً: طفل وموت . أليست هذه الابتسامـة الكثيفـة والبلهـاء إلـى حـدّ مـا التي تحتل كامل مساحة وجوههن الفارغة – آتية من أنهن – أحياناً – يرغبن في الاثنين معاً ."(١٥)

والمقطوعة التي اقتبسها جمال أبو حمدان هي جزء من قصيدة طويلة بعنوان " كتاب الفقر

والموت " (Das Buch von der Armut und vom Tode) يدعو فيها الشاعـر (ريلكـه) الله أن يهبه موتاً خاصاً من النوع الذي ينبثق من كل حياة عرفت الحب والمعنـى والعناء، لأن الناس ليسـوا سوى الأوراق أو القشــرة التـي تحتــوي الثمرة الحقيقية – الموت - والتي يحملها كل إنسان داخل نفسه:

"يا رب هب لكل امرئ موته الخاص

ذلك الموت الذي ينبعث من كل حياة

المتضمن للحب والمعنى والعناء

فما نحن سوى القشرة والورقة

أما الموت الكبير الذي يحمله كل واحد في داخله

فهو الثمرة التي يحوم الجميع حولها " (١٦).

إنهـا فكــرة الإنسـان الـذي ينضج رويـداً رويـداً لموت متضمـن كما عبر هايدغر (Heidegger)، ولكن ريلكه هنا لا يقابلها بأي شعور من المرارة والخوف، بل برضى صوفي، لأن هذا الموت الخاص الكبير يأتي تتويجاً لحياة خاصة امتلأت بنفسها وبالموت في الوقت نفسه، وهي فكرة تكررت لدى ريلكه في عمله شبه الروائي (مذكرات مالته لوريدز بريغه)، عندما قال:

" الرغبة في أن يحصل المرء على موته الخاص تصبح أكثر ندرة باستمرار، فترة قصيرة أخرى أيضاً وسوف تغدو نادرة تماماً ندرة الحياة الخاصة . يا إلهي . إن كل شيء موجود هنا . يأتي المرء، فيجد أمامه حياة، انتهى، على المرء فقط أن يرتديها .

يريد المرء أن يمضي أو أنه مدفوع لذلك دفعاً لا داعي لأن تجهد نفسك: (هذا هو موتكم يا سيدي)* يموت المرء، وكأن الأمر يأتي للتو، إن المرء يموت الميتة الخاصة بالمرض الذي يحمله، فمنذ أن صار الإنسان يعرف جميع الأمراض، بات أيضاً يعرف التتمات المميتة التي تخص المرض وليس الإنسان . أما المريض، - مثلما يمكن القول – فليس عليه أن يفعل أي شيء ." (١٧)

إن هـذه الجبرية المرعبة في الحياة والموت التي عبرت عنها الفقرة السابقة هذا التعبير المدهش هي ما كان يدفع ريلكه دائماً لأن يتمنى الحصول على موته الخاص؛ لأنه كان يرغب في أن يحيا حياة خاصة، ولذلك كان يتحدث عن الموت الكبير الذي يتـوج حياة كبيرة، لأن في مقابل ذلك هناك أيضاً موتاً صغيراً فجاً لا يكتمل لينضج كما ينبغي:

* الجملة في الأصل بالفرنسية .

" ذلك هو الموت الحقيقي، لا ذلك الذي

تحياته قد أصابتهم في طفولتهم بمعجزة

الموت الصغير كما ينبغي أن يفهم

الذي يتدلى في دواخلهم أخضر

مثل ثمرة فجة لا حلاوة فيها ولم تنضج بعد " (١٨)

وقد كان الموت لدى ريلكه مرتبطاً بالحب، وهو يرى أن خوفنا من الموت ناجم من أننا أخرجنا من وجودنا شيئاً أساسياً يخصه، ولا يمكن التغلب على هذا القلق إلاّ بمعاودة التأمل في الموت والحياة، ولهذا السبب فقد أثنى ريلكه على كبار العاشقين لأنهم ممتلئون بالموت إذ هم ممتلئون بالحياة (١٩).

إن هذا الاستطراد حول الاقتباس الاستهلالي من ريلكه في مقدمة رواية (الموت الجميل) له أهمية خاصة في الكشف عن معنى الموت في تفاعله مع عالم رواية جمال أبو حمدان وشخوصها ورؤيتها الكلية، وهو استطراد ليس مقصوداً في ذاته وإنما محاولة للقبض على المعنى الدال الذي يقودنا إلى استقبال رؤية الرواية على النحو الأفضل، وسوف تتضح أهمية هذا الاستطراد لاحقا في إضاءة مفهوم الموت في الرواية . أما الأسئلة التي

ينبغي أن نطرحها هاهنا فينبغي أن لا تتمحور فقط حول معنى الموت في رواية جمال أبو حمدان في ذاته أو في ارتباطه بالحب فقط، وإنما يجب أن نحاول أيضاً تلمس أثر ذلك على بنية الرواية نفسها ومعرفة الأدوات التي استخدمها الكاتب للتعبير عن تجربة الموت التي لا يمكن نقلها للآخرين .

٢ : البنية الروائية:

تقدم الرواية عالمها أمكنة وشخوصاً وأحداثاً تحت سبعة وخمسين عنواناً فرعياً تتوزع في أربعة أقسام أو فصول لم تسمّ ولم ترقم، ولكنها فصلت بفراغ أو بياض . وعشرة من هذه العنوانات التي تستغرق الفصل الأول تتكرر في الفصل الثالث، ولكن بترتيب معكوس، مما يجعل الرواية تستدير على ذاتها في بنية دائرية تنتهي من حيث بدأت، بعد أن تكون قد بلغت ذروتها، وقدمت رؤيتها .

ويمكن حصر أغلب هذه العنوانات الفرعية من النظرة الأولى في أربعة حقول دلالية أساسية، هي:

- الضوء والعتمة: السراج، القنديل، العينان، النيون، العتمة، الليل والنهار، الظل، الشمعة، الانطفاء .

- الموت واستعاراته: الذبيحة، الدم، القبر، الموت، الجنازة، التابوت، الرصاصة، البندقية .

- معالم طبوغرافية ومكانية: البوابة، البئر، القرية (باعتبار تضاريسها)، الحجارة، الدار، الحائط، الخرابة، الباب، الدرب .

- أشخاص: الغريب، القرية (باعتبار ساكنيها)، وطفا النعمان، جدّي .

وهذه العنوانات الفرعية وإن كانت – شأنها في ذلك شأن العنوان الرئيسي – تعطي ومضات دلالية سريعة، إلاّ أنها لا تأخذ دلالاتها الأساسية إلاّ من خلال تموضعها في السرد الروائي، ومن خلال ارتباطها بشخوص الرواية وأحداثها وأمكنتها ورؤيتها الكلية، ففي حين يبدو " السراج " – على سبيل المثال – مرادفاً " للقنديل "، وهما بدورهما يشابهان " النيون " باعتبارها جميعاً آلات للإضاءة، فإننا سنرى أن النيون ينهض في سياق الرواية مناقضاً دلالياً ونفسياً للقنديل، ولذلك فلا بدّ من النظر في وظيفة هذه العنوانات ودلالاتها من خلال سياق المعنى أو المعاني التي تتخذها في الرواية، مع التركيز في أثناء ذلك على ثيمة الموت بشكل عام، وموتيف الحب والموت بشكل خاص .

ومن ناحية أخرى، يمكن اعتبار هذه العنوانات موتيفات (Motifs) أي وحدات غرضية صغرى يستحيل تفكيكها في النص السردي (٢٠)، وهي من هذه الناحية تشكل المتن الحكائي الذي هو مجموع هذه الموتيفات المتتابعة تتابعاً زمنياً وحسب النتيجة والسبب، أي مجموعة الأحداث المتصلة فيما بينهما والتي يجري إخبارنا بها من خلال العمل (٢١)، وهذا الترتيب الخاص للموتيفات أو العنوانات السبعة والخمسين التي قامت عليها الرواية بحسب التتابع الذي جرى التزامه وما يتبع ذلك من معلومات تقدم للقارئ تدريجياً، هو ما يشكل المبنى الحكائي، بمعنى أنه الطريقة الخاصة التي اتبعها الكاتب / السارد في عرض الأحداث، والطريقة التي يتعرف بها القارئ على هذه الأحداث (٢٢)، وفي الوقت نفسه، فإن اصطفاف هذه العنوانات أو الموتيفات بالنحو الذي جاءت عليه يخدم بنية الحكاية الإطار والحكاية المتضمنة اللتين تشكلان معاً المتن الروائي، وهما حكايتان تتداخلان كثيراً في شخوصهما وأحداثهما وأمكنتهما، ولكن شخصية السارد في كل من الحكايتين، تقوم بدور الخيط الذي يسمح بالاسترشاد بين ركام الموتيفات، وبدور وسيلة مساعدة في تصنيف الأحداث وتنظيمها (٢٣)، فالسارد الذي يقدّم الحكاية الإطار يعثر على أوراق " الغريب " الذي هو بدوره سارد الحكاية المتضمنة وبطلها، ثم يتضافر الصوتان في تتابع متقن يتقدم بالمبنى الحكائي للرواية في سلسلة متصلة من الأحداث يأخذ بعضها برقاب بعض في نظام سردي خاص سمّاه الدكتور طراد الكبيسي " نظام التقفية " أو " السلسلة " (٢٤)، إذ تبدأ الحكاية الثانية من الكلمة الأخيرة التي انتهت بها الحكاية الأولى، وهكذا .. وهو نظام لم يكن غريباً على السرد العربي القديم كما هو معروف، وهذه الكلمة الأخيرة هي التي تعطي للجزء الذي يليها عنوانه دائماً، وعلى هذا النحو تتقدم الرواية في مستويين من السرد، هما مستوى سارد الحكاية الإطار، ومستوى

سارد الحكاية المتضمنة أي كاتب المذكرات أو صاحب الأوراق . وقد ميّز (الكاتب) بين هذين المستويين من خلال تقديم صوت صاحب الأوراق بالحرف الغامق، وهو تمييز ضروري إلى حدّ ما في هذه الرواية لتشابه الخطاب في كلا المستويين من جهة، ورقة القناع الذي يجعله الكاتب بينه وبين السارد صاحب الأوراق من جهة أخرى، إضافة إلى ما في هذا البعد الطباعي من دلالة سردية موحية تتمثل في الانطباع الذي يعطيه للقارئ بأنه يقرأ فعلاً في أوراق مكتوبة بالحبر، في حين يوحي صوت السارد المطبوع بالخط الفاتح أنه كلام يلقى شفاها ويستمع إليه المتلقي من سارد الحكاية الإطار، هذا بالرغم مما في التشابه بين الصوتين من قصدية تهدف في نهاية الأمر إلى أن يدمج المتلقي بينهما في صوت واحد، فالصوتان يتداخلان وينصهران في رؤى ومواقف متماثلة أو متطابقة .

وسارد الحكاية الإطار سارد درامي غير عليم لا يعرف من الحقائق والمعلومات إلاّ بالقدر نفسه، وفي الوقت ذاته مع القارئ، ويظهر منذ البداية ميالاً للعزلة والتأمل يلجأ إلى الخلاء والخرابات المهجورة للاستغراق في تأملاته أو باحثاً عن حقائق لا يجدها في مخالطة الناس والسعي في الأسواق، وقد ظلّ هكذا حتى عثر على أوراق الغريب التي كشفت له كثيراً من الألغاز، وأمدّته بإجابات عن الأسئلة التي أرقته، فهو من هذه الناحية يستعيد – ولو من بعيد – سيرة الأنبياء والقديسين الذين يهيمون في الخلاء أو ينعزلون في مغائر أو صوامع بعيدة حتى يتوصلوا إلى الهداية أو يوحي إليهم، أو تتنزل عليهم كتب من السماء، بل إنه يوحي بمثل هذا الانطباع من خلال وصف نفسه بلغة مستعارة من الأسلوب القرآني ومفرداته:

"لم أكن طفلاً شقياً، ولا كنت عصياً .. بل كنت أطيع والديّ، فأبرهما، وأحسن إليهما، ولا أقول لهما أفٍ، ولا أنهرهما، بل أقول لهما قولاً كريماً ." (الرواية ص ١٤).

وكانت خرابة ولي مهجورة يضيئها سراج يحرص القرويون دائماً على مدّه بالزيت ليظلّ مشتعلاً باستمرار هي مكانه الأثير، ومنها كان يخرج إلى الدرب الذي ينتهي بشجرة الزيتون " المباركة " ويقود إلى القرية ثم إلى بوابة دارهم التي طبعت عليها فور بنائها يد غمست بدم ذبيحة أولم بها أصحاب الدار احتفاء ببناء البوابة . والدم أيضاً هو الذي يقوده إلى البئر القديمة على أطراف الخلاء حيث تستلقي جثة رجل وهي تنظر إلى فوق، فيخبر أهل القرية فيأتون ويخرجون الرجل الميت الذي يعرفونه جميعاً ما عدا السارد، ولكنهم يتواطؤون على تسميته بـ " الغريب " ثم يدفنونه في قبر منفرد بالقرب من البئر، وفي أثناء ذلك يعثر السارد على الأوراق التي تركها الغريب مخبأة تحت حجر بحيث تظهر جزئياً، وهي الأوراق المحتوية على الحكاية المتضمنة التي ستبدأ من الآن فصاعداً عبر المذكرات التي تركها الغريب، وتحتل مساحة واسعة من الرواية تستغرق القسم الثالث (ص ص ٢٣ – ١١٢)، ولكن صوت الغريب المطبوع بالحرف الغامق لا ينفرد بالسرد،

بل يتضافر ويتداخل – كما سبقت الإشارة – مع صوت سارد الحكاية الإطار، وهكذا تبدأ الحكاية الأساسية، حكاية الحب والموت – بالتكون والنمو .

٣ . الحكاية المتضمنة: الحب والموت:

إذا كان وقوع الموت متمثلاً في حادثة موت الغريب هو الذي فجّر سؤال سارد الحكاية الإطار " إحكِ لي عن الموت يا جدي " (الرواية ص ٢٣) وجواب الجد: " الموت عكازة الحياة " (ص ٢٣) . ثم قاد خطواته وبحثه فيما بعد، فإن هذا الوعي نفسه أيضاً هو الذي يرسم حركة الحكاية المتضمنة ويتحكم في إيقاعها، بل إن العنوان الأول في القسم الثاني من الرواية هو كلمة " الموت " أي الموت الذي أحضره الغريب إلى القرية:

" .. لأول مرة لم يأت الموت إلينا ليصطحب أليفاً من قريتنا، بل أحضره إلى القرية غريب عابر لها. " (الرواية ص ٢٤) وكانت أول جملة يقرؤها السارد في أوراق الغريب هـي " الحياة عكازة الموت." (الرواية ص ٢٤) التي تذكره بقول جده الآنف الذكر، ثم يقرأ بعد ذلك في الأوراق بخط الغريب:

" الحياة عاجزة، والموت قادر، الحياة ناقصة وتسعى إلى التكامل، والموت تام وكامل بذاته." (الرواية ص ٢٤ – ٢٥)، بل إن هذا الغريب جاء أساساً إلى القرية ليموت فيها: " أخاف أن أظل غريباً في الموت، مثلما كنت غريباً في الحياة، ولهذا سأذهب إلى القرية لأموت." (الرواية ص ٢٥).

وإذا كانت هذه الجملة تشكل القرار الذي سيختتم حياة الغريب، فإن المواجهة مع موت الآخر في البداية هي التي حوّلت مجرى حياته فجأة، وكانت بشكل أو بآخر سبباً في أن يخوض قصة الحب تلك التي انتهت على نحو فاجع يكرر النهايات المأساوية لقصص العشاق في الأدب العربي القديم .

فعندما كان يدرس الحقوق في المدينة ويسكن في بيت امرأة وحيدة، وفي اللحظة التي كانت هذه المرأة تتهيأ لعلاقة جسدية معه – مرت في الشارع أمام الشرفة التي كان يقف عليها جنازة مهيبة لميت شاب، وهكذا جرت المواجهة الأولى مع موت الآخر في حضور المرأة التي تجسّدت في صورتين متقابلتين: المرأة المحبطة التي تتهيأ في الداخل لممارسة الغرام، والفتاة التي تقف إلى جوار جدارٍ في الخارج، قد يكون جدار المقبرة، حيث تمرّ الجنازة "البهية" وبذلك تكتمل بشكل مكثف يكاد يكون " أليجورياً " جميع عناصر موتيف الحب والموت ؛ المرأة – الجمال – الموت:

" أذكر أنه كان هناك ميت ما، محفوفاً بجنازة ما .كان المشهد بهياً ؛ هذه المفارقة المذهلة الغريبة في تلمس البهاء في مشهد الفناء .

وعبر هذه المفارقة تمت مواجهتي الأولى مع الموت .. موت الآخر على حدّ شديد الرهافة ما بين الآخر وبين الذات . فلا يدري المرء أين ينتهي الآخر وأين تبدأ الذات . أو بالمسار العكسي أين تنتهي الذات وأين يبدأ الآخر . ثم في لحظة انبثاق المشاعر يختلط عليك الأمر، فينداح الآخر على الأنا، وتمتد الأنا وتتداخل مع الآخر .

هكذا أحسست في تلك اللحظة، حين حدّقت من علٍ في وجه الميت . كان شاباً صغير السن .. فأخذتني رعدة مباغتة ثم ارتحت إلى خاطر؛ إن الإنسان لا يموت إلاّ صغيراً .

وقد أخذني الأمر زمناً طويلاً لأدرك أنّ الموت لا يأتي الإنسان في الوقت المناسب، وأن مقدمه الجليل غير متوافق مع نهاية الحياة . فهو يأتي إمّا قبل نهاية الحياة، أو يأتي بعد نهاية الحياة . وفي الوقائع القليلة التي يتطابق فيها الأمران، نهاية الحياة وبداية الموت يبدو الوجود والعدم في حالة توازن قصوى .. لكن قلما يحدث ذلك ." (الرواية ص ٣١)

إن جنازة الشاب " البهية " هذه هي منعطف التحول في حياة سارد الحكاية المتضمنة ومفتتح قصة الحب التي قادته إلى حتفه:

" كان هناك حائط، وكانت هنالك امرأة .. وكان هنالك ميت شاب محفوفاً بجنازة بهية مهيبة ." (الرواية ص ٣٢)

فاقتران الموت بالجمال الذي ورد في عنوان الرواية يتكرر هنا في وصف جنازة الشاب، ويمتد إلى المرأة الجالسة بجوار الجدار الذي تمر الجنازة من أمامه، وهي امرأة تجلس تحت أضواء النيون فتبدو عيناها بنفسجيتين، وحالاً يجد الشاب الواقف في الشرفة نفسه مشدوداً إلى هذه الفتاة فينزل إليها، ويدرك فوراً أنه يريدها بطريقة تختلف عما يريد الآخرون منها، وسرعان ما ينتقل إلى السكن معها في غرفتها ويطلب منها أن تشاركه حياته فتحذره قائلة: " لا تخاطر بحياتك .. ألم أقل لك إن الاقتران بي اقتران بالموت .. قد يكون موتاً مؤجلاً ولكنه موت نافذ وحقيقي، قد يكون قبل الاقتران وقد يكون بعده. " (الرواية ص ٦٨)

وهي تقف من المدينة موقفاً سلبياً معادياً، وتكره أضواء النيون التي تقف تحتها مساءً انتظاراً للزبائن الذين تمنحهم جسدها لإعالة ابنتها الوحيدة من علاقة سابقة فاشلة، ولذلك تطلب منه بإلحاح أن يتركا المدينة ويذهبا للعيش في قريته، وأن يتركا كل شيء ويأخذا فقط السرير معهما:

" أكره أضواء النيون، أحلم أن أعيش في مكان لا أراها فيه، مكان يمتلئ بقناديل الزيت . هل خطر لك أن هنالك علاقة بين قنديل الزيت في لحظة اشتعاله، وبين الجسد في لحظة توقده بالحب . [...] سترى أن البرودة ليست برودته [السرير] وليست برودتي، ولكنها برودة وجفاف هذه المدينة،

سنأخذه معنا إلى القرية، وسترى أن الخطأ ليس فيّ، ولا فيه، ولكن في هذه المدينة " (الرواية ص ص ٧٨ – ٨٩) .

وهذا الموقف من المدينة بجفافها وبرودتها وأضواء نيوناتها في مقابل دفء القرية وخصوبتها وأضواء قناديلها - هو أيضاً من العناصر التي تعزز البعد الرومانتيكي في موتيف الحب والموت الذي هـو واحــد من أبرز تجليات الأدب الرومانتيكي بشكل عام.

وهكذا يعودان إلى قريته ويعيشان في بيت عائلته الخالي ويملآنه بالحبور والدفء، ويشهد السرير الذي اصطحباه من المدينة اشتعال جسديهما بالحب تحت قنديل الزيت المتقد، أما هي فتملأ القرية بحيويتها وحضورها وحبها لجميع الناس والأماكن والأشياء، ولكن أهل القرية لا يبادلونها مثل هذه المشاعر بل يقابلونها بفتور وصمت وحذر، لأنهم يعرفون عن ماضيها صدفة من تاجر عابر بالقرية، وحدها وطفا النعمان حبيبة الشاب الأولى التي قطف عذريتها تحت شجرة اللوز ثم تركها وسافر بعد أن وعدها بالعودة، تقابلها بودّ ودفء، ولكنّ الفتاة تعرف بطريق الصدفة أيضاً عن علاقة زوجها السابقة بوطفا النعمان ودلالة اللوز الذي تعاهدا تحت أشجاره، وعدم وفائه بوعده، فتدرك بذلك أن علاقتهما قد انتهت:

" أحسست بأن يدها، لأول مرة، باردة في يدي " (الرواية ص ٨٧) وتدرك في الوقت نفسه أن نهاية هذا الحب تعني أيضاً نهايتهما معاً: " لن أقول لك أنّ ما بيننا انتهى، لكنني أقول إننا انتهينا معاً " (الرواية ص ٨٨) . فيناولها البندقية التي كانت منذ زمن طويل معلقة على الجدار لتطلق عليه الرصاصة الوحيدة الموجودة في مخزنها، ولكنها ترد قائلة:

"وأنا من يريحني برصاصة مثلها، أنت أناني حتى في هذا . وضعت اصبعها على الزناد وكان السرير بيننا، وضغطت، بعد أن حرفت فوهة البندقية عن صدري إلى صدر السرير فاستقرت الرصاصة في صدره تاركة دوياً في المكان، وما إن ذاب الدويّ حتى رمت البندقية على السرير، وسمعتها: لو كانت هناك رصاصتان لفعلت غير هذا .. فلن نموت إلاّ معا ." (الرواية ص ٨٨)

وهكذا تنتهي قصة الحب على نحو رمزي بإطلاق الرصاص على السرير الذي شهد لحظات اشتعال جسديهما المشبوبين بالعاطفة تحت ضوء القنديل، وتستلقي عليه البندقية التي هي إحدى استعارات الموت في اقتران رمزي آخر بين الحب والموت .

أما الخاتمة المأساوية فهي مغادرة الفتاة وانتحارها في البئر المهجورة على طرف القرية التي يجعل منها أهل القرية قبراً لها، وهو المكان نفسه الذي اختاره العاشق صاحب الأوراق ليجتمع فيه مع حبيبته في مستقره الأخير على نحوٍ يكرر مصارع العشاق في الأدب العربي القديم الذين يخرّون في

النهاية ميتين على قبور أحبائهم (٢٥) . ولكن أهل القرية يحولون دون اجتماعهما في الموت مثلما حالوا دون ذلك في الحياة (٢٦)، ويدفنونه في قبر منفرد إلى جوار البئر.

وبذلك انتهت حكاية الحب والموت التي اجتمعت فيها بشكل نموذجي عناصر هذا الموتيف الرومانتيكي وخاصة تمجيد الموت (٢٧)، واقتران الموت بالجمال، واشتداد جذوة الحب بعد أن يتم إنهاؤه بموت أحد الطرفين قبل الطرف الآخر، فيصبح الموت في نظر هذا الطرف الآخر هو الاكتمال النهائي للحب، واللقاء الأخير به (٢٨) ؛ فقد كان هذان العاشقان مسكونين بالحب بمقدار ما هما مسكونان بالموت، بل لعلّ الصلات التي تربط كلاّ منهما بالموت، كانت أكثر وأقوى من تلك التي تربطهما بالحياة، يظهر ذلك فـي النظرات والتأملات المتعددة في الموت التي تركها " الغريب " في أوراقه، مثلما يظهر في تحذير الفتاة للشاب بأن الاقتران بها يعني اقتراناً بالموت، ولكنه يتمثل بشكل حاد في جوابها رداً على سؤاله إذا كان ذك الميت الشاب الذي تحيط به تلك الجنازة البهية يخصها، فتقول:

" كل الأموات يخصونني . الأحياء وحدهم لا يخصونني .. ولكن في لحظة الموت ينتسبون إلي وأنتسب إليهم .. لحظة الموت يقترنون بي وأقترن بهم ." (الرواية ص ٦٧)

٤. جدل الإطار والصورة: الموت العام والموت الخاص:

قد يبدو دور سارد الحكاية الإطار للوهلة الأولى مقتصراً على العثور على أوراق الغريب وقراءتها، أي القيام بدور السارد الضمني الذي يلعبه المستمع في الحكايات المبنية أساساً على وفق تقنية الحكاية الإطار والحكاية المتضمنة، مثل دور شهريار مثلاً الذي كان يستمع إلى حكايات شهرزاد في (ألف ليلة وليلة) وبذلك يكون وسيطاً بين السارد الرئيسي والقارئ (٢٩) – ولكن القراءة تكشف عن أن سارد رواية (الموت الجميل) هو سارد واحد متعدد يقود السرد وتسمح شخصيته بمظاهرها الخارجية المتنوعة بالاسترشاد بين تتالي الأحداث والذكريات والتداعيات، خاصة في مثل هذه الرواية التي قام بناؤها على التداخل في زمن الأحداث وزمن السرد، وبذلك لم تكن الحكاية المضمنة في أوراق الغريب مستقلة عن إطار الرواية العام وما يتضمن من فضاء مكاني وشخصيات، فسرعان ما يدرك القارئ أن هناك سارداً واحداً في الرواية هو نفسه السارد الرئيسي والضمني والبطل (Protagonist)، قد يكون هو (جمال أبو حمدان) نفسه ابن قرية رساس الذي درس الحقوق فـي بيروت، وهو هنا يروي جزءاً من مختزن الذاكرة من خلال كتابة أوراق الغريب، ثم من خلال قراءتها في ضوء مـا يحيط بهـا مـن جوّ عام، وهو نفسه المحامي الذي زار القرية بصحبة الفتاة ذات

العينين البنفسجيتين التي كانت تتردد في أوقات متباعدة على الدار المهجورة فتتجول في أرجائها وتجهش فيسمع لبكائها نهنهة، ويتضح فيما بعد أنها ابنة المرأة (الغريبة) التي انتهت حياتها تلك النهاية في البئر المهجورة على طرف القرية .

وقد تضمنت الرواية إشارات مختلفة تربط بين الشخصيات المتعددة لسارد الرواية الذي هو بطلها الرئيس في الوقت ذاته، ومن ذلك هذا التداخل في الرؤى والخبرات بين الجدّ والغريب صاحب الأوراق اللذين كانت رؤاهما وأقوالهما تتقاطع وتتوازي بشكل لافت، ومن ذلك ما سبقت الإشارة إليه من قول الجد: " الموت عكازة الحياة " الذي يقابلـه قـول الغريب: " الحياة عكازة الموت " . ثم حديث الغريب بعد أن مرت من أمامه جنازة الشاب البهية عـن الموت الـذي لا يأتي في وقته المناسب إلاّ في حالات نادرة يكون التوازن فيها بين الحياة والموت فـي ذروتـــه ؛ فهـو إما يأتي قبل الأوان، أو يأتي متأخراً عن أوانه . (الرواية، ص٣١) وهذا الرأي ورد بفحواه تماماً تعليقاً على قول الأم عن موت وطفا النعمان التي لم تكن تشكو من مرض ولم تتقدم بها السن، فقال وكأنه يحدث نفسه:

" ومتى كان الموت يأتي في موعده . إنه يخلف موعده دائماً فيأتي إلى البعض بعد أن انقضت حياتهم، وملّوا انتظاره، مثلي . ويأتي إلى البعض وهم ملأى بأشواق الحياة ". وصمت ثم أكمل: " لماذا لا يأتي الموت أبداً فـي موعـده . كأننا نعيش في تابوت مفتوح محمول على كتف الدنيا، حتى تتعب الدنيا منه، دون أن نتعب، فتحطّه على كتف القبر .. " (الرواية ص ٥٩ – ٦٠)

وهذا ما يذكرنا، من زاوية أو أخرى، بما مرّ من حديث عن أبيات ريلكه حول الموت الخاص أو الموت الكبير، والموت الصغير الذي لم ينضج ليكتمل، وهو ما اقتبست الرواية جزءاً عنه في شواهدها الاستهلالية، وسكتت عن الجزء الآخر، (٣١) ولكنها تمثّلته بطريقتها الخاصّة في رؤيتها للحياة والموت .

ومن جهة أخرى، فقد تطابقت تجربة السارد مباشرة في معايشته لحدث ولادة الطفل وموت جدّه في اللحظة نفسها في حجرتين متجاورتين من بيت واحد، مع ما قرأه قبيل ذلك في أوراق الغريب، وهذا ما يدعم ما ذهبنا إليه من القول بالوجوه المتعددة لسارد واحد، فقد قرأ في أوراق الغريب:

" في البيت الواحد حجرتان

في الأولى طفل يولد

وفي الثانية عجوز يموت

بين الحجرتين جدار، وباب حائر

لا يدري إن كان يفضي

من الولادة إلى الموت

أم من الموت إلى الولادة ." (الرواية ص ص ٥٨ – ٥٩)

ولعل الكاتب أراد أن يلقي في روع القارئ أن جزءاً من هذا التقاطع هو تقاطع خارجي فقط جاء نتيجة قراءة الجدّ لأوراق الغريب التي كان السارد يخبئها في الخرابة المهجورة، وقد تـرك الجـدّ لحفيـده إشارة لذلك وهــي عكــازه المركــوز إلـــى جدار الخرابة (الرواية ص ٣٦- ٣٧).

وبالرغم من الأقنعة المتعددة التي اتخذها السارد لنفسه في سبيل جعل مسافة درامية تفصل بين الأنا السارد من جهة وشخوص الرواية من جهة أخرى، وخاصة الغريب والجد، فإن هذه الأقنعة سرعان ما تزول وتتقلص المسافات كاشفة عن سمات غنائية واضحة للخطاب الروائي بأسره، وهذه الغنائية لا تحدّ من الفضاء التخييلي للرواية، ولكنها تصبغ الرواية بشكل عام بصبغة شعرية تمثلت في لغة حدسية مكثفة وعبارات مصفاة، ومفردات منتقاة باعتناء واضح، بل إن الوزن والقافية قد تحققا في أحد المقاطع من أوراق الغريب:

"لم يجد بين جموع النادبين

أحداً يرثيه في يوم مماته

غير أكوام شظايا وغبار

بعثرتها، حين عاثت

في زوايا الدار

أوهام حياته." (الرواية، ص ٥٤)

وعلى أية حال، فسواء أكان السارد هو جمال أبو حمدان نفسه، أو كان سارداً آخر يقف جمال أبو حمـدان وراء وجـوده أساســاً، وسواء أكانت القرية هي (رساس) أو كانت أية قرية أخرى، فإن هذه القرية بصفتهــا المكان الرئيس في الرواية لا تعدو كونها مكاناً مصغراً (Microcosm) أو استعارة مكثفة للوجود الإنساني على الأرض، تتجسد فيه قصّة الإنسان فـي كل زمان ومكان، فجمال أبو حمدان لا يقدم في روايته هذه حكاية اجتماعية، بل أمثولة رمزية (أليجوريا Allegory) للوجود الإنساني على الأرض، وتتجسد فيه قصة الإنسان في كل زمان ومكان، وهذا ما يفسر ورود

الشخوص في الرواية بلا أسماء وبلا ملامح خارجية(٣٠)، بل من خلال تسميات تعين صفات إنسانية مطلقة؛ فالأسماء لا أهمية لها مثلما عبّر الجدّ ردّاً على سؤال عن الاسم الذي أطلق على الوليد الذي صرخ صرخة الحياة الأولى في اللحظة نفسها التي لفظ فيها جدّه نفس الحياة الأخير في الحجرة المجاورة لحجرة ولادة الطفل (الرواية، ص ٥٧-٥٨)، فالاسم هنا يعني حضوراً اجتماعياً تاريخياً متعيناً، وهذا ما لا يعني الكاتب فـي شيء، فالذي يعينه أساساً هو وجود هذه الشخصيات المطلق على الأرض، أي حضورها من خلال ولادتها وحياتها وموتها بكل بساطة واختصار، وربما هذا ما يفسر هذا الحضور الكثيف لتأمل شخوص الرواية في الحياة والموت وليس في أي شيء آخر قد يهم الآخرين الذين يقضون حياتهم في العيش، ويتمثل هذا الأمر أكثر مـا يتمثل لدى الجدّ والغريب اللذين يمارسان حضوراً قوياً في وعي السارد الرئيس، وتتفاعل أقوالهما ورؤاهما في داخله في الوقت الذي تؤدي فيه دورها في تشكيل رؤية الرواية الكلية من خلال تفاعلها مع الأحداث والاقتباسات الاستهلالية التي سبق الحديث عنها، فهناك دائماً وجود بشري مقتسم بشكل متساوٍ بين الحياة والموت:

" ولقريتنا بيوت طينية تدبّ فيها الحياة، وقبور يهجع فيها الموت، وبينهما طبقة من تراب لدن دافئ محمر ممتد .. فيه جدب وخصب، وللخصب شوك ونبت، وللنبت ثمر حلو وثمر مرّ، على أغصان مشرئبة ضارعة إلى السماء، وأغصان مائلة ناحية الأرض ..

وفي قريتنا رجال ونساء، كبار وصغار، يولدون ويموتون، وبينهما خط رقيق لا يبين، يفصل بين الحياة والموت. وفي مواسم، نخشى أن ينداح الموت على الحياة .. أو تأخذنا الحياة من الموت..

فنعيش على هذا الخط الرقيق بخشية ووجل ." (الرواية، ص ٢٥)

فالعبارة السابقة تتضمن توازناً مرهفاً بين الحياة والموت يشبه التوازن الدقيق الذي يحتاجه من يمشي على حبلٍ مشدود هو البرزخ الذي يفصل بين الحياة والموت، ولكنه في النهايـة يؤدي هنا إلى غاية واحدة محتومة . وقد تجلى هذا التوازن الدلالي في توازٍ بنيوي

تمثل لغوياً على النحو التالي:

بيوت تدب فيها الحياةو يهجع فيها الموت

خصبو جدب

نبتو شوك

ثمر حلوو ثمر مر

أغصان مشرئبة ضارعة إلى السماءو أغصان مائلة ناحية الأرض

صغارو كبار

يولدونو يموتون

الحياةو الموت

نخشى أن ينداح الموت على الحياةأو تأخذنا الحياة من الموت

وقد تكررت هذه الفكرة في صورة أخرى، عن الوجود الإنساني المقتسم بين الحياة والموت:

"وفي قريتنا بيوت طينية متناثرة . وكانت الندابات في القرية ينتحبن ويندبـن علـى الميت صارخات: "حيف يا فنجان صيني، يكسرك فنجان طيني. وكنت دائمـاً أتخيـل تلك البيوت فناجين طينية مقلوبة فوق سطح الأرض .. ولكن أهلها ما زالوا يدبّون في الحياة وكأنهم يتهيأون لانقلاب فناجينهم الطينية من ظاهر الأرض إلى باطنها ." (الرواية ص ٢٦) .

وهذا الوجود المقتسم بين الحياة والموت، أو الموت والحياة، الذي تمثله القرية بوصفها استعارة مكثفة للوجود الإنساني على الأرض، وما تحتوي من بيوت تتجاور فيها غرف الولادة مع غرف الموت، هـو الإطار العام الذي يؤطر صورة مختلفة نسبياً من الوجود، أي الوجود الخاص الـذي مثلتـه حكايـة " الحب والموت" التي تطورت من قرار العاشقين (الغريب والغريبة) بأن يرتبط أحدهما بالآخر، وأن ينتقلا من المدينة إلى القرية دون أن يحملا معهما شيئاً سوى السرير، مثلما تمثل أيضاً في ذلك الموت الفاجع، الخاص، المبكّر، الاختياري إلى حدّ ما، الذي انتهت إليه وبه حياة الغريبة أولاً، ثم تبعها الغريب في موت مشابه إلى حدّ كبير . ولعل هذا هو الذي جعل بناء هذه الرواية يجيء على وفق تقنية الحكاية التي تحتوي في داخلها حكاية أخرى، لأن هذا التعبير هو الموازي الفني أو السردي لوجود يحتوي في داخله وجوداً آخر يماثله من حيث الجوهر ؛ أي الابتداء بالولادة والانتهاء بالموت، ويخالفه في الأعراض التي تنعكس عن حريّة اختيار الحياة الخاصة، والموت الخاص.

الهوامش والإحالات

١.أبو حمدان، جمال: الموت الجميل . رواية . عمان: أزمنة للنشر والتوزيع، ١٩٩٨. (وسوف يشار إليها بالرواية عند توثيق الاقتباسات منها في المتن مباشرة).

2.Schweikle, Guenter und Irmgrad (Hrg.): Metzler Literatur Lexikon. Bigriffe und Definitionen. Zweite ueberarbeitete Auflage. Stuttgart: J.B.Metzler, 1990.S,342.

٣.خليفي، ميشيل: "النص الموازي في الرواية (استراتيجية العنوان)". الكرمل: ٤٦ / ١٩٩٢ ص ص ٨٢ – ١٠٢، هنا ص ٨٤ .

٤.المكان السابق نفسه .

٥.فضل، صلاح: بلاغة الخطاب وعلم النص . الكويت: المجلس الوطني للثقافة والعلوم والآداب . سلسلة عالم المعرفة ١٦٤، آب أغسطس ١٩٩٢ . ص ٢٣٦.

6.Praz, Mario:Liebe,Tod und Teufel .Die Schwarze Romantik. Uebersetzt aus dem Italienischen von Lisa Ruediger. Muenchen , 1979,S.38.

٧. المكان السابق نفسه.

٨. قارن مع: بركات، زياد: "صورة جمال أبو حمدان في شبابه الدائم". في: جريدة الدستور(عمان). الأحد ١٩٩٦/١٠/٢٧.

9.Metzler Literatur Lexikon, S. 312.

وقارن مع: وهبة، مجدي: معجم مصطلحات الأدب . إنجليزي، فرنسي، عربي بيروت: مكتبة لبنان ١٩٨٣، ص ١٤٢.

١٠. زيولكوفسكي، تيودور: أبعاد الرواية الحديثة . نصوص ألمانية وقرائن أوروبية . ترجمة د. إحسان عباس وبكر عباس . بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٤، ص ٢٥٤ .

١١. حول فلسفة الموت عند هيدغر، أنظر:

كارس ،جيمس . ب: الموت والوجود – دراسة لتصورات الفناء الإنساني في التراث الديني والفلسفي العالمي . ترجمة بدر الديب . القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٨، ص ٥٣٣ وما بعدها .

وكذلك: شورون، جاك: الموت في الفكر الغربي . ترجمة كامل يوسف حسين . مراجعة وتقديم إمام عبد الفتاح إمام . الكويت: عالم المعرفة ٧٦، إبريل ١٩٨٤، ص ٢٤٤ وما بعدها .

١٢.أنظر: رفقة، فؤاد: الشعر والموت . بيروت: دار النهار للنشر ١٩٧٣، ص ٤٨.

١٣.هي عشر قصائد شهيرة أتم ريلكه كتابتها عام ١٩٢٢ في قصر دوينو (Duino) في ضيافة إحدى الأميرات من صديقاته في سويسرا . أنظر هذه المراثي في:

Rilke , Reiner Maria: Gedichte . Auswahl und Nachwort von Dietrich Bode. Stuttgart: Reclam Verlag,١٩٩٧,SS. ١٨٦ – ٢٠٦. وأنظر ترجمة عربية لها أنجزها ممدوح حقي عن الفرنسية في: ريلكه أمير شعراء ألمانيا . دمشق: دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر ١٩٦٢، ص ٥٥ وما بعدها.

14.Rilke, Reiner Maria: " Die Aufzeichnungen des Malte Laurids Brigge” . In: Deutsche Erzaehler des 20. Jahrhunderts. Ausgewaelt und eingeleitet von M.L. Kaschnitz. Frankfurt: Suhrkamp, 1994 , SS.92 – 78 , hier, S. 63.

١٥. Ibid,SS. ٦٣- ٦٤

١٦.Rilke:Gedichte,S.٦١ وقارن مع: أبعاد الرواية الحديثة، ص ص ٢٦١ – ٢٦٢.

١٧ .Die Aufzeichnungen des M.L. Brigge. In: Deutsche Erzaehler,S.٦٦

١٨. Rike: Gedichte.S .٦١.

١٩. أبعاد الرواية الحديثة، ص ٢٦٥ .

٢٠. أنظر: الباردي، محمد رجب: " الإنشائية الحديثة وحدود مقاربتها للنص السردي ." في علامات النقد، ج ٢٦، م ٧، شعبان ١٤١٨ هـ – ديسمبر ١٩٩٧ م، ص ص ١٩٠ – ٢٠٦، هنا، ص ١٩٢ .

٢١. المكان السابق نفسه .

٢٢ . المكان السابق نفسه.

٢٣. حول دور الشخصية في قيادة السرد . أنظر المرجع السابق نفسه، ص ص ١٩٢ – ١٩٣ .

٢٤. الكبيسي، طراد: قراءات نصية في روايات أردنية . عمان: منشورات أمانة عمان الكبرى، ٢٠٠٠، ص ٧٤ .

٢٥. في قصص العشق العربي القديم تكاد النهاية النمطية لموت العاشقين هو أن يخر أحد العاشقين ميتاً على قبر محبوبه، أو أن يشهق أحدهما ويسقط ميتاً فيلحقه الآخر بعد لحظات، فيدفنان في قبرين متجاورين . أنظر أمثلة على ذلك في:

ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي (ت١٢٥٧م): ذمّ الهوى . تحقيق عطا أحمد عبد السلام . بيروت ١٩٨٧، وخاصة الباب السابع والأربعين " في ذكر من قتله العشق " الصفحات ٣٧٣ ،٣٧٦، ٣٧٨، ٤٠٧ وغيرها كثير .

٢٦.قارن أيضاً، مع: قراءات نصية في الرواية الأردنية، ص ٧٧.

٢٧.حول تمجيد الموت في الآداب الرومانتيكية، أنظر: الموت في الفكر الغربي، ص ١٦٧ – ١٧٢ .

٢٨. أنظر حول موتيف الحب والموت وأبعاده الرومانتيكية:

Bijvoete , Maya C.: " Liebestod " . In Seingnwet, Jean – Charles (Ed.) Dictionary of Literary Themes and Motifs. Vol: L – Z . New York . London: Greenwood press, ١٩٨٨, S.٧٦٨ – ٧٧٥.

وكذلك: ويلسون، جلين: سيكولوجية فنون الأداء . ترجمة د. شاكر عبد الحميد، مراجعة د. محمد عناني، الكويت: سلسلة عالم المعرفة ٢٥٨، حزيران ٢٠٠٠، ص ص ٨٠ – ٨٥ .

٢٩. حول الحكاية الإطار ودور السارد أنظر :

Rahmenerzaehlung) ٢٧٤ – ٢٧٣.Metzler Literatur Lexikon , SS). وكذلك: إبراهيم، عبد الله: السردية العربية . بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي . بيروت . المركز الثقافي العربي، ١٩٩٢، ص ٩٣ وما بعدها .

٣٠. شذ عن ذلك التصريح باسم (وطفا النعمان)، وقد علّق طراد الكبيسي على الأمر بقوله: إن هذا: " ربما ليعدنا إلى الخطيئة الأولى: عذريتها التي قطفها ومضى هارباً تحت وطأة الشعور بالخطيئة ." أنظر: قراءات نصية في الرواية الأردنية، ص ٨١.

٣١. أنظر سابقاً (١: ٣).

نصّان عن قوة الأدب وفن التخييل:

تقديم وترجمة/ أحمد المديني

١ـ مديح الكتابة والتخييل

ماريو فارغاس يوسا

تقديم

في عام ٢٠١٠ فاز ماريو فارغاس يوسّا بجائزة نوبل للآداب، وعُدّ هذا حدثا أدبيا وسياسيا أيضا على مستوى القارة الأميركية الجنوبية، أكثر من بيرو التي ينتسب إليها هذا الروائي الشامخ ، قبل أن يحظى بالجائزة، وهذا فضلا عن مطامحه السياسية لرئاسة بلده. وقد جرت العادة أن يلقي المُتوَّجُ خطابا أمام أعضاء الأكاديمية وجمهور خاص منتقى يُدعى للحضور. وأصبحت هذه الخطابات، ومنذ عقود، تحظى باهتمام الجمهور الأدبي والنقاد، نظرا لما يضمنها الكتاب من آراء وتصورات راجحة حول مفاهيم الأدب والإبداع عامة، وممارستهم الخاصة، ومواقفهم من الحياة وقضايا زمانهم، بما يعطيها أهمية استثنائية، تعمّق النظر في أعمالهم، وتكشف عن وجوه ناصعة للضمير الثقافي، والوعي السياسي، المقترنين بكل إبداع، وذلك من خلال تجربة شخصية متميزة،تتحول إلى تجربة كلية إنسانية، بالاعتراف الذي نالته بالجائزة. ولنا أن نستحضر من بين هذه الخطابات واحدا شهيرا منها، ألقاه ألبير كامي سنة١٩٥٧ أمام الأكاديمية السويدية، بعد حصوله على جائزتها العالمية، الشهير ب"خطاب السويد"، ويعد بمثابة بيان شمولي عن وضع الكاتب في عالم الأدب وتجاه القيم والأخلاق، في زمانه، إلى جانب محاضرته في جامعة أوبسالا التي ما زالت أصداؤها تُدوِّي إلى الآن. (أنظر ترجمتنا للنص في:(ألبير كامي، خطاب السويد، أو الفنان وزمانه، عمان، دار أزمنة،٢٠١٠). وقد كنا قد ترجمنا من قبل عملا نظريا أساسا ليوسا حول مفاهيم ومفاتيح الكتابة الروائية، يعتبر

مرجعا في بابه، بحكم الحنكة المشهود بها لصاحبه(أنظر:رسائل إلى روائي ناشئ، أزمنة، ٢٠٠٥). تجدر الإشارة أن مصطلح التخييل هو ترجمة Fictionالتي تعني وتشير إلى الكتابة السردية، حكاية ورواية، وحديثا تنصرف إلى القصة عموما.

في ما يلي ترجمة للفقرات الأساس لخطاب يوسا الذي ألقاه بالإسبانية(٢٠١٠/١٢/٧) نرى معانيه الأدبية والقيمية ومُثله ما تزال على حيويتها وقوتها الظرفية وعلى المدى البعيد، أيضا. وهي المعاني ذاتها التي اعتبرتها دار غاليمار الفرنسية مسوغة وقوية القيمة والإشعاع لتعمد الآن(شهر آذار، مارس ٢٠١٦) إلى إصدار أهم أعمال يوسا الروائية في سلسلة (لابلياد) المخصصة للخالدين، ولم يدخلها من أدباء أميركا اللاتينية سوى بورخيس وأكتافيو باث، وهذا اعتراف جديد بأن يوسا من عمالقة الرواية في أميركا الجنوبية، ومنها إلى أفق الرواية العالمية. وما يعنينا نحن هنا هو ما يختص بالدرجة الأولى بالجانب الأدبي من تجربة يوسا، رغم أن حياة الرجل ارتبطت ارتباطا عضويا بالعمل السياسي وبرامجه في بلاده. وهو في شبابه اعتبر نفسه من مريدي سارتر، وتعهد بإبداع أدب اميركي لاتيني ملتزم. وقد فضلنا في هذه الترجمة تجاوز جزء من ملفوظاته السياسية لطابعها السِّجالي، ومغالاتها في مناهضة خصومه من الجناح اليساري المعادي لصفه الليبرالي، كما أن هناك تفاصيل حول نشأته وتربيته وحنينه لوطنه الأم البيرو بمثابة معلومات مبذولة. ونحن ننقل نص الخطاب، أولا، عن الترجمة الفرنسية التي قام بها ألبير بن سوسان، وهو مترجمه الفرنسي الأول منذ عام ١٩٧٤، ومقارنيها بالنسخة الأصلية المعتمدة من مؤسسة نوبل، والموضوعة لديها، ننجز ترجمتنا العربية، فوجب التنويه. المترجم

المتن

"تعلمت القراءة في سن الخامسة، في صف الراهب جوستنيانو، بكوليج لاسال، كوشبامبا (بوليفيا). هذا أهم ما حصل لي في حياتي. وها أنذا، بعد حوالي سبعين عاما، ما زلت أتذكر بوضوح تام كيف أن هذا السحر، الذي هو أن تترجم إلى صور كلمات الكتب، قد أغنى وجودي، وكسر حواجز الفضاء والزمن، بأن سمح لي أن أقطع مع القبطان نيمو في غواصته عشرين ألف مكان تحت البحار[رواية جول فيرنٍ]، وأن أصارع إلى جانب أرتنيان، أتوس، وبورتوس، وأرامس، ضد المكائد التي هددت الملكة زمن الداهية ريشيليو، أو أن أتسلل في أحشاء باريس، وقد صرت جان فالجان[بطل رواية البؤساء لفيكتور هوغو] حاملا على ظهره جسد ماريوس الهامد. لقد حولت القراءة الحلم إلى حياة، والحياة إلى تهيؤ، لما وضعتْ عالم الأدب في يد الولد الذي كنت. وقد حكت لي أمي أن الأشياء الأولى

التي كتبت هي تتمات الحكايات التي كنت أقرأ،لأنني كنت أحزن بانتهائها، وأنني أريد تصحيح النهاية. ربما كان هذا ما فعلته طيلة حياتي من غير أن أعلم: أن أمدد في الزمن ـ وأنا أكبر،وأنضج، وأشيخ ـ الحكايات التي عمّرت طفولتي بالحماس والمغامرات.

ما أشوقني لوجود أمي هنا بيننا، هي التي كانت شديدة التأثر، وتبكي وهي تقرأ أشعار أمادو نيرفو[الشاعر المكسيكي] وبابلو نيرودا[الشاعر التشيلي]وكذلك جدي بيدرو الذي طالما احتفى بأشعاري، والعم لوشو، من شجعني كثيرا على الانهماك جسدا وروحا في الكتابة، رغم أن الأدب في هذه الفترة، وهذا المكان، لم يكن ليطعم محبيه إلا النزر اليسير. لقد عاش هؤلاء الناس دائما إلى جانبي، أحبوني وشجعوني، وكم بثوني إيمانهم حين يلحقني الشك. بفضلهم، ومن غير شك، أيضا، اعتمادا على عنادي وحظ لا بأس به، استطعت أن أكرس جزءا كبيرا من وقتي لهذا الهوس، هذه "العلة" والعجيبة: مُمثلةً في أن أكتب،أن أخلق حياة موازية حيث نحتمي ضد المحنة،وتجعل الطبيعي عجيبا،والعجيب طبيعيا،وُتبدد الخراب، وتجمِّل القبيح، وتخلِّد اللحظة، ويُمسي الموتُ مجرد مشهد عابر.

لم يك ثمة أصعب من كتابة الحكايات، فبمجرد ما تتحول إلى كلمات، تذبل المشاريع فوق الورق، وتتراخى الأفكار والصور. كيف يمكن إحياؤها، إذن؟ من حسن الحظ، فإن الأساتذة حاضرون لنتعلم منهم، ونحتذي مثالهم. فقد علمني فلوبير أن الموهبة هي انضباط مثابر وصبر طويل. ومن فوكنر تعلمت أن الشكل ـ كتابة وبنية- هو ما يغني أو يفقر المواضيع. وعن مارتوريل، ثربانتس،ديكنز، وبلزاك، كونراد، توماس مان، أخذت كون العددِ والطموح مهمان كذلك للرواية بقدر ما هي هامة المهارةُ الأسلوبية واستراتيجيةُ السرد. ومن سارتر أفدت أن الكلمات مواقف، وأن الرواية والمسرحية والبحث، وهي ملتزمة في زمنها وفي الاختيار الأفضل، يمكنها أن تغير مجرى التاريخ. ومن كامو وأورويل تعلمت بأن الأدب بدون أخلاق هو لا إنساني،ومن مالرو بأن البطولة والشعر الملحمي لهما مكانهما في الحاضر تماما كما كانا عليه في زمن الأبطال الأرغونوت الإغريق، والإلياذة والأوديسة.

الحق أني لو استحضرت في هذا الخطاب كل من أنا مدين لهم من الكتاب، بقليل أو كثير، لألقت بنا ظلالهم في الظلام. فهم كثر. هم لم يعلموني أسرار مهنة الكتابة، فحسب، بل وكشفوا لي عن مزالق الكائن، وأن أُعجب بمآثره، وأرتعب من انحرافاته. كانوا الأصدقاء الخدومين جدا، ومنشّطي منزعِي الأدبي، وفي كتبهم اكتشفت بأن ثمة دائما، وفي أسوأ الظروف، أمل. وبأن الحياة تستحق أن تعاش، ولو لمجرد معرفتنا أنه لولاها لما استطعنا،لا القراءة، ولا تخيل الحكايات.

وكم تساءلت إن لم تكن الكتابة في بلدان كبلدي، قراؤه قليلون، وفقراؤه غفير، وكثير من الأميين والمظلومين، وحيث الثقافة امتياز لطغمة؛ لكم تساءلت، إذن، أليست الكتابة ترفا توحُديا. غير أن هذه الشكوك لم تخنق منزعي البتة، إذ ثابرت على الكتابة، حتى في أوقات امتصت فيها الأعمال المعيشية جل وقتي. أظن أني تصرفت بحكمة، ذلك أنه، ومن أجل أن يزهر الأدب في مجتمع ما لزم، أولا، الوصول إلى الثقافة الرفيعة، إلى الحرية، إلى الرفاهية والعدالة، وبدون ذلك لما وُجِد. وبفضل الأدب، والوعي الذي كوّن، والرغاب والهالات التي ألهم، وخيبة الأمل في الواقع إذ تمتصها قصة جميلة، بفضل هذا أضحت الحضارة اليوم أقل رعبا مما كانت عليه حين شرع الرواة في أنسنة الحياة بحكاياتهم. ولكم كنا سنصبح أسوأ مما نحن عليه بدون الكتب التي قرأنا، أكثر محافظة، وأقل وسواسا، أكثر خضوعا، ولما وُجد الحِسُّ النقديُّ الذي هو محرك التقدم، قط. تماما مثلما يعني أنك إذ تكتب وتقرأ هما أن تحتج ضد نقائص الحياة. ومن يبحث في التخييل[الرواية]عن ما لا يملك، يعبر، من غير ما حاجة لقوله ولا علمه، أن الحياة كما هي لا تكفي لإطفاء غلتنا للمطلق، الذي هو عماد الوجود الإنساني، وينبغي أن يكون أفضل. ونحن نخلق التخييل لكي نعيش بطريقة ما الحيوات المتعددة التي نرغب، فيما لا نتوفر بالكاد، سوى على حياة واحدة.

بدون تخييل سنصبح أقل وعيا بأهمية الحرية التي تجعل الحياة قابلة للعيش، والجحيم الذي تنقلب إليه حين يتم تمريغها تحت أقدام الطغاة،أو تحت سطوة إيديولوجية أو دين. وعلى الذين يشكون في أن الأدب الذي يغمرنا بحلم الجمال والسعادة، وينذرنا، فضلا عن هذا، ضد كل أشكال الاضطهاد،عليهم أن يتساءلوا لماذا يخاف الأدبَ كل تلك الأنظمة المهووسة بمراقبة سلوك مواطنيها من المهد إلى اللحد، إلى حد وضع نُظم رقابة لقمع ومراقبة الكتاب المستقلين. تعرف هذه الأنظمة في الواقع أيَّ خطر في ترك الخيال يرسل خطابه في الكتب، وكم هي مفتنة الروايات حين يقارن القارئ الحرية التي تتيحها وتنشرها، مقارنة بالظلامية والخوف اللذين يتربصان به في العالم الواقعي. إن نُسّاج الحكايات، سواء رغبوا في ذلك أو لم يرغبوا، علموا أو لم يعلموا، يعملون بخلقهم القصص على نشر عدم الرضا، بإظهارهم كيف أن العالم مصنوع خطأً، وأن حياة الخيال أغنى من رتابة اليومي. وهذه المعاينة، إذا ما استقرت في الحساسية والوعي، تجعل من الصعب تطويع المواطنين، وتقبلهم لأكاذيب الذين يريدون إقناعهم أنهم، وهم واقعون في شرك المحققين والسجانين، يعيشون عيشة راضية.

إن الأدب الجيد يمد الجسور بين ناس مختلفين، وهو بإمتاعنا، وإبهارنا أو إيلامنا، يوحدنا، مخترقا اللغات والأديان، والعادات والتقاليد والأحكام المسبقة التي تفرق بيننا. وحين يضرب سمك القرش الأبيض الهائل القبطان أشاب [موبي ديك] فقلوب القراء تنقبض وهي في طوكيو، أو ليما، أو

تومبوكتو. وحين تبلع إيما بوفاري [مدام بوفاري] سُمَّها، وترتمي أنا كارنينا تحت قطار، أو حين نتبين أن جميع سكان كومالا، قرية بيدرو براموا[عنوان الرواية الشهيرة للمكسيكي خوان رولفو]، فالرعشة ذاتُها تنتاب في القارئ، آمنَ ببوذا، أو كونفوشيوش، عيسى، أو الله، وسواء ارتدى سترة بربطة أوجلبابا، أو كيمونو. إذ الأدب يخلق أخوة داخل التنوع البشري، ويسقط الحدود القائمة بين الرجال والنساء بسبب الجهل والأديان، واللغات، والغفلة، أيضا.

وكما عرفت كل العصور خوفها الخاص، فإن عصرنا هو عصر التطرف، والإرهاب الانتحاري، وهو نوع قديم يعتقد أنه بالقتل تُشترى الجنة،وأن دم الأبرياء يغسل العار الجماعي، ويصحح الظلم، ويفرض الحقيقة على المعتقدات الزائفة. ولكم من ضحية تذهب يوميا في أماكن متفرقة من العالم،على يد من يشعرون أنهم مالكو الحقيقة المطلقة. وقد كنا اعتقدنا أن انهيار الإمبراطوريات الشمولية، وأن التعايش، والسلام، والتعددية، ستؤدي إلى استتباب حقوق الإنسان،وأن العالم سيترك وراءه الأهوال،والغزوات وحروب الإبادة، والحال أننا إنما نرى من جديد استفحال أشكال جديدة من الوحشية،تؤججها أشكال التطرف، ولا نستبعد قيام حرب نووية بوقوع أسلحة الدمار الشامل في يد جماعات متطرفة. لذا، ينبغي قطع الطريق في وجههم، وتفكيكهم. وهم ليسوا عديدين، حتى ولو دوّت شظايا جرائمهم في آفاق الدنيا. علينا أن لا نقع تحت تهديد الذين يريدون سلب الحرية التي كسبنا في المدى الطويل والبطولي للحضارة. لندافع عن الحرية الليبرالية، فهي برغم ما ينقصها، تعني التعددية السياسية والتعايش، والتسامح، وحقوق الإنسان، واحترام النقد، والمساواة، والانتخابات الحرة، التناوب على الحكم، وكل ما أخرجنا من حياة التوحش،وقرّبنا، دون أن ندركها أبدا، من الحياة الجميلة والكاملة التي يوهم بها الأدب،الحياة التي لن نستحقها إلا بابتكارها،بكتابتها وقراءتها. كما أننا بمواجهتنا للمتطرفين القتلة ندافع عن حقنا في الحلم وفي جعل أحلامنا حقيقة. في شبابي، وشأن عديد كتاب من جيلي،كنت ماركسيا،وآمنت بأن الاشتراكية هي الدواء ضد الاستغلال،والظلم الاجتماعي الضاربين لبلادي[البيرو] وأميركا اللاتينية وباقي العالم الثالث. وإذ تركت خلفي النزعة االدولتية والجماعية، جاء عبوري إلى وضع الديموقراطي والليبرالي الذي صرته ـ أحاول ـ جاء صعبا وطويلا،وتحقق ببطء.(...).

وفي طفولتي حلمت بالذهاب إلى باريس، لأنني بافتتاني بالأدب الفرنسي، حسبت أن العيش هناك، وتنفس الهواء الذي استنشقه بلزاك، وستندال، وبودلير، وبروست، سيساعدني على أن أتحول إلى كاتب حقيقي، وأنني بعدم الخروج من البيرو لن أكون أكثر من كاتب هاو. الحق أني مدين لفرنسا وللثقافة الفرنسية بفوائد جمّة لا تنسى، منها القول بأن الأدب موهبة بقدر ما هو انضباط، هو عمل ومثابرة. لقد عشت هناك وسارتر وكامي حيّان ويكتبان، في سنوات بيكيت، وباتاي، يونيسكو

وسيوران، خلال اكتشاف مسرح بريخت وسينما إنغمار برغمان، مسرح جان فيلار وجان لوي بارو، الموجة الجديدة للسينما، والرواية الجديدة، وزمن الخطابات وقطع الحماسة الأدبية لأندريه مالرو، وكذا الفُرجة الأكثر مسرحية لأوروبا آنئذ، ممثلة في الندوات الصحافية والضربات المدوية للجنرال ديغول. بيد أن لفرنسا عليّ دَيْناً أكبر كونها عرّفتني على أميركا اللاتينية. ففيها تعلمت أن البيرو جزء من مجموعة واسعة يُوحَدها التاريخ، والجغرافيا، والإشكالية الاجتماعية والسياسية، وبطريقة ما للوجود وباللغة العذبة التي تتحدث وتكتب. وأنها خلال تلك السنوات أنتجت أدبا مجددا ومثيرا. هنا قرأت بورخيس، أوكتافيو باث، كورتثار،غارسيا ماركيز، كارلوس فوينتس، كابريرا أنفانتي، رولفو،أونيتي، كاربانتيي، إدواردس،دونوسو وآخرين ممن ثوّرتْ نصوصهم الكتابة السردية باللغة الإسبانية، وبفضلهم اكتشفتْ أوروبا مع قسم مهم من العالم بأن أميركا اللاتينية ليست بلد الانقلابات العسكرية فقط، والزعماء من قش، والمحاربين الملتحين،أو راقصي المامبو والتشا تشا تشا، بل، وأيضا، قارة الأفكار والأشكال الفنية والنزوات الأدبية ذات اللسان العالمي. منذ هذه الفترة وإلى يومنا، وبما لا يخلو من تعثر وأخطاء،حققت أميركا اللاتينية خطوات متقدمة، إنما، وكما قال سيزار فاليخو في هذا البيت:" يا إخوتي هناك كثير مما ينبغي أن يأتي".

(...) لنعد إلى الأدب. ليست جنة الطفولة عندي أسطورة أدبية، ولكن حقيقة عشتها، وتمتعت بها في بيت العائلة بكوشابامبا، أو مع بنات عمي ورفاقي في الصف المدرسي، حيث كنا نقلد قصص تارزان وسالغاري...خلال هذه السنوات،كانت الكتابة لعبة تصفق لها عائلتي، وتحتفي بي،أنا الحفيد، الإبن بلا أب، لأن أبي كان قد رحل عن هذا العالم. أتذكره: رجل ذو قامة عالية، ووجه حسن، وبهندام بحّار، والذي صورته منصوبة عند حافة سريري أقبلها بعد أداء صلاتي، وقبل النوم. وذات صباح في بيورا، لم أتعاف أبدا من صدمته، أسرّت لي أمي أن هذا الرجلَ حيٌّ يُرزق، وأننا من هذا اليوم سنذهب إلى ليما للعيش معه. كنت في الحادية عشرمن عمري،ومنذئذ تغير كل شيء عندي. فقدتُ براءتي واكتشفت الوحدة والحياة الراشدة والخوف. ونجوت بالقراءة،قراءة الكتب الجيدة،لُذت فيها بعوالم مثيرة،كثيفة، مغامرةً إثر مغامرة، وحيث شعرت بالحرية وبالسعادة من جديد. كذلك بالكتابة في الخفاء، مثل من يمارس رذيلة، أو هوىً محرما. منذئذ كفّ الأدب عن كونه لعبة ليتحول إلى طريقة لمقاومة المحن، وللاحتجاج، والتمرد، والإفلات من الشطط؛ أضحى غاية للعيش. منذئذ، وإلى الآن، وفي المناسبات التي شعرت فيها بالإنهاك، وعلى حافة اليأس، يصبح انهماكي جسدا وروحا في عملي الروائي ضوءاً يشير إلى مخرج النفق، وطوق النجاة الذي يقود إلى بر الأمان.

ورغم أن هذا يمثل شغلا شاقا، ويسيلني عرقا، ولأني على غرار كل كاتب أحس أحيانا بتهديد شلل الخيال أو توقفه، فلا شيء أمتعني في الحياة نظير قضاء أشهر وسنوات في بناء قصة، منذ ولادتها

غير الموثوقة،هذه الصورة التي اختزنتها الذاكرة من نثار تجربة معيش وغدت مقلقةً وحماساً ونزوة،إلى أن تثمر مشروعا وقرارا بتحويل هذا الضباب الآهل بالأشباح إلى قصة. لقد قال فلوبير:"أن تكتب، لهي طريقة في العيش". بكل تأكيد، طريقة للعيش في الوهم والفرح، بنار تلعلع في الرأس، بمحاربة الكلمات العصِيَّة إلى أن تطوع، وباستكشاف العالم الواسع صنيعَ صياد خلف طريدة ليغذي تخييله الناشئ، ويُهدِّئ من الشهية المفترسة لكل قصة تنزع وهي تكبر إلى افتراس باقي القصص الأخرى. هي أيضا الوصول إلى الإحساس بالدُّوار الذي ترمينا فيه رواية قيد التكوين،حين تتشكل وتبدو وهي تحيا لحسابها الخاص، بشخصيات تتحرك، تعمل، تفكر وتحس، وتتطلب الاحترام والاعتبار، والتي لا يمكن أن نفرض عليها عسفا أي سلوك، ولا أن نحرمها من اختيارها الحر، وإلا قتلناها، بدون أن تفقد القصة قدرتها على الإقناع؛ هذه هي التجربة التي تعجبني دائما، كما أعجبتني المرة الأولى، بكل امتلائها وهوسها،الشبيهين بممارستنا للحب مع المحبوبة أياما وأسابيع وشهورا، بدون توقف.

(...) إن الأدب لهو تمثيل مغشوش للحياة، يساعدنا مع ذلك على الاهتداء في المتاهة التي ولدنا فيها، التي نعبر، وحيث سنموت. هي تعوضنا عن خسائر وإحباطات نُمَنَى بها في الحياة الحقيقية، وبفضلها نفكك، جزئيا على الأقل، الهيروغليفيا التي هي بمثابة الوجود بالنسبة لغالبية البشر،خاصة نحن،الذين نمتلئ بالشكوك أكثر من اليقين،ونعلن ارتباكنا إزاء مواضيع كالتعالي، والمصير الفردي والجماعي، والروح، والمعنى ولا معنى التاريخ، والعقلانية..

لقد فتنت دائما وأنا أتخيل الظرف الملتبس حين كان أسلافنا،وهم بالكاد يختلفون عن الحيوان، وللتو وُلِد الكلام الذي سمح لهم بالتواصل بينهم، وقد شرعوا في المغارات، وحول نار حطب، في الليالي المحفوفة بتهديد البروق والرعود،وزئير الوحوش،في اختلاق الحكايات وروايتها. لقد كانت هذه اللحظة الحاسمة لمصيرنا، إذ في حلقات الكائنات البدائية المشدودة إلى صوت خيال الحكواتي،هذه،بدأت الحضارة،هذا المسار الطويل،الذي سيؤنسننا شيئا فشيئا ويتيح لنا ابتكار الفرد ذي السيادة، بفصله عن القبيلة، ومعه العلم والفنون،القانون والحرية، ولتقصي ثنايا الطبيعة، وجسم الإنسان، والفضاء، وللسفر في الكواكب. هذه الحكايات والخرافات والأساطير التي تتردد في المرة الأولى كموسيقى جديدة أمام مستمعين مرتعبين من غوامض ومخاوف عالم كلُّ شيء فيه كان مجهولا وخطيرا؛لاشك أنها مثلت حمّاما منعشا، وملاذاً لأرواحٍ دائما على حافة القلق،والتي كان الوجود عندها لا يكاد يتعدى الأكل، والاحتماء من عوارض الطبيعة، والقتل والتوالد. وبمجرد ما بدأوا يحلمون جماعة، ويتقاسمون خرافاتهم المغذّاة بحكايا الرواة، انعتقوا من غلِّ العيش وحده،ودوامة الأعمال المنهكة، وتحولت حياتهم إلى حلم، متعة وأُلهية، وإلى مصير ثوري ـ أي

القطع مع هذه العزلة، وتغيير أوضاعهم وتحسينها- ومعركةً لتخفيف التطلعات والمطامح المستثارة لديهم بالحيوات المجازية، وبفضول كشف مجاهل يعكسها محيطهم.

وقد اغتنى هذا المسلسل الذي لم يتوقف أبدا بولادة الكتابة، ولم تعد الحكايات ُتسمع فقط، بل وتُقرأ أيضا لتبلغ الديمومة التي يخولها لها الأدب. ولذا علينا أن لا نتوقف عن تكرار القول إلى أن تقتنع الأجيال الجديدة، بأن التخييل[القصة، الرواية]هي أكثرمن تسلية، أكثر من ممارسة ثقافية تشحذ الحساسية وتوقظ الفكر النقدي. بأنها ضرورة لابد منها لتستمر الحضارة، ولتتجدد وتحفظ فينا أفضل ما لدى الإنسان. وحتى لا نتقهقر إلى وحشية اللا اتصال، ولا تنحسر الحياة في براغماتية المتخصصين، يرون الأشياء في العمق، لكن يجهلون ما يحيط بهم، يسبقهم، ويليهم. ومن أجل أن لا نتحول إلى عبيد وخدم للآلات التي اخترعوا. ولأن عالما بلا أدب سيُمسي عالما بلا رغبات، بلا مُثل، بلا جرأة، عالمَ مؤتمتين[من الأتوماتيك] مفتقرين لما يصنع الإنسان حقا،أي قدرتَه على الخروج من نفسه ليصبح آخر وآخرين، عالما مجبولا بطين أحلامنا.

من المغارة إلى ناطحة السحاب، من الدبّوز إلى أسلحة الدمار الشامل، من الحياة الرتيبة للقبيلة إلى عهد العولمة، ضاعفت تخييلات الأدب تجارب البشرية بحيلولتها دون أن نتهاوى في الخمول والانطواء، والاستسلام. لا شيء زرعَ القلق، وهز الخيال والرغبات مثل حياة الأكاذيب التي نضيفها إلى ما عندنا بفضل الأدب، حتى نتعرف على المغامرة الكبرى والمبتغى الأكبر الذي لن تهبه لنا الحياة الحقيقية أبدا. إن أكاذيب الأدب تصبح حقائق عبرنا نحن، قراءها المتحولين، المصابين بعدوى المطامح، وهذا جرّاء خطأ التخييل، الذي يعيد دوما النظر في الحقيقة الهزيلة.. بهذا السحر الذي يهدهدنا بوهم امتلاكنا لما ليس بحوزتنا، وبكوننا ما لسنا عليه، وبالانتقال إلى هذا الوجود المستحيل، الذي يجعلنا، شأن الآلهة الوثنية، نحس بأنفسنا أرضيين وسرمديين في آن واحد،به يبث الأدب في نفوسنا روح الاختلاف والتمرد اللذين يثويان خلف كل الوعود التي ساهمت في كل مآثر ما خفف العنف في العلاقات البشرية. أقول، ساهم في تخفيف العنف لا إنهائه، لأن عنفنا سيبقى دائما، من حسن الحظ، تاريخا ناقصا. لهذا نحتاج إلى الاستمرار في الحلم، في القراءة والكتابة، وهي الطريقة الأمثل ما وجدناه للتخفيف من وضعنا المتردي، وللانتصار على استنزاف الزمن، وجعل الممكن مستحيلا."

٢ـ مَغْنَاةُ الحِبر

[أو كيف تفكر القصة في نفسها]

ألان نادو

تقديم

مغناة الحبر:"Le chant de l'encre"،هي قصة الكتابة نفسها،عمليتها ومراوغاتها. كيف تتم وتتحايل وتنشطر. قليل جدا هم الكتاب الذين فكروا بوعي في هذه اللعبة، وجعلوا منها على الخصوص مادة مفردة لقصة. قراءتي لهذا العمل النادر تعود إلى منتصف الثمانينات لدى صدوره ضمن المجموعة القصصية لألان نادو بعنوان: "Voyages au pays des bords du gouffres"(باريس، دونويل،١٩٨٦). أعجبت بهذا النص منذئذ، وتجاوبت بقوة مع هواجس صاحبه ووساوسه تجاه فن القص ولعبه، مع المناورات التي يجر إليها، خاصة الطريقة "اللولبية" التي صيغ بها، تتراوح بين السرد والعرض الفكري النقدي،أو ما بات يصطلح عليه بالميتاـ قصة، (كيف تفكر القصة في نفسها بصوت مرتفع، لو صح التعبير). هكذا بدل أن يحكي هذا النص أحداثا،أو ينسج خيوط معضلة، أو يرسم تقاسيما ذاتية وسلوكية لشخصية مأزومة في أفق رؤية محددة، وبلغة أدبية وبناء متسق، كما هو الشأن في كل قص منظم؛ عوض ذلك يجعل من القص ذاته موضوعه وأزمته، ويسائله بالدوران حوله وتوليد لمعاني كتابته، مشدودة وأنشودة. وفيما عرف الأدب السردي التخييلي منذ ذلك التاريخ تطورا ملحوظا في تيارات وخصائص تجديدية وتنويعية عديدة، تكاد الأسئلة والمحاور الكلاسيكية التي كرسها تاريخ الأدب بجدارة لا بنزق وافتئات، لا تتغير إلا لتتعمق، وتجدد رؤية الإنسان للحياة، وانخراط الإبداع في صوغها على نحو منسجم.

وهو ما يصدق على البيئة الأدبية العربية بدورها، التي هي في تشكّل مستدام بحكم الفتوة النسبية للأجناس الحديثة في مضمارها، ولأن نماذج التكريس فيها تعترضها صعوبات كثيرة، منها عناصر تشويش تصدر من قلبها حين يتصدى لفن القصة والأدب عامة، ناقصو خبرة وثقافة، وقليلو زاد لغة وبيان، ومن في أضرابهم. إذ كيف تؤول الكتابة الأدبية شعرا ونثرا إلى من يقطعون أوصال اللغة ويفتكون بأبسط ما ينسق الأدب، لا تجريبا أو تجديدا مزعوما، بل افتقارا فاضحا لكل دراية لا غنى عنها لمن يخوض غمار هذا البحر اللجب. إن التهاون بل الخفة في شروط الفن ومعياريته اللازمة، منها جماليته المقنعة في الحد الأدنى، أدت إلى تنسيبٍ بلغ حد الإسفاف. وإذا كنا لا نعني بتاتا أي تقديس للنص الأدبي، ولا أي مثالية، فإن الأدب يحتاج دائما لأن يقدم المثال عن أدبيته، وإلا ضاع الكلام وإنه ليضيع فعلا!

مرة أخرى، إن "مغناة الحبر"، بما تحوي من معالجة خصوصية وتميز مساءلة وجمال أداء، من واحد لم يكن أبدا من سدَنة التقليد بل مجددا نشيطا في طليعة المطورين للفن القصصي بفرنسا، ولم يقدُم نسيجُه ولا تهرّأ طرزُه، لأنه أصيل؛ هذه المغناة أعود إليها اليوم لأترجمها، ولأهديها لقراء يستحقونها، بعد أن مرت تحت جسر ثقافتي وذوقي الأدبي، وعلاقتي بهذا الإبداع، مياه ومياه، وكلها تعلمني أن الزبَد يذهب جُفاء وأن ما ينفع الجمال يرسب في القاع. المترجم

المتن:

"إن حياة الكتابة محسوبة بالوقت الذي يقضيه الحبرُ ليَيْبَسَ على مساحة الصفحة، وحين تكون الريشة قد عبرت وهو يضيء، بعد، على قمة حرف أو في نهاية كلمة، في شكل انعكاس يكاد لا يُرى، يلمع مذهّبا في كثافته السوداء، البارقة، مُرسِلا الضوءَ الحيَّ للمصباح. بهذا البريق الهارب والمُريب، كمرآة للحياة التي تنسحب، يتعلق تصاعد هذا الدَّفق الذي يتلف ويتبدّد في الاتصال مع الهواء، وإذ يشربُه يُبْسُ الورق. وحينئذ، فالريشة، وقد نأت غير مدركة موتا خلّفته وراءها، تهرب بصريرها إلى أقصى السطر صانعةً شعاعا خفيفا، معَلَّقاً، هكذا في الفراغ وُملقيا آخر أضوائه، في حركته التي تتجمد، تتقاطع، وتدريجيا تتخلى عن كل ظل لكي لا يتبقى منها في النهاية سوى الرسمُ الأسود، ليس سوى ظلٍّ شفّافٍ، يحمل صفاءه.

ويبقى الوقت الذي تقضيه الكتابةُ لفقدان لمعانها الثابت والمرن هو اللحظةُ الأثيرةُ حيث يكون لها، بعد، إمكانية العودة إلى نفسها، ثم وهي تستفيد من حركية المداد ومن سيولته في آن، تقتفي آثارَ أصولها الأولى قبل أن يأتي التيبُّس على أعضائها إلى الأبد. ذلك أنه في قلب هذه السيولة ربما استطاعت أن تعرف ما يحركها في جوهرها ويجعلها تركض في هذا الطرف من الصفحة إلى ذاك، دون أن تعلم بالسبب، في حين أن زمنها محسوبٌ وأن المدادَ وهو ينشف يغلق عليها واحدا، فواحدا، كلمة، فكلمة، أبوابَ ماضيها الخاص. وبقدر ما تستعجل الوصول إلى حالتها النهائية ـ التي ليست شيئا آخر غير مستقبل يتوالد دوما ولا يعرف نهايته ـ بقدر ما تنأى عن الاندفاع الأول الذي ولّد كلَّ الباقي وحيث يكمُن في الطرف القصيِّ منها السرُّ اللاّ مُدرَك لكُمونها.

والواقع أن الكتابة بمجرد ما تشرع في الحركة، ُقلْ منذ السطر الأول، إذ تفتتح أبسط كلمة للنص، تكون قد أدركت خطأها ولا جدوى عملها الذي يبعدها عنها، وأظهرت رغبتها في أن تعود القهقرى ، أن تنطوي في الصمت الذي سبق مجيئها، بالخصوص أن لا تضيف أي شيء للقليل الذي تهيأ له أن يقال. بيد أن هذا الوعي ما كان ليتأتى لها دفعة واحدة.. إذ كان ينبغي عليها أن تتعرف مسبقا على نفسها

في مسراها الخاص، وأن تحقق كينونتها في المدى عينِه الذي يؤسسها؛ بعبارة أخرى، فإنه ما كان لها أن تتوصل إلى هذه النباهة تجاه ذاتها وقد صيغت أخيرا بوضوح، إلا بتجميع لا حصر له من المفردات، والتي وضعت هي الأخرى حاجزا بين تجمُّعها العقيم وذكرى مصدرها الأول. في قعر الكلمة حيث المعادل يربو عن صفحة ممتلئة بأحرف تغمر الأفق، والأدهى حين تغدو متلذذةً بوجودها إلى الحد الذي تطالب به في شكله القائم وتتشبث به. إن الكتابة، منذئذ، تكون قد وصلت إلى أن تَفهم، وقد غدت أسيرة حركتها الخاصة، بأنه لم يبق أمامها من منجاة سوى منفذٍ واحد: الهروب إلى الأمام.

يلزمها، إذن، أن تلاحق، وبأي ثمن، ما يجري حولها، وأن تبقى أبدا في الطرف الأقصى من ذاتها، أن تبدو بشكل يجعل السرعة التي تظهر في ممارسة النَّسْخ تحفظ لها من نقطة إلى أخرى قدرة تحركها، بنشاط يدفئ الجملة من الداخل إلى الحد الذي يحفظ لها كل مرونتها، وعبر جلاء المداد الممخوض دون انقطاع، يمنحها شفافيتها. ولطالما اعتقدت أن ما يجعلها تستأنف وتواصل عبر كل جملة ليس في الحقيقة سوى الحلم بأن تكون أسرع، عساها تعود على عجَل إلى الهامش، وبهذا تتوصل إلى تأمُّل نفسها مثل خط مواز في مرآة السطر الذي يسبقها، وهي تعيد إليه صورتَها الأصلية متحركة وتجعله ينعكس في جسد الوجود المسبق لها...ـ ولكن، واحسرتاه ، لقد فات الأوان، إذ بين هذا وذاك قد نشَفَ المدادُ، ما يوقعها في سباق لاهثٍ عبثا تحاول أن تدرك فيه نفسها. ويحدث لها أن تحلم، طيلة هذه الرحلة اللاّ متقطعة من طرف صفحة إلى أخرى، بهذا المداد- المرآة، والذي يقدم لها أخيرا شيئا آخر غير الوجه العنيد لجسدها، الميت، المتخشّب، المتيبس، قبل، سرابٌ يتعهّد ذاتَه بذاته بما يجعل الازدواجيةَ تنقلب إلى محصلة وشيكة لتظل رغم ذلك مؤجلة.

هنا نرى، إذن، التحدي، والرهان المستحيل الذي اعتقدتُ أني أمسكت به: أن أحاول الكتابة، دون تردد وبدون أي توقف، وبسرعة ـ هل أقول تشبه سرعةَ الضوء ـ مماثِلة لتلك التي تقطعها الكتابة نفسُها لكي تفهم وتفكر في وضعها، وأن أقابل في تطابق كلي ومتواصل الزمنَ الحقيقي الذي أُحبّر فيه، والوميضَ البارقَ لهذه العملية وهي تتجه نحو الحقيقة، لتتساءل ليس فقط عن أحقية ما تعلنه، ولكن، أيضا، لنُسقط إلى الأمام ما ليس لها بعد في هذه اللحظة أيَّ وعي به. إنها لفي الواقع مفارقة، إذ التفكير الذي تتعلق به هذه الكتابة يسبق انزلاق الريشة على الصفحة بأقل من طُرفة عين إلى الحد الذي نعتقد فيه أنه هو السابق. في حين أنه العكس تماما، ذلك أنه ما كان بوسعها أن تعيَ ذاتها إلا وهي مدفوعة بسيل الكلمات وانسياب المداد اللاهث وراءها سعيا للالتحاق بها.

هكذا، يبدو ما كانت الكتابة تنوي إجراءه من تفكير وتأمل على نفسها غير قابل للتحقق إلا في قلب نشاطها. إنه لم يسمح لها أبدا بهذا التأمل، هي ومصدرها، بمعزل عن هذه الحركة النَّهِمَة التي تلتهمها كليةً فيما هي ُتوجِدها في الآن عينه ـ إننا نعُدُّ هذا مكسبا ـ . لقد لزم عليها أن تنحفر

عميقا، تاركة الفسحة المطلوبة لهذا الحبور اللا مرئي الذي تتعهّده بداخلها، وقد غدا غرفةً سريةً رُتِّبت بداخله مقدرةُ أن تَصُدَّ عنها ضجيجَها وأن تحفر بيأس في عدّ عكسيٍّ مما كان يجعلها تبتعد باستمرار عن مركزها. وأيُّ شعلة باهتة هذا الوعيُ الذي كان يلزمني ـ وقد كانت هذه هي الغاية الوحيدة من وجودي ـ بأن أغذّيها وأنا أضيف إليها مزيدا من الزيت ـ الكلمات تلو الكلمات!ـ ،التي لم يكن المعنى هو المهم فيها بقدر حضورها الكثيف والعاجل.

وهكذا، ودون أن أنساق وراء أيّ إفراط، وبالحسِّ الغامض، لأواجه هنا، إن لم يكن بعض ما هو ممنوع، فعلى الأقل تخطي صعوبة شاقة ؛ هكذا جعلتُ من واجبي أن أصُفَّ الكلمات بأسرع ما يمكن دون الاستسلام لأي إلهاء بُغية الوصول إلى أن يتطابق فعلُ الكتابة ووعيُها الخاص، السؤالُ وصيغتُه. هكذا كان الهدف: دون أن أتأمل أو أفكر في شيء أستبقُ فعل الكتابة هذا، وأصعد نحو منبعه ـ لذلك فإن مصدر الكتابة لا يقع، كما قد نعتقد بسهولة، في ماضي النص، أو في عاليه كما لو كان نهرا، ولكن في المستقبل العاجل للفعل، بالضبط في مقدمه، في طرفة العين التي تفصل الريشة عن نقطة ازدهارها على الورق ـ من هنا أعبر الحاجز الذي يشكل الأفق المرئي للغة؛ كما لو أن الأمر يتعلق بأن أذهب أسرع من التيار قابضا على الكلمات لأتخطاها وأبقى في طليعتها عند نقطة من التراوح الهش، تماما في الحيِّز الذي تتشكل فيه، وهنا، في العتمة البيضاء عديمة الاختراق التي تنتجها.

لقد تمثلت لي الطريقة الوحيدة للتحصن بأقل مقاومة ممكنة لقوة هذا الدفق، والبقاء في هذه الوضعية، في أن أظل في حِلٍّ من كل قصة أو حكاية، وأن أقلل من الدلالات الخارجية التي تعنيها في ذاتها منصرفا عن كل الانتقالات والتطورات التي تعتقد الكتابة أنها مضطرة للجوء إليها عادة كي تمارس الخدعة، فتصل،هذه، حتما إلى الاختناق، وبالنتيجة إلى ضرورة أن تجعل من ذاتها موضوع حكيها، ذلك أن الجميع يعلم أن العقدة التي تروي ليست إلا الذريعة التي تتخذ من أجل أن تسترسل في الخفاء، وأن لا تظهر بتاتا بما هي عليه. أن أسحبها من اللجوء إلى حُجّة ما وأحُولَ دونها وأيَّ مرجع، بل ولأقَلِّ سردٍ كان، لكن دون أن أتخلى، مع هذا، عن الإبقاء على الحركة في فراغ؛ ذلك كان هو التكتيك الذي تبنّيت. وبه وجدتْ نفسها عزلاءَ من كل سلاح، شاغرةً، وأخيرا مرغمة، كي لا تختفي، لأن تتحدث عن نفسها؛ وليس معنى هذا أن تشمئز إزاءها. لا، قطعا، وكل ما في الأمر هو أن نظرها إلى حالها وقد غدت مقلصةً في هذه الوضعية القصوى إلى أدنى حالة تعبيرية يؤكد لها أنها كانت ستقترب على نحو خطير من هذا المركز الذي يجري السعي لإبعادها عنه. وبذا لم يعد بوسعها أن تتقنّع سوى بالطريقة الوحشية التي تضطرها لأن تتغذى من لحمها، ولتواجه ذات يوم أو آخرَ محظور خيانةِ نفسها أو الانتقالَ إلى الاعتراف. فكم سيتأتّى لها، عندئذ، أن تصمد، وهي مختنقةً، مكبلةً، ومقطوعةً عن العالم دون قارب نجاة؟ من سيستسلم الأول، وماذا لو أنها آثرت

الغرق على أن لا تبوح بشيء؟ على كل فإنه هنا، في هذا المكان المحدد، قررتُ أن أَلبَد، مثل متربِّص ماهر، حذِرٍ وعنيدٍ في آن، لاعباً الاستنزافَ والوقت دون أن أكون موقناً تماما من حالة قواي، اليقِظة كلياً للعبة الإشارات، هذه، وزوالِها المحتمل، واضطرابِها.

كنت أشرع، أحيانا، وأنا مشدود إلى مراقبة هذا المسرى الذي لا ينفد، في الشك من انسجام مشروعي؛ ذلك أنه من المحتمل، أيضا، أن يكون حضوري قد رُصِد منذ وقت طويل، وأن خطتي قابلةٌ لأن تنقلب عليَّ، مع محذور أن أبقى ملقىً بي وحدي ومهملاً في هذه الصفحات وتتحول وضعيتي الراصدة، بفراغها، إلى منظر مضحك لا يكشف سوى عن بطلان مشروعي. لكن، وفي الوقت نفسه، وبما أن كل هذه التساؤلات تمر بواسطة الكتابة، فمن المحتمل هنا، أيضا، أنها هي التي تلهمني بها لتشوّش فكري، وتجعلني أتشكك في نفسي، وأرخي الحبل على الغارب، ولحظة التردد، هذه، تكفيها لتباعد وتهرب.. لقد بدا لي واضحا، وأنا أفكر في ذاتي وأتساءل عن مدى صواب استراتيجيتي، أن انتباهي الذي زاغ عن موضوعه الأصلي، قد تسبّب في حفر هوة، دون قصد لذلك.

وكان الوقت قد حان لاستعادة السيطرة على الأمور، وللحسم في عمق الكلمات من غير أن أنشغل بمزاعمها. ولكن بدا في مكان ما، أن الامتداد قد توقف، والخيط القائد انقطع.. ولهذا السبب لم أكن أتوصل بتاتا إلى الانطلاق بالسرعة المطلوبة؛ في ما بعد وجدتني ملزما أن أتوقف لأفكر، لأبحث عن جملتي أحيانا، شاعرا بعدم الارتياح، بأن أعيد النظر في مقاطع بأكملها. لقد أخذت النقائصُ تلحق كتابي، وطفقتْ تتعثر ويكثر فيها الشطب الذي أحدث ارتباكا في الصفحة تلو الصفحة ناشرا الالتباس وُمحدِثا شروخا في انتظام السطور. وبالإثارة شبه المرعبة التي تمارسها التشطيبات فإنها كانت تبطئ حركة المجموع، وتقدم فكرة تضطر باستمرار للعودة إلى نقطتها الأولى وتتهالك بمآخذ أنها لم تقدر على تجنب هذه الأخطاء والتخطيطات التي تشوّهها، تعتبرها بمثابة حجة على عدم أهليتها لإنجاز وظيفتها كما ينبغي، وساعية، في نظري، إلى الانتقاص منها.

خلالئذ، ومستفيدا من هذا الوعي الشقي، كان ثمة شيءٌ يواصل أمامي في هذا البعد الذي لا أدرك فيه أنني كدت أفقد أفضل ما لديّ من أسلوب، وفي بعض لحظات الكتابة الممتازة بمرونتها وسرعتها أن أمسّ بأصبعي أو أُسمّر الورق بضربة ريشة. قليلة هي الأشياء التي كانت تكفي لألقي على هذا الظل المتماهي، والهارب، في هذه اللحظات؛ أن ألقي عليه الشباك الثقيل لشكاواي وأخطائي، للحروف الصامتة والحروف الصائتة، للمنحنيات والخطوط، السلاح الوحيد الذي لم أتوفر عليه بعد بغية وضع اليد على ما تبقّى من الحقيقة. ولكن، كان ينبغي لكي أصل إلى هذا المكان أن أبذل مزيدا من الجد، أن أتدرب بانتظام على هذا الشيء الذي يصعب ضبطه، اللا متوقع والمربك، والذي لا يبطئ في سباقي لتعِلاّت عديدة ولكن يقاوم أقصى درجات المقاومة ضد الاستعمال. تهيأ

لي أكثر من مرة أنني طوعتُ الشكل وحسّنتُه. وفي لحظة معينة ما ألبث أن أحس بأن هناك ما يعترض على حركتي، يُضيع عليّ فرصتي وفائدتي.. أن هذه الكتابةَ المرغمة على أن تصارعَ نفسها، والمأخوذةَ في تناقض مستدام تبدي نحوي مقاومة سلبية، وأنها تلعب معي بقوتها الخاصة لتحُول بيني وبين الوصول متظاهرةً أنها تخدُمني. ففي هذا السياق المرير بدا واضحا أن هذه الكتابة، رغم تحملها للجهد الرئيس المبذول، تراوغ لإضاعة وقتي، وتخريب كل خططي في اللحظة الأخيرة. ودون أن تتوفر لديّ الحُجة الدامغة، فإن التحجيم الذي تتعرض له ُخدَعي واحتيالاتي المُعدّة بمهارة يجعلني أفترض وجود من يتآمر عليَّ خلال نشاطي هذا.

ولكن، هل تبقّى لي الوقت للدخول حقا في مثل هذه الاعتبارات؟ أو لم يبدُ محسوساً أن الإيقاع عاد بغتة لسرعته، وأن الكتابة لكي تمنع عني كل متعة لاستقبال الأسئلة التي تزيد من تشكيكي فيها، كانت قد قررتْ أن تلعب معي ورقة المصالحة. فجأة، أيّ قطار جهنمي هذا يلاحقني! لقد كانت الكلمات تتسارع في هذه اللحظة بسرعة جنونية لدرجة أني كنت أكتب أوائلها، بحيث إني اضطررت للاستمرار دون توقف، بلا فواصل، ونَفَسي يقفز معها، متجنبا الوقوع في خطأ وتَخيّل باقي الاحتمالات لنهاية الصفحة. والمهم، أن أبقى في حالة تيقظ مستمر كي لا تُحفَر أمامي أيّ هوة. من هنا تولّد اهتمامي الأول: أن أتخطى العقبة في الزحام دون الالتفات إلى الوراء، ونظري متجه صوب أفق الخط الذي ستتدفق منه الكلمات وهي تستعد للدخول إلى الحلبة وحيث تترابط على حين غرة علامات الاستفهام أو التعجب: علامات التوقف التي ترغمني على الإبطاء، وهي تحاول الزجّ بي في ديمومة مصطنعة ومتباعدة بإفراط.. عندك علامة الاستفهام التي تقوم حاجزا وتُصدر إليّ أمرا للتخلي عن الخيط الأصلي الذي أمسك به، تصرفني إلى سؤال لا ضرورة له أو هو على كل حال بلا جدوى، وأُلزَمُ بالجواب عليه؛ فهل لهذا حقا من ضرورة؟ ثم هاك علامة التعجب التي َتصفِق في وجهي مثل الباب على الوجه! وأسوأ ما في الأمر كله الأقواس(الأتعس حقا هي العارضة) ـ التي ترمي بي في طريق مغاير وتأخذني نحو المغامرة مخاطرا بأن أفقد الاتجاه الأصليّ وأن أزيغ في تيهٍ، كما في تفاصيلَ تلو تفاصيل...

ناهيك عن الأخطاء الإملائية التي تفلت مني وأنا تحت ضغط هذه العملية وبسبب قلة العناية؛ فأكون مثل من ضيّع شيئا في الطريق وعليه أن يتوقف ويرجع إلى الوراء لاسترداده مضيّعا وقتا ثمينا في البحث بين السطور ونبش الحروف وتصحيح ما لابد منه، ما لا ينبغي أن يحدث، وما يلزم حسمه في الحين. هذا إذن، ما وجدتني محمولا عليه: أن ُأسوِّد وأسوّد دون هُدنة، وأن ُأُبقي على هذا الدفق من المداد على الصفحة لكي لا يتبقّى لي سوى الجزء الحيّ من فعلٍ لا يزُعم أكثر من أنه يغطي بما فيه من مخزون وتغمُره مخارج إفرازاته، أو كما يتبقى في النهاية عَظمٌ مفرَغٌ وُمتيبّس له لَمعانٌ تحت الشمس ولكن هشٌّ وعُرضةٌ للأمواج والمناقيرِ النهمةِ للعصافير: ــ كتاب!".

تعديل في موسيقى الحجرة

قاسم حداد

١

تَعِبَ الظنُّ.

ما من خليجٍ. وهذي الخليقة تكبو، ويكبر أطفالُها ويستفحل فيها الظلامُ. اطمئنَّ لها الطيرُ، واستقرتْ إبرٌ في الغرائز. جاءتْ جيوشٌ تجرجرُ أحلامَها / لحمُها الأدوات، وتختبر فيها العناصرُ. تغزو. تناوبَها الرومُ والفُرسُ والنغرس المستمر، وانتهبَ التركمان تضاريسها وانكسرَ الصولجانُ، وامتحنَ القرامطةُ الزرعَ والضَرْعَ، واحتربَ الزنجُ فيها نخيلاً وماء. بدأ الزارعون لكي يحصدوا، غيرَ أن البحارَ لها آيةٌ في الجزيرة. ما إن تضجُّ الطيورُ الصغيرة في الدمّ، وينتابُ أطفالَها الوهجُ، حتى يطيش بها المِلحُ، تنهض أحلامُها / لحمُها في الخليقة، في ما تبقى من البيت فيها، وأطفالُها شجرٌ يابسٌ في الجيوش.

سمعنا / رأينا

الأساطيرُ تخرج مذهولةً، والجزيرةُ تجري وتسحبُ أشلاءَها.

فإذا صادفكم بُرجُها، وانتصفَ الليلُ، حُطُّوا ركابَ القوافل في حزنِها. سوف تكتب أسماءَها المستثارة في زَرَدِ الخيل. نخلٌ يُوَزِّع خضرتَه كتباً وتعاويذ.

فانتبهوا

كلما سمعتم / رأيتم.

٢

يبعثُ الأنبياءُ رُسلَهم إليها، ويرسل الملوك الجيوش. سلامُها أكثر فصاحة من الحرب. ألسنتها كثيرة ولغتها واحدة:

ماذا تريدونَ منها

ماذا تأخذون؟

أبوابها على الأفق، والبحرُ مفتوحٌ على بيتها. كلُّ نبيٍّ جوابٌ، وأسئلتها تصدُّ الملوكَ. كلما ماتَ نبيٌّ ارتفعتِ الصواري وارتدَّ الموجُ عن الغزو. وانتفضت الأسئلة:

ماذا تريدون منها.

ماذا ستأخذون؟

خيلٌ تجر سجادة البحر، فيأتي الساحلُ بأسماله وأعشابه ورمله وقواقعه وحاشيته، في شباكٍ مهلهلة. يدخل السوق. يطرح مخلوقاته ويبدأ في مديح العمل. ويبدأ الناسُ في زرعهم. النخل مظلات لهم. أعوادُ البقل عكازاتٍ في بريد الأنبياء وعسكر الملوك. لا ينجو شعبُها من موتٍ ولا ينال الحياة.

ماذا تريدون منها،

ماذا ستأخذون؟

حوضُها مرضوضٌ بالحافر والخفّ.

صلاتُها مكسورة وحربُها منصوبة،

لا تدخل القتالَ،

لا تُحسنه ولا تريده.

٣

طَفِقَ الخزافون يحفرون الأختامَ وينحتون الرُقومَ ويرسمون الرقشَ في زندها. لئلا يخطؤها الطوفانُ ولا تَقْصُرُ التجارةُ عنها. يهندِسُ سَدَنَةُ العملِ الأفلاجَ لها، فلا يتأخر الماءُ عن مكانه ولا الزرع عن أوانه. شعبٌ يكالمُ الأرضَ ويستدرجُ الطبيعة ويأتلف مع العمل : كلٌّ على قدر حاجته.

تجري الأرزاقُ مثل الماء في الجداول.

ما من رسولٍ إلا ويدُه في الصلصال، ولا جندٍ إلا آلته في الشغل، وللدول قناصلُ تعرف الحَرثَ والغرسَ وفقه الأسلحة.

فماذا تعطون وماذا تأخذون؟

٤

يتحشَّدون مثل الأنعام وهي تُسْلِمُ قيادَها للصوت والصدى. تصدر عن النص ونقيضه، فيذهب الصدى بالحشود، مما تبقّى من الكيمياء، كلام البخار يمحو بشراً تندلع فيهم شهوة الشكِّ، فيندفعون يستسلمون لرمادٍ باردٍ، يتكدَّسون في مداخل القرى ومنعطفات المدن. يفتحون الحناجر، ويغلقون الطرق. فيذهب الصدى بالحشود، مما تبقى من الفيزياء. جراحهم تطلع في أنفاسهم مثل بخور الجنائز، أكثر جَهْراً من الموت، وأكثر خفاءً من الصلاة. خرافيون، يضعون لمواكب الجموع سككاً، وللأحلام طرقاً وطرائق، لا تتأخر ولا تنحرف. تتدافع أرواحٌ مهمومةٌ مكسورة، تَفِرُّ من ضَوارٍ فتقع في الأشراك والخدائع. كلما طرحتْ فلذاتَها في السفوح والسواحل ذهبَ الصدى.

بلادٌ، بوتقةٌ للفرار، وشعبٌ من الغبار ومنافحات الأسرى. بين البرزخ والأرخبيل حشودٌ هشيمٌ. يُصَغِّرُونَ جبهةً للصلاة، وفي قيامهم تأتي التربة والسجادة وتذهب بالأسماء والأفئدة، فلا يعود السؤال يسألُ ولا الجواب يعرف. وليس في الحشود من يصغي. فيختلط القولُ بالقائل، ويدخل الوقتُ في المكان، لا يدرك الدنيا من الآخرة. تصعد فيهم الروحُ في سقف السماء، فيذهب الصدى بالصوت والحشود.

٥

تضعُ السماءُ عجيزتَها في قصعة الدم. إرثُ الأسافين بين القرى والمدينة. في الخاصرة في ركنها الجاهليّ. ليست سماءً. لأخبارها لعينين دامعتين، لما بينَ بينْ. انتهى ما يسمى بلاداً إلى كهفٍ. وهي في قصعةٍ. كنتُ سمَّيتُها. وهي في الغَيِّ. أحببتُها مسجداً في الكنيسة، نورساً تائهاً في الخليج. قلتُ هذا المزيج بلادي. وقلتُ. بَكَتْ. أجهشتْ. وأحببتُ ما عندَها من رسائل. جاءها الأنبياء:

سليمانُ في لغة الطير. يوسفُ في سجنه. عيسى على خشب الصلب. موسى كليم السماء. أحببتُ ماء الزعفران بها. وأحببتها وهي سادرة. عَبَرْتُ لها المفازات. كنا نُسمِّي بلاداً. وهي تفاحة. هي الختم. يا غيمُ غيِّرْ جذورَك. ليستْ سماءً. وأخبارُها لغة الأنبياء لمّا يجيئون:

يونسُ في حوتِه. نوحٌ على الفُلك. أيوبُ في مرض الموت. كلُّ نبيٍّ كتابٌ على بابها. كنتُ أحببتُ فيها، وأحببتُها هودجاً ضائعاً بالمليكات. جيشٌ من العطش الجاهليّ. يجيئون يستنفرون لها: أمويون، عبابسةٌ، زنجٌ وقرامطة وعيونيون، صفويون، عصافرة، ونصارى ومرضى من العشق. عربٌ عاربةٌ هاربة كالغبار. يعبرها الجندُ، يحرسُها بحرٌ يزخرفها بالأسماك الحُسنى. سماءٌ تفَهْرِسُها فَرَسٌ في الكتاب.

٦

رأيت الخريطة نهراً تتركه الدلالة
هَمَلاً بين موتين.
يموتون،
ماءً يضيِّعه رَمْزُه
ليس يدري مآله.

٧

شرفٌ
أن ينهضَ البحرُ بأقدامه القُزحيّة
يأخذني،
يأخذ من لغتي لثغةً ذهبية
ويخطفني موجةً موجةً
مثلما ضَيَّعَ الماءُ معجمَه في طيورٍ
وأطلقها في كلام الشعوب القصيّة
شرفٌ أن يقرأ الشرقُ أخبارَه في كتابٍ
سيمنحني جنةً لا تُطال
ويتركني ليقين الجحيم
فهل كان بحرٌ،
وهل في لسان العرب الفاتحين،
من الضوء،
ما ينتهي في تفاصيلنا الدموية.

٨

يبتكر البَدوُ في رقصهم سيفاً

يَسنُّونَ السماءَ به

ويؤجلون الأرضَ بالعشب القديم

تبدأ القطعان في المرعى

وتضطرب الدماء.

جاء البدو وابتكروا

وغنَّوا وانتَهوا

يتحاجزون على القرى

وتكون شمساً في العماء.

٩

انتظرتُ أن يُقبِلَ البحرُ عائداً على قدمين من العشب، يبشّرنا بما سَهَت الفهارسُ عن رصدِه بالتفاصيل التي سقطتْ من "دليل الخليج"، في نسخة الهند.

انتظرتُ المخطوطَ المحبوس في مكتبة الله، ليخرج يقطر بالحبر والملح، يبحث عن ألسنة ضائعة، يحسن فكّ الحرف، ويخبرنا كيف تهجَّى البحرُ كلامَ الأرض.

انتظرتُ بيارقَ أهل الردة ترجع، في حجر الأسئلة الأخرى، تنبثق النارُ من النارِ، وينهض كلُّ نبيٍّ من وهدته.

يدرك ما ينهار، ويسبق من يرتد.

١٠

انتظرتُ حمامةً تفشي لنا سراً عن الطوفان.

قلتُ، لعل ماءً غاضباً خلف الغموض،

لعلنا، سنغير العنوان،

لم يأتِ الحَمامُ

ولم يكنْ برقُ انخطاف الطقس ماءً،

لم يكنْ حتى دماءً.

كانت الرؤيا تَغيمُ،

وأنبياءُ الله في سُفنٍ تَهيم،

لعل طوفاناً سيدرك شعبها

قبل انتهاء الأرض،

تنتظر انتظاري في السديم.

١١

انتظرتُ قافلة المعجزات، لكي لا أرى سماءً مشدودة تغادر في الإبل. تتدلى منها كتبٌ وخرائطُ، وفناراتٌ. سربُ العميان يقود العطشى للماء. لعل القافلة تأتي.

١٢

عَكَفَ النطّاسون على علّةِ اللؤلؤ. لكشف الداء ووصف العلاج؟ فكلما فتحوا محارةً عطستْ في وجوههم، وانبثقَ ما يشبه الدخان الخائس، وتراءتْ لهم فلذةُ نورٍ مدحلبةٍ، تريد أن تهربَ في خجل الكائن لحظة خلقه. فيظنُّ النطّاسون أنهم قَصَروا عن إدراك الخلق وتأخروا في المعرفة. وحدهم الغواصون صائدو اللؤلؤ يقتنصون اللحظة المريضة، ويحصدون اللؤلؤ في المحار، وساعة اقتسام الليل والنهار يتخذ النطّاسون وضعَ الربح والخسارة، فتبدأ التجارة. في لحظة الصدفة بين العذب والأجاج، يبتكر الزجاجُ تقنية الحجر الكريم. تُقايضُ المحارة حبة القلب والحجارة، باللؤلؤ المريض.

١٣

انبثق الجمرُ واستيقظتْ فتنةٌ،

وازدهرَ الضاغنون،

كأنَّ الجنون.

١٤

طرحتْ أساطيرَها في ناس الأرض
فحملوا إليها مرضى الموت
وقَصَدَها مَنْ نالته الأسقامُ
وسعى إليها الموشكون على السفر
لكي ينالوا من جنتها بيتاً.
فأضحتْ جبّانةَ الأرض
وامتلأتْ قبوراً وقتلى،
وصار لكل ذي عِلةٍ تلةٌ
يتراكم الموتى
والماءُ حجرٌ في الحناجر،
آخَتِ الخناجرُ جراحَ المكلومين
فاحتكمَ المظلومون إلى الظلمة
والغزالةُ إلى الضبع
والعبيدُ إلى السوط
فإنْ مررتم بها وسمعتم أنينها
لا تحسبوا ذلك من حنين الإبل
لكنه شجر الزنزلخت،
فاعطفوا أعنَّةَ خيلكم نحو إيوانها
تجدون البُسُطَ والسُّمُوطَ والسُرادقَ
منصوبةً لكم،
تنالوا النبيذَ و القَدِيْذَ،
تلك هي صورتها
قبل البحر وبعده.

١٥

أبانا الذي في البِحار
تغيبُ طويلاً بحجة اللؤلؤة الضائعة
فكرةٌ رائعة
وتكفي لنقتنع الآن بالانتحار.
أبانا،
ونحن هنا وحدنا في الجزيرة
تحت السماء الأخيرة
ما مِنْ وليٍّ وما مِنْ نبيٍّ
ومن دون جدوى
وليس لنا أملُ الانتظار.
أبانا الذي في البحار
هل الليل في الهند
أقصر من ليلنا
وهل موت أفريقيا
سيكون رحيماً على أهلنا
كي تغيب طويلاً هناك
وتتركنا
توزّعنا في الطغاة
وتقرأ صبراً علينا
وتذهبْ
تعللنا بالتجارة والغوص،
والفقر فينا، وتذهب.

تُحرّرُ زوجاتنا

وتطلقنا للغريب

ليعبث فينا ويذهبْ.

أبانا،

تخلَّيتَ عنّا

وأسلمتنا للقراصنة المحبَطين

لتعسف بنا.

هل ترى سوف تنسى بنيكَ

وتفتعلُ التيهَ

تغرق في زنجبار

وتترك للسادة الملحدين

لتنحت أجسادنا بالقواقع

والحجر المستثار.

قل لنا،

يا أبانا الذي في البحار

متى تنتهي من عذاب الخريطة

كي نستعيدك

نبرأ من علَةٍ في المحار.

١٦

... وكانت إذا ما دخلتِ السفنُ الألفُ

في البحار التسعة،

لتسوّر الجُزرَ / تصونها وتحميها،

طاشَ الخليجُ بموجٍ يتصاعد ويندلح،

يرفع الخشبَ نحو الأفق

ويجرف الأسماكَ نحو السواحل.

فتظهر للسفنِ أسماءٌ تَشِي بالصِفات والطبيعة :

السنبوك، البُوم، البِتِّيل، الماشورة، الوَرْجِية، البَقّارة، الكِيْت، الشُوعِي، الصَمْعا، الجَالبُوت، الهُوْرِي، الذِّخِر، الصِيْخ، الشاحُوف، البَغْلِة ..

فتكون أبوابُ البحرِ أكثرَ من أبواب السماء.

غير أنَّ الريح ليست صديقة السَّفَر. فالموج سيوفٌ وخناجرُ تحزمُ الماءَ بالأشراك والخدائع. فإذا كنتم في ساحلٍ أو مركبٍ أو رحيل. ولمحتم ذلك البريق الوامض، فلا يظننَّ أحدٌ أنها السماء. إنه بَحْرٌ يستفردُ بالطريدة. فجرّدوا أدواتكم لتَخُطّوا تاريخَها. حيث العاصفةُ شقيقةُ الطريق، والسفنُ خشبٌ يرسم النعشَ. والصواري صليبٌ يسعُ الفيزياء والشكّ.

١٧

الخليقة وأطفالها، يُقبلون على الأرض في هيئة البدء، فينتهون. يصبّون أخلاطَهم في القوارير. يتقدَّمهم الدمُّ الطَهُور. تَتَخَطَّفُ أرواحهم خطوات السديم. ويتماثل في أشكالهم الوقتُ مثل رمادٍ في الدم.

الخليقةُ وأطفالُها. سمكٌ يتألم في حضن الماء. برزخٌ يجزُّ الجسور. في امتزاج البدء بالمنتهى.

هذه / تلك / من أين /

ماذا ترى؟

جزرٌ ترتجُّ تحتَها الصلاة. جنسٌ يَجْزُرُ، وكَسْرٌ لا جَبْرَ له.

فَيُسْلِمُ حَشْدٌ تاريخَه للحشر.

الخليقة وأطفالها.

تيهٌ جديدٌ يخلخل عِلمَ البِحار،

تلك هي وردة "ابن ماجد" وهي تذبلُ

ولا أحد يعرفُ

من أين جاء "بن ماجد".

يقود الجزيرة بالخيط كالموج

يضلل أسطرلاب الطبيعة

يجترح بوصلةً للضياع،

ويقترح الشرقَ على الجهات.

١٨

حجرٌ في الطريق

أثرٌ في الطريق

يربطون الإبريسم المنذور بخضرته اليانعة، يَنْسِلُونَ منه القمصانَ والعصائب. يصير هو الطريق والحجر وفجوة الرأس. يتنادَون، يطرحون الصوتَ للصلاة والحرفَ للبيت. يجمعون من حصةِ البُرِّ ونصف اللقمة، وفي يوم الجمعة والخميس والسبت والأربعاء، يَشِيدُونَ المساجدَ في أرض مَغْصُوبةٍ فتصير بيوت الله فجوةً في طريقٍ مقطوعة. وينشأ بين المسجدين محرابٌ وراكعون. مساجد أكثر من المؤمنين. كلما كَثُرَ المُصَلُون شحَّت الصلاة وقَلَّ الدين. المسجدُ أن تَضَعَ حجراً على حجرٍ، الطريق أن تسألَ حجراً عن حجر. للهِ بيتُ المكان والوقت، وله العراءُ والتيه.

١٩

بلادٌ / جزيرةٌ / جزيةٌ / جنةٌ / جَبّانةٌ / جنون.

تقرأها النساءُ، يذهبنَ بها للقواميس ويخرجنَ في هيئة الأبجدية. يغزلنَ لها أطفالاً يَتَهَجَّوْنَ بلاداً ذاهبةً في جحيم المعجم. نساءٌ يطلبنَ الحُبَّ من المهد الى اللحد.

جيمٌ جثة / جيمٌ جنازة.

بلادٌ تطلبُ الحُبَّ فتصابُ بالجُبِّ.

وفي النساءِ ما لا يفنى

عندما يموت.

٢٠

قيل فلما انبثقَ الزعفرانُ، ازدهرتِ الأوسمة وشَحَّ الدَّسَمُ، فانتُهِبَ الثلثُ واقتُسِمَ الثلثان بين المَلَك والممالك، وتفاقمتِ الحضارة لتصيرَ وَرَمَاً وطُحالاً، وانتشرَ في الأرض دعاةُ الوباء بوصفه دواءً.

لا مسافةَ بين الصحراء والسفر، لا وسائلَ ومن غير لغةٍ.

وانحصرتِ المعاني وكفَّ الأدلاءُ.

لم يعد الزعفران لوناً ولم تعد الرائحة.

فإذا سرى فيكم عطرُها، قِفُوا حولها، واصبروا عليها، اصبروا، إنها حرّةُ البحر، يمنحها الحوتُ حبةَ العنبر بلسماً لجرحها، ولؤلؤتكم نجمةٌ الليل.

٢١

عرشها على الغَمْرِ. الماءُ قرينٌ لها، والوقتُ أيقونة صلاتها. حتى إذا أدركها الحيضُ، اصْطَفَّ الملائكةُ بقناديل النهار والليل، بالزهر والقرنفل، يتلقون دمَها الطَهُور بالدوارق والأباريق. يُطوِّبونَه بالعود والبخور، يهبونه بالقسطاط لتعثّر العذارى بالحب، العوانس لا يفوتهن الرجال، والعواقر لئلا يخسرنَ حبلاً ولا مخاض. ذلك من خير الأرض إذا أعطتْ، وثمرها كلما أينعتْ. فبعد كل نذرٍ صادقٍ، يفيض الحيضُ ويَكفُّ الحيف.

٢٢

فلتكن، يا بحرنا، برداً بنارك. فالحبُ دارُكَ. والخوفُ جارُكَ.

فارأفْ بمن ضاقتْ به الأرضُ، واجعلْ لنا جنةً في جِوارِكْ.

يا أيها البحر كُنْ جناحَ الشريد إذا هَجَمَ الجُندُ،

كُنْ،

ثم خُذنا. وخُذْ في النوارس أخبارَنا.

خذ بريداً لنا.

يا بحرنا،

كُنْ لنا خيمةً في الصحارى،

وكُنْ نزهةَ الصيف، كُنْ دفأنا في الشتاء.

هذه الأرضُ لَكْ،

أشجارُها بالثمار القديمة لكْ

والكتابة والمحو لك

والجُسورُ المشادةُ بالعظم واللحم لك

وأولادنا قبل أن يولدوا

في المهد لك

وفي اللحد لك

مراكبنا، وهي في مائِكَ الأزرق، لك

لك الأنبياء

لك الشعرُ والنثرُ والخيرُ والشرُ لك.

بلادٌ، تفاصيلُها واحتمالاتُها

كل أسمائها، منذ قرنين لكْ،

وليس لنا غيرُ نسيانها.

أيها البحر

يا بحرها

كُنْ لنا مرةً .. كي نكون

كما القلبُ،

يؤلِّفنا حبنا موجةً موجةً

من غير أن نسألكْ.

من كتاب قيد النشر بعنوان (تعديل في موسيقى الحجرة).

فصل من رواية الصخرة*

فيصل حوراني

في هذا الوضع، صرتُ، بمضيّ الوقت، واحداً ممن يفترس الإحساسُ باللاجدوى مزاجهم ويبدّد الخواء طاقتهم وما اختزنوه من خبرة، واحداً من الذين تتناوشهم الغصّات.

ولئن اشتدّ صخبُ التذمّر مع استشراء الغثاثة التي تقترن بالفساد، فقد بقي في أيدي المفسدين السلاحُ الذي يُحبط معظم المتذمرين، فأفرطوا في استخدامه: المال الذي يبرّر السخط ويوجّه التذمّر في مسارب تبدّده. ولم يفتقر المفسدون والفاسدون إلى راية جليلة: الأخطار محدقة بالشعب وثورته، وفي أوقات الخطر يتّحد الجميع، ولا مجال لنشر أيّ غسيل قذر. وأنتم تعرفون أن الأخطار ظلّت على الدوام كثيرة وشديدة، فلم ينقطع تواترها في أيّ وقت.

كنتُ أشهد كيف اختلط أمرنا، كيف امتزج غريب الآراء بغريب السياسة بغرائب السلوك، وكيف أنتج المزيج ثماره الغريبة. فسادٌ يتستّر بدعوات جليلة. ونفاق يتستّر بالحاجة إلى الالتفاف حول القيادة. وتفلّتٌ من التزامِ ما هو لازم، يتستّر بالدعوة إلى الوحدة الوطنية. وترّهاتٌ عديدة تختلق ما تتستّر به أو لا تتستّر بشيء. كنتُ أرى كيف يُطوّع فاسدو الرأي والضمير والذمّة حتى بطولات الأبطال وأمجاد الماجدين لمصلحة فسادهم. وكثيراً ما تساءلتُ بيني وبين نفسي عما يُبقيني في الساحة، أهي حقّاً الحاجةُ إلى الاتّحاد في وجه الأخطار، أم هو تهيّب الإقرار بالعجز، أم هو تأثير روتين صار آسراً، أم هي، قبل أيّ شيء وبعده، عادة التواجد مع الربع في الساحة التي لم يوجد لنا سواها؟

---

* فصل من رواية لفيصل حوراني تصدر قريبا

بمضيّ الوقت، انتهيتُ إلى ما انتهى إليه غيري، شلّة أصدقاء جمعنا في البداية الإهتمامُ بالمطالعة، والحاجةُ إلى تبادل الكتب. ثم قرّبت بيننا اهتمامات مشتركة أُخرى وأمزجة متماثلة. وصارت لنا في الساحة التي صار لها سمات الغابة مصطبةٌ شكّلنا نحن نواتها وحفّ بها آخرون كثيرون. وأقنعنا أنفسنا بأن مصطبتنا هذه نقيّة. ولم نبخل على مصطبتنا براية جليلة: أن تكون قدوةً في نقائها. وقرَنّا الراية بدعوة جليلة هي الأخرى: أن تتّحد المصاطب المماثلة ذات يوم، فيصير لها الصوتُ الغالب، ويندحر الفساد.

ولكي لا نُقرّ بعجزنا عن تبديل الحال، لكي نحتفظ بمسوّغ الاستمرار والركون إلى تميّزنا، صرنا نغالي في تصوّر حجوم الإنجازات وننسب ما يبرز منها، بعضه أو حتى كلّه، إلى جهودنا. وأغلبُ ظنيّ أنّكم لم تنسوا كيف كنّا نجمع خيوطاً متفرقة ونغزلها حكايات نُظهر بها أن العطب طارئ، وأن إصلاحه ما زال في المتناول. وأنتم تتذكّرون، دون شك، كيف كنّا، نحن وأمثالنا الذين توزعتهم مصاطب عديدة، نحثّ على الالتزام بالجماعة، وندعو إلى تغليب الأهمّ على المهمّ، ونعلّل أنفسنا بأن المهمّ سيأتي دوره ما أن يتم إنجاز الأهمّ.

هل كنّا واثقين حقاً بأن الدعوة إلى الإصلاح ستتحقّق في أي وقت، أو إننا كنّا نداري أرقَ ضمائرنا بالبحث عن مسوّغات للاستمرار في ما ألفناه؟ تغليب الأهمّ على المهمّ، ألم يُفض إلى القصور في إنجاز أيّ منهما؟ ألم يستمرّ الفساد السياسيّ والتنظيميّ والإداريّ ومعه فساد الذمم والقيم؟ وهل يُمكن بلوغ الأهمّ دون إنجاز كلّ ما هو مهمّ؟

لا أتذكّر متى بدأت هذه الأسئلة تراودني، لكني أتذكّر كيفَ كنتُ أُنحّيها كلّما راودتني. فإذا اشتدّ حضور الأسئلة بحيث يصعب إغفاله، كان حدثٌ ما يقع، عدوان غالباً ما تكون إسرائيل هي المبادرة إليه، فيُسهِّل عودتنا إلى حكاية المهمّ والأهمّ. والأهمُّ دائماً هو الإتّحاد لمواجهة العدوان الخارجي. صرنا المريضَ الذي داهمت الأمراض جسده وروحه فقاومها ما وسعته المقاومة. وحين استعصت أمراضه على العلاج، عزّى المريض نفسه بأنها ليست هي القاتلة، ورضي ببقايا العافية، وتصوّر أنها كافية لمقارعة العدو الخارجي. ولعلّ هذا هو ما يعنيه الطبيب حين يصف حالة مريضه بأنها مستقرّة. لقد استقرّتْ حالتنا، ويا له من استقرار!

حصار الشهور الثلاثة، حصار بيروت في صيف ١٩٨٢ الحارق، جاء وحالتنا في قاع استقرارها. وفي المربّع الذي حشرتنا آلة الحرب الإسرائيلية فيه، أحدق بنا خطر الإبادة. وقتها، فرض الأهمّ تأثيره على الجميع وحفز المحاصرين على الاستبسال في الدفاع عن النفس. وفي المجابهة بين المخارز الفتّاكة وبين رموش العيون، تألقتْ عيون العازمين على النجاة، وأظهرت الزنودُ أمضى العزائم. وما أكثر

ما توفر في شهور الحصار مما افتخرنا وما نزال نفتخر به، وما أشدّ ما سطعت الحاجة إلى الإصلاح وانتعشت الدعوة إلى تحقيقه! ولئن أمكن لآلةِ العدوان أن تدفعنا إلى الخروج من بيروت، فإن ثبات الشهور الثلاثة لم يتبدّد بغير ثمن؛ فقد نجا جسمُ الثورة البشريّ من الإبادة الماحقة، وبقي للعيون المتألّقة ما يُمكن أن تتطلّع إليه.

أنتم لم تنسوا ما حلّ بنا بعد ذلك. تقاسَمتْنا المنافي القديمة والأخرى الجديدة. والذين سجّلوا باستبسالهم ملحمة الدفاع عن المربّع المحاصر والنجاة من الإبادة، استعادت المنافي القديمة بعضهم فقط، أما الآخرون فتوزعتهم معسكراتٌ نائية ومعزولة في صحارى ليبيا والجزائر وجرود اليمن. واختارت قيادة الثورة الإنتقال إلى تونس. فنشأ في العاصمة البعيدة هي الأخرى مركزُ الثقل القيادي الجديد، وتهيأ لبعضكم حظُّ الإقامة فيه.

كانت هذه بالنسبة لبعضنا هجرة ثانية، فيما كانت الثالثة أو الرابعة أو حتى الخامسة لكثيرين منّا. كلّها هجرات وكلّها منافٍ، هكذا عزّيتم أنفسكم وأنتم تكتمون الغصّات وتحبسون دموع الأسى. وإن أبعدت الهجرة الجديدة المقاتلين من أجل حرّية وطنهم عن حدود الوطن، فإنها لم تطفئ توقهم للعودة إليه. علّلتم أنفسكم بالأماني وأنتم موغلون في ما لا ترون نهايته. استحضرتم قول شاعرنا: أبتعدُ عنكِ لأحبك أكثر، ونسجتم أحلى الأماني: كلّما دفعَنا عدّونا إلى الابتعاد عن وطننا كلّما اشتدّ عزمنا على العودة إليه.

لطالما تساءلتُ أنا، ولعلّ كثيرين تساءلوا مثلي: إلى أيّ مآلٍ كان حالنا سينتهي لو توفّرت لنا في المنافي حياةٌ عادية، لو لم نتعرّض للتضييق على الحركة والرزق؛ وإلى أين كانت ستؤول مشاعرنا الوطنية لو لم يُطاردنا مغتصبُ وطننا حتى ونحن في المنافي؟ ولكُم أن تعرفوا الآن أن في داخلي سؤالاً لم أجهر به من قبل: هل ثرنا، حين ثرنا، ضدّ ظروف عيشنا في المنافي، أو إننا ثرنا بدافع الرغبة في استعادة الوطن المغتصب؟ وإذا امتزج السببان، فأيّهما كان الأفعل في حفزنا على الثورة: ظلمُ ذوي القربى أم جور العدو؟ وما أشدّ ما عنّاني البحثُ عن إجابة، وما أشدّ ما تبلبلتُ كلّما لاحظتُ كيف يستبسل ثوارنا في المواجهة مع ذوي القربى بمقدار ما يستبسلون في مواجهة العدو، وربّما أكثر!

أبتعدُ عنك لأحبّك أكثر، قول قد يطيب التعزّي به، لكنه لا يبدّل الواقع. والواقع أن البعد جفوة، كما وصفته الحكمة الشعبية. وما أكثر ما استحضرتُ أنا هذه الحكمة في الرحلة التي رجعتُ منها لتوّي!

أدمنّا المنفى. وأزمن التشرّد. وصار التنقّل بين المنافي توقاً امتزج مع التوق إلى الانهماك في المغامرات. فارقتم لبنان وفي نفوسكم حسرات، مع أنه كان منفى وليس وطناً لكم، ممرّاً وليس مستقرّاً. تحسّرتم على المغامرات التي فقدتموها. ولكي لا يهدّكم الفراق، منّيتم أنفسكم بفرصٍ جديدة. حين

كان آباؤكم في أوّل عهدهم بالمنفى، قال شاعرهم: "الصمتُ موت"، فضجّ محيطكم بالصراخ. ومنذ اخترقتم القيود التي كبّلت حركتكم، بدّلتم القول، فصار "السكون هو الموت"، ثم لم تكفّوا عن الحركة. وإذا ضاقت الفسحُ المتاحة أو انسدّت سبل الخروج من مكان، صرتم تراوحون حيث انتم مكرّرين ما أبعدكم عن المكان السابق، ولا تكفّون عن المراوحة ما لم ينفتح منفذٌ إلى منفى جديد!

منذ تقرّر خروجنا من بيروت، عُرض عليّ أن أختار بنفسي المنفى الذي أُرسَل إليه؛ ألم أكن من المتصلين بذوي الشأن!

لم أنجذب لمنفى بعينه. لم أنشغل بالمفاضلة، بل اخترتُ التوجّه إلى البلد الذي تقرّر أن تتوجه إليه نواة مصطبتي. كان عدد أفراد النواة قد استقرّ منذ بعض الوقت على أربعة: حازم المدني، مجايل أخي وصديقه الذي لم يقطع صلته بي بعد استشهاد فادي بل عزّزها، وهو الكاتب السياسي ذو الشهرة الذي أولى نفسه الدور الذي كان لأخي الشهيد في حياتي أنا. وأمير القاسم، مجايلي أنا، المؤرّخ المسكون بالتوق إلى البحث وتجميع شهادات شهود العيان. وثالثٌ أتردّد في ذكر إسمه لأنّ حاله تبدّل وسلوكه انقلب رأساً على عقب، فاعفوني من ذكر هذا الإسم! وكنت أنا رابع هذه النواة.

بهذا الاختيار، وجدتُني في الباخرة التي حملتْ من أُرسلوا منّا إلى سورية. كان حال دمشق التي أعادتني الهجرة الجديدة إليها قد تبدّل. وكنتُ أنا الآخر قد تبدّلت. فلم أجد في الوضع الجديد ما يفتنني. ولولا تعاوننا، نحن أصدقاء المصطبة، في ابتكار ما يجعل الوضع محتملاً، لفتكت الكآبةُ بي منذ ذلك الوقت.

الحشد الذي كان في بيروت، ربعي، الخيّر منهم والشرّير والذي بين بين، من أودّ منهم ومن أجفو، تفرّقوا في بلاد شتّى، وانشغل كلّ فريق منهم بالظرف المستجد؛ تسلّى القليلون بالمشاغل القليلة المتاحة، وتسلّى الجميع بالنمائم. الفريق الذي حلّ في دمشق لم يُشكِّل استثناءً. فتشبّثنا، نحن أصدقاء المصطبة، بما فعلناه حين كنّا في بيروت، وشدّدنا عزمنا على أن نظلّ متميّزين. كان فيَّ بقايا همة طمرها الرماد الذي داهمنا بالخروج من بيروت، فاجتهد حازم أن يبعث ما تحت الرماد ويجدّد الوقد؛ شجّعني على القراءة، وأشركني في تحضير ما يلزم للدراسات السياسيّة التي يكتبها، وحثّني على الكتابة ودرّبني. ومن جانبه، أشركني أمير في ما ندب نفسه له، هو الذي انصرف إلى جمع شهادات شهود الحصار. أمّا الذي أحجمتُ عن ذكر إسمه، فإن مسيرة ابتعاده عنّا بدأت فور وصولنا إلى دمشق، لكنه لم يقطع صلته بنا كليّة، بل كان يُشركني أنا بالذات في بعض مشاغله. ولأن هذه المشاغل حسّنت وضعه المالي، فقد حرص على أن يوفّر لنا فرص الترويح عن النفسَ كلما تيسّر له وقتٌ فراغ يُخصّصه لمن كان هو واحداً منهم.

لم يصر عيشنا، إذاً، شديد السوء. غير أن الجوّ لم يكن ملائما لأيّ إنجاز ذي بال، لا لأداء المهامّ، ولا للانهماك في التفكير، ولا حتى للمتع. ولا أشكُّ في أنّكم تتذكّرونه، ذلك الجوّ، تتذكّرون اضطرابه، وصخبه، المزايدات السياسية والمناقصات التي لم يُفضِ أيّ منها إلا إلى مزيد من الاضطراب والصخب، وانهماكُ الذين خسروا مفاسدهم البيروتية في تدبّر مفاسد جديدة. وإذا كان بينكم من نسوا كيف تبدّدت في هذا الجوّ الدعوةُ إلى الإصلاح، فأنا لم أنس كيف قَسَمنا الجوّ العكر إلى أقليتين: واحدة راغبة في الإصلاح؛ وأخرى تستغلّ الدعوة إليه لتستر سعيها إلى تقاسم المفاسد، كما لم أنس كيف غامت الرؤية فتاهت الأغلبية.

أسوأ ما وقع مع هذا السوء كلّه أن عقد نواتنا الصغيرة، ملجأ ضمائرنا، انفرط. الذي لم أُسمّه غادر إلى تونس فجأة، دون تقديم أيّ إيضاح. وحازم وأمير أُبعدا عن البلد بقرار من سلطته، دون أن نتلقّى إيضاحاً أو نتمكّن من معرفة السبب. وصرتُ وحيداً لا أعرف ما الذي قد يقع لي، تتداولني الهواجس وما من يقين.

ولم يلبث أن تواترت الأنباء المحبطة، فالذي ابتعد عنّا بإرادته، ابتعد أيضاً عن كلّ ما كان يجمعنا من قِيَم، وأوغل في السلوك الذي طالما انتقدناه معاً. ومنذ حلّ في تونس، أشهر صاحبنا ارتداده، وفيها برز شأنه بين الذين يحفّون بالمفسِدين من قادتنا. وحازم وأمير شغلهما البحث عن مكان يستقرّان فيه دون أن يتوفّر مثل هذا المكان. وبغياب ما كان يُوفّر لي شيئاً من التوازن، لم يبق أمامي سوى واحد من خيارين: أن أَلغَ في ما يلغ فيه كثيرون، فأوالي جهة وأهارش أخرى؛ أو أن أبرح الساحة كلّها وأبحث عن مصير فردي، أن أضيع في الجماعة مع الجماعة، أو أن أوثر العزلة. وعليّ أن أقرّ بأنّي كنتُ سأختار العزلة دون طويل تردد لو ضمنتُ أن تُجنّبني الضياع.

مرة أخرى، سطع السؤال الممضّ: ما الذي يشدّني إلى الساحة فيبقيني في الحمأة؟ ومرة أخرى لم أهتد إلى إجابة أركن إليها وأستريح. وهل يتيسّر، حقاً، أن يهتدي الإنسان إلى إجابة على كلّ سؤال، كما يدّعي المتحذلقون؟ الفشل في الوصول إلى إجابة لم يطفئ السؤال: أبقى أم لا أبقى مع الربع الذي أضيق بكثير من أحواله؟ لستُ أشكّ في أن السؤال ذاته راود كثيرين منكم في ظرف أو غيره. وأغلب ظنّي أن من جبههم السؤال قد استوقفهم ما استوقفني: مشقّةُ اتّخاذ قرار باعتزال الجماعة، وثقلُ العزلة على الروح. أن تُقرّ بالفشل بعد أن أعطيتَ عمرك لقضيّة جليلة، أن تطمر أملاً عشتَ عليه منذ نشأتَ، أن تزيل ألوان رايتك فتجعَلها بيضاء، هذا كلّه، كما وصفه حازم على الهاتف وهو يزيّن لي الصبر، كان بين ما ينطوي عليه الإنفصال عن جماعتنا، أيّاً ما آل إليه حالها، فكان أقسى من أن أقدم عليه دون تردّد.

وإذا رغبتم في أن أجلد ذاتي أمامكم، في أن أقرّ بعجزي، فلأَقلْ إن إرادتي غدت كليلة. تبديل مركز الاهتمام، تعديل سلّم القيم، التخلّي عما كوّنتُه طيلة سنوات واختيار سلّم قيم مختلف، والشروع في بداية جديدة لتكوين النفس من جديد، ترك المألوف حتى لو كان ممّا أضيق به والتخويض في المجهول، هل كان بإمكان من تخطّى سنّ الشباب دون أن تكون له مهنة ودون أن ينشغل بغير الهمّ العام أن يُقْدم على هذا كلّه؟

طال ترددي. ولعل من الأصوب أن أقرّ بأن استسلامي للعجز هو ما طال. وإلى نصيحة حازم، طلبتُ نصيحة أمير. فجاءت على الهاتف النصيحةُ ذاتها: "احتمل، تسَلَّ بما هو متيسّر، واحتمل"! ولشدَّ ما أمضّني العجز عن التوصل إلى رأي يحرّرني من المضاضة! المطالعة مسعفة، ومحاولتي الكتابة تكرّرت. غير أن العناء كان أوجع من أن يُنسيني إيّاه كتابٌ أو كتابة.

فجأة، وقع في دمشق الحدثُ الفلسطيني الذي أجّج شهوتنا المزمنة، شهوة الانهماك في المعامع الكبيرة. تتذكّرون حركة الإنشقاق التي تراكمت نذرها المتفرقة منذ الخروج من بيروت، وكيف صارت دمشق هي مركز المنشقّين. ولكُم أن تعرفوا أن وقوع الإنشقاق في ساحتنا وملابساته أوجعت روحي زيادة على ما كانت موجوعةً بدونه. غير أن حرقة الوجع الزائد هي التي انتشلتني من الكآبة وحرّكت ما كان قد همد. الخطر الذي أحدق بوجود الثورة ذاته أعاد حكاية الأهمّ والمهمّ وأعادني أنا إليها.

المنشقّون توقّعوا أن أُؤيدهم. ظن هؤلاء أن عزفهم على وتر الاصلاح يفتنني. والذين شكّلوا جماعة خارجة على الجماعة حاولوا اجتذابي إليهم فسمعوا إجابة قاطعة: للخروج على الجماعة، حتى لو تستّر بدعوة جليلة، صفةٌ لا ينطبق عليه سواها، العصيان، وخطرُ العصيان يشتدّ حين يقع في زمن الخيبة، وأنا لا أنضمّ لعصاة هذا الزمن. وحين يستند العصاة إلى دعم خارجي يوفّره لهم من زكمت رائحة فسادهم كلّ أنف، فإن ادّعاء الرغبة في الإصلاح يصير مسخرة ولا يفتن إلا البلهاء.

هاتفني حازم وأمير وآخرون من مؤيّدي مصطبتنا القديمة؛ كانوا قلقين مما جرى، وكان خوفهم عليّ أنا العالق في مركز الخطر شديداً. وتطابقت الآراء: مع الشرعية مخطئةً أو مصيبة وضدّ العصيان. ولأني كنتُ الوحيد من نواة المصطبة الباقي في دمشق، فإن ضغوط المنشقين ومدعّميهم اشتدت عليّ. وما كان أقبح تلك الضغوط وأقساها!

العراك مع المنشقّين جدّد الطاقة وشحذ الهمّة. وحين توعّدني هؤلاء باذى لا أستطيع ردّه، صار منطقياً أن أبرح ساحة نفوذهم. وفيما أنا أفكّر في المغادرة، وصلني من قيادة الثورة ما حدّد لي الوجهة: "إلتحقْ بنا في تونس قبل أن يقع الأذى"! فتهيأتُ للإنتقال إلى منفى جديد، وأبلغتُ ما

عزمت عليه إلى حازم وأمير، وأملتُ في أن نلتقي هناك.

هذا المسار الذي ارتسم قطمته واقعةٌ شخصية صرفة رسمت لي مساراً آخر ودفعتني نحو مصير مختلف. نداء عاجل من أمّي حمل إليّ ما كتمتْه العجوز عنّي من أحوال أختي ساجية. فحياة الأخت الطموحة تعثّرت في الولايات المتحدة؛ لم تتوفّر للأخت العزيزة فرصة الدراسة في الجامعة، ولم تُطق هي أعباء التواؤم مع جوّ ومجتمع غريبين، ولم تستقم علاقتها بزوجها. وهذا كلّه اختُتِمَ بطلاق ساجية ورجوعها إلى منزل الأسرة في عمّان. لم ترجع ساجية مثقلة بخيبة آمالها، فقط، بل مصابة أيضاً بمرض لم يتّفق الأطباء على تشخيصه ولم يهتد أيّ منهم إلى علاج ناجع له، لكن الجميع اتفقوا على أمر واحد: لا بدّ من إخراج المريضة من متاعب روحها، وبدون هذا يتعذر إيقاف تدهور حالها. وختمتْ أمّي نداءها بعبارات حاسمة الدلالة: "أُختك في خطر، وشوقها إليك يفري كبدها، وهي تهذي وتكّرر إسمك في هذيانها كما في صحوها، فلا تتأخّر في المجيء إليها"! فهل ظلّ بإمكاني، بعد هذا، أن أتوجّه إلى غير عمّان.

لم أجهل أن عودتي إلى الأردن قد تجلب لي متاعب. صحيح أن مياها جديدة غمرت أقنية علاقاتنا بسلطات البلد. إلا أن ملفّات الأمن، تعرفون أنتم هذا معرفة تامة، لا تتبدّل، وملفّات الأمن هذه تختزن ما أؤاخذ عليه، أنا حامل جنسيّة البلد، والذي حمل ذات يوم السلاح ضد سلطاته. وربّما كان عليّ أن أتأنّى إلى أن تتمّ معالجة تركة الماضي، غير أن النداء المنذر أعلجني، فجازفتُ بالتوجّه إلى عمّان دون تدبير أو حتى اتّصال مسبق.

قدّمتُ جواز سفري في معبر الحدود إلى رجل أمن. وتصرّف الرجل بكياسة إن لم تلغِ هواجسي فإنها برّدتها؛ أذن لي بالدخول بالرغم من أن صلاحية جواز سفري منتهية، وأبقى الجواز عنده، وقال دون أن تحمل نبرة صوته أيّ إنذار: " راجع المخابرات العامّة بعد ثلاثة أيّام"! لم يُقدِّم رجل الأمن إيضاحاً. ولم أجدني بحاجة إلى إيضاح.

أنعش قدومي ساجية. ابتعدت المريضة عن خطر الهلاك. وسعدتْ أمّي بي وبنجاة أختي. وفي غضون ذلك، كان عليّ أن أسوّي مشاكلي مع ناس المخابرات حتى أتمكن من إنفاذ عزمي على التوجّه إلى تونس.

تكررتْ زياراتي لمبنى المخابرات العامة. وفي كل زيارة، كان يُطلب مني أن أجيء في اليوم التالي. وأخيراً، بعد أن شحنني الإرجاء المتكرر دون تفسير بأشدّ الضيق، أُخضعتُ لتحقيق متأنٍّ، جلسات عديدة، على مدى ثلاث نهارات متتالية، تناوبني فيها ضبّاط من اختصاصات مختلفة، ورماني كلّ منهم، حسب اختصاصه، بأسئلة تقصّت كلّ صغيرة وكبيرة في وقائع سلوكي وفي أفكاري. وقيل لي ردّاً

على تذمّري من كثرة الأسئلة ومطالبتي حتى بكشف خصوصيّاتي الشخصية: "إنها عمليةٌ استكمال معلومات لإقفال ملفّك". كلّ هذا دون أن يفتقر أيّ ضابط إلى كياسة القول أو الحركة.

آخر ضابط حقق معي جبهني بطلب أجزم أن كثيرين منكم جُبهوا بمثله في بلد أو غيره: "إعمل معنا، فأتمكّنَ من حلّ مشاكلك كلِّها"! وكان هذا طلباً ليس له سوى المعنى الكريه الذي تدركونه: خنْ جماعتك!

عرض الضابط طلبه بعبارات إن بدت مؤدّبة فإنها انطوت على وعيد. وبدا رجل المخابرات ذو السطوة واثقاً من قدرته على امتهان إنسانيّتي. يواجهك الواحد من هؤلاء بما يوحي أنّه يعدُّك مُهمّا، فتظنّ، إن كنت ما تزال غريراً، أن لك عندهم شأنا متميزاً. فإذا حلّ وقت الجهر بالطلبات، فستظهر المفارقة. ففي نظر من يتمتع بسلطاتٍ فوق القانون ليس منّا من هو كبير.

عليّ أن أقرّ بأني كنتُ محظوظاً. فقد عدتُ إلى البلد في وقت كفّوا فيه عن اعتقال أمثالي. والعقوبة التي تعرضتُ لها، أنا الذي أبى أن يخون جماعته، اقتصرتْ على منعي من مغادرة البلد وحجبِ موافقة المخابرات التي لا بدّ منها للحصول على عمل. وقد استبقى رجل المخابرات جواز سفري عندهم. وقال الرجل وهو يصرفني دون أن يبدو عليه أنه فقد الأمل بتطويعي: "إرجع إلينا حين يرجع إليك عقلك"! وشفع القول بابتسامة حمّالة أوجه، ثم أضاف: "نشأتَ في هذا البلد وله عليك أفضال كثيرة، فكيف تستكثر أن تردّ له بعضها"!

وجدتني في وضع جديد عليّ: البطالة غير المقنّعة، والإقامة المفروضة بالإكراه، والبعد عن الجماعة، والتهويم في فراغ. ولئن كان هذا أشقّ من أيّ وضع سبقه، فإنه لم يَصِرْ مهلكاً. فمع الضيق، بقي لي دفء الحياة الأسرية، حنان الأم، ومودّة الأخت العزيزة على قلبي، واستقبال الأختين اللتين تجيئان من الكويت، وموسم الفرح الذي يتجدّد كل صيف بوجودهما ووجود زوجيهما وحشدِ الأولاد الذين أنا خالهم الوحيد. وفوق هذا، قبله وبعده، عزّاني أن وجودي يُعين ساجية على التعافي. وإلى المنزل الذي نملكه، كانت أمّي تتلقى الراتب الشهري المخصّص لأسرة الشهيد. وراتبي أنا الذي حجبه المنشقّون عني لم يلبث أن تدبّر ناسُنا في تونس أمر إرساله لي. فتوفّر للأسرة الصغيرة دخلٌ يجنّبها ضنك العيش ويمكّنها من الإنفاق بسعة على علاج ساجية. وبالإجمال، مع الضيق، أمكن للحياة أن تستمر.

هل استمرأتُ الوضع؟ هل استسغت الرتابة؟ هل غاض التوق إلى المغامرة والترحال والانهماك في المعامع؟ وجِّهوا هذه الأسئلة إلى أنفسكم واستخلصوا إجابتي التي لن تختلف عن إجاباتكم. فأنتم، أيضاً، واجهتم بعد الخروج من بيروت ما واجهته أنا، كلّه أو بعضه. ألم تعانوا في المنافي ذلك

النوع من البطالة المديدة والبغيضة؟ ألم يثقل عليكم الفراغ وانتظار المجهول؟ اسألوا المحظوظين القليلين الذين حفّوا بالقيادة في تونس وحظوا بالأعطيات السخيّة والمتع المباحة وغير المباحة، اسألوا الذين أمعنوا في الفساد وراكموا الثروات، هل قنع أيّ من هؤلاء بما آل إليه الحال بعد أن وهن النشاط الثوري وبهت الألق؟ هل استطاب أحدٌ الرخاوة وطوى التوق إلى المغامرة والأمجاد؟ هل توفّر لأحد الإحساسُ بالطمأنينة؟ أليس صحيحاً أن السكون هو الموت؟ ألسنا مرغمين على مداومة الحركة حتى نظلّ أحياء ولو انطمس الدرب وغامت الرؤية؟ ألم يحكمنا منذ نشأنا هذا التناقض الذي لا فكاك منه: فنحن، مثل الخلق جميعهم، محتاجون إلى الاستقرار، لكننا ندرك أن في الاستقرار مقتلنا.

كرّت سنون وأنا في عمّان، لا معلّق ولا مطلّق، لا مرفّه ولا بائس، لا سعيد ولا تعيس. وهنت الأحاسيس واستقرّت عند حدّ لا تتعدّاه، لم تعد تتوهج إلا أنها لا تخبو.

غاضت مفاخر الماضي. وضؤلت الآمال المعطوفة على المستقبل. احتجزني برزخ امتدّ بين الماضي الذي أعرفه والآتي الذي أجهله. وبهت حضور الحاضر الذي أعيشه. إنه البرزخ الذي يتأهّل الإنسان فيه لتقبّل أيّ شيء، ويكفّ عن التطلع إلى شيء بعينه، ويتدرّب على القعود. وكما صار إليه حال كثيرين منكم، استسلمتُ بمضيّ الوقت للرتابة حتى وأنا أضيق بها، وقلّت شكواي.

قعدنا، إلا أن الرزق ظل يأتي. غرفت القيادة من المال الذي خزنته حين كانت التبرعات تتدفق على الثورة تدفقاً. وأنتم تعرفون أن الخزين الاحتياطي كان هائلاً. وظلّت الرواتب تصل إلى من لم يطلبوا سواها. وتدفقت، زيادة على الرواتب، الأعطياتُ على من نشدوها. وبهذا، كما بسواه مما يماثله، ضمنت القيادة أن تهن إرادتكم في محاسبتها على ما آل إليه الحال، وأن يوجد من يدافعون عنها أو يمدحونها بالرغم من هذا الحال. إغلاق الأفواه مقابل إعمار الجيوب، طيّ الآراء المعارضة مقابل فرد أوامر الصرف، تقييد الإرادات مقابل إباحة النزوات والتشجيع على اتّباعها. أما امتشاق الألسنة والأقلام للثناء على القيادة وتشنيع منتقديها، فكان له ثمن ظفر به الذين غمرتهم الامتيازات وحظوا بتسهيل فرص الإيغال في المفاسد. ولأن الحق يستحق أن يُشهدَ له، فها أنا ذا أشهد للقيادة بأنها كانت سخيّة في إتاحة الفرص، بارعة في استدراج حتى المتردّدين إلى الولوغ فيها.

القيادة التي أوهنت إرادة أتباعها سعت حلقةٌ من بضعة أعضاء فيها إلى توهين إرادة بقية الأعضاء. وكان طبيعياً أن سعى واحد من أعضاء الحلقة إلى توهين إرادة الآخرين. ومنذ أفلح في تهميش كلّ من عاداه، صار لنا قائد فرد، مثلما أن لبعض الدول حاكماً فرداً. أُختزِل الشعب في ثورة، والثورة في قيادة، والقيادة في شخصٍ واحد. وبدل الأبواب العديدة التي انفتحت أمام طلباتكم والأصابع

الكثيرة التي تدعوكم إلى الالتفاف حول أصحابها، بقي لكُم باب وحيد وإصبع واحد ينتقي صاحبه من يُؤذن لهم بالاقتراب منه ومن يُسدّ بابُه في وجوههم إلى أن يجاروا من سبقوهم في منافقتهم إيّاه وتطييب كل ما يقوله أو يفعله.

ولأنه قائد نبيه، فإنه لم يُغفل أنكم ثوار، والثائر يُعلي شأن الكرامة؛ لم يُغفل أنكم لاجئون، واللاجئ محتاج إلى الإحساس بالأهمية. وما أكثر ما تفنّن القائد في ابتكار سبلٍ لتكريم من يرضى عنهم وسبلٍ لامتهان من يسخط عليهم! وما أكثر ما برع في تحديد مراتب تجيزُ للمرضيّ عنهم أن يفاخروا بالحصول عليها، وألقابٍ توحي بالأهمية! ولكَم كان هو بارعاً في إشغالكم بالتنازع على المراتب والألقاب مع بقائه مرجعاً لكلّ شأن وكلّ شخص. احتلّ هو القمم كلّها، وتوزعتكم السفوح. أمّا المسخوط عليهم فدُفعوا إلى القيعان. واستثمر القائد الفرد نزاعاتكم للتباهي: نحن ديمقراطيّون، والتعدّد من سمات الديمقراطية، وأشهرَ نفسه سيّد الديمقراطيين.

قد تعتذرون بأنكم لم تفطنوا إلى خطر اللعبة، ويا له من اعتذار! قد تتذرعون بأن الظروف لم تُتح خيارات أخرى؛ إنها الذرائع العتيقة: المخاطر التي توجب التركيز على الأهمّ قبل المهم؛ الحرص على سمعة الثورة، على سمعة الشعب؛ وما إلى ذلك مما ألفتُ أنا الآخر أن أتذرّع به مثلكم. وأيّاً ما كانت عليه الذرائع، فقد صار لكُم فَلَكٌ واحد تدورون فيه؛ إن واليتم فالقائد هو المولى؛ وإن سخطتم فهو الذي في البال. صار هو المركز والمحيط معاً. قائد واحد، سياسةٌ واحدة هي التي يرسمها، وإجراءات هو الذي يأمر بها فلا يُنفَّذُ سواها، ونشاطات هو الذي يُنظمُها فلا ينتظم غيرها ولا يُشرف عليها أحدٌ غيره. ولأنه لم يأذن بأن يألف غيرِ المسخوط عليهم شظف العيش ولم يبخل بالمال، فإن معظمكم ألف رغد العيش، فتوفّر للقائد ما رمى إليه، الترغيب والترهيب، الرفاه للمطيع والشظف للمتذمّر.

تذكّروا كم سنة انقضت وأنتم لا تشكون القلّة في شيء. ثم تذكّروا كيف قيل لكم فجأة إن الموارد شحّت، وأُنذرتم ليس بفقد ما ألفتم الحصول عليه، بل حتى بفقد ما يقيم الأود. فهل انتبهتم إلى تزامن وقت الإنذار مع الوقت الذي بدأ فيه التفاوض مع العدو؟ ألا تتذكّرون كيف تضاءل دفق الأعطيات إلى أن غاض، وكيف اضطرب صرف الرواتب إلى أن توقف؛ ألم يتزامن توقّف الصرف مع الانتقال بالمفاوضات من ميدانها العلني إلى ميدانٍ سرّي، العلني الذي تتابعون وقائعه، والسرّي الذي حُجب كلّ ما له صلة به حتى عن شاغلي مراتب قيادية عليا؟

في دواخلكم، هجستم بأن وقف الصرف مؤشّر على ما ستجيئ به المفاوضات العلنيّة، وتوقعتم أن تُحقّق نتائج غير مرضية، وانتظرتم أن يُطلب منكم قبولها الذي لن يُستأنف الصرف بدونه.

ولأنكم لم تعلموا بوجود المفاوضات السرّية، فما من واحد منكم هجس بأن نتائجها ستجيئ بما هو أسوأ. رأيتم كيف ظلّ الصرف جارياً على المشتركين في المفاوضات، كما على الذين يحيطون بهم من مضموني الرضا بأيّ شيء يوافق عليه هؤلاء، ورأيتم كيف استمرَّ فيض الأعطيات التي تمنح لهم. وكان في هذا ما يكفي ليؤجّج هواجسكم ويُظهِرَ ما يختفي وراء الزعم بشحّ الموارد. فما الذي فعلتموه، كم عدد الذين تجرأوا ولو على الجهر بهواجسهم؟

تتذكّرون حالكم في تلك الفترة التي طال أمدها، القلق الذي استحوذ عليكم، الخشية من أن يشيع عنكم ما يشي بوهن ولائكم المطلق للقائد، الانقطاع عن الذين واصلوا الانتقاد وسعوا إلى كشف المستور وحذّروكم من العواقب. ألم تكن هذه هي النتيجة الكريهة للمقايضة التي أحكم القائد نسجها: أطيعوا ترزقوا!

جرى لمعظمكم ما جرى لي. لم يقتصر الأمر على تقدُّم العمر دون أن يتعلم واحدنا مهنةً لا توجب ممارستها الحصول على موافقة أجهزة الأمن، بل تعدّاه إلى ما هو أخطر. ففي ملفّات هذه الأجهزة خزين يحرم الواحد منّا من أيّ عمل إلا إذا قبل أن يخون جماعته ويمتهن كرامته. وفي عمّان، واجهتُ أنا ما واجهه كثيرون منكم في بلد أو غيره. انقطع راتبي فضاق عيش الأسرة. ثم لم يلبث أن انقطع راتب أمِّ الشهيد، فصرنا، أمّي وأختي العليلة وأنا، بغير مورد، وصار عيشنا ضنكاً. وتحرّيتُ، أنا البعيد عن مركز القيادة احتمالات عودة الصرف، فأسعفني حازم وأمير وغيرهما بما عنى أن الانقطاع قد يمتدّ طويلاً لأننا لا نعرف متى ستنتهي المفاوضات. وكما لو كان الأمر مقصوداً، فإن انقطاع الموارد تزامن مع النكبة الماحقة التي تعرّض لها الفلسطينيون في الكويت. فأختاي وزوجاهما وجيش أولادهم طُردوا من إمارة النفط، مخلّفين وراءهم كل ما يملكون، وجاءوا إلى عمّان، وصاروا، هم أنفسهم، بحاجة إلى العون.

لو أن هذا الوضع جبهني في ظرف مختلف لما زعزعني. أمّا بعد انسداد السبل وضيق مجالات التشرّد ذاتها، فما كان أعسر أن أظل كما كنت!

تعرفون ما الذي يفعله العاجز حين يُرغم على قبول ما يأباه لو كان مقتدراً. وتتذكّرون كيف انبرى كثيرون لتزيين ما يُزمع القائد الإقدام عليه حتى قبل أن يعرفوه. ألم ينشط الحديث عن الواقعية في بازار المبرّرات الذي انتصب؟ ألم يقل قائل هؤلاء إن القائد محنّك وهو يعرف ما ينفع الشعب وما يضرّ به؟ ألم تُستحضرّ الحالات التاريخيّة التي انعقدت فيها تسويات بين أطراف متعاديةٍ؟ هل نسيتم المتديّنين منكم الذين استحضروا صلح الحديبية والآخرين الذين استحضروا صلح لينين مع الغزاة الألمان؟ ألم تُدرِج المقارناتُ القائدَ بين بعيدي النظر من عظماء التاريخ؟ لا أظن أنكم نسيتم

كيف استُحضر واقع الحال أيضاً؛ الانهيارات المتتالية التي تبرّر السعي إلى أيّ تسوية لإنقاذ ما يمكن إنقاذه مهما غلا الثمن؛ تخلّي الأشقّاء عن مجابهة إسرائيل وتركهم الانتفاضة الفلسطينية وحدها في الميدان؛ انهيار التضامن العربي الذي كان يشدّ أزرنا؛ سقوط الجدار الاشتراكي الذي طالما استندنا إليه حتى ونحن نخاصمه. ويا وحدنا، فما الذي نقدر عليه!

طال الأمد. وهل كان لأمد التفاوض على موضوعات شائكة إلا أن يطول. وثقلت الأعباء، خصوصاً عبء تدبّر حاجات المعيشة، خصوصاً على العجوز، سيّدة الأسرة المشرفة على عتبة السبعين. وفي ظروف العوز، انتكست حالة ساجية؛ داهمت العليلةَ التي لم تبلغ الخامسة والأربعين أعراضُ هرم مبكر انضافت إلى أعراض مرضها الغامض. أظلمتْ روح ساجية، وهزل جسدها حتى لكأنه صار يذوب. ولم يلبث أن فارقت الأختُ الحبيبة دنيانا ونحن عاجزون حتى عن إعداد جنازة لائقة لوداعها.

طال العناء. واستغرقتنا الهموم اليومية. وتراكمت الأعباء: فواتير الماء والكهرباء التي لم تدفع وانقطاع شريانيّ الحياة هذين؛ انقطاع خطِّ الهاتف؛ حسابات البقّالين والقصّابين الذين كفّوا عن تزويدنا بما نحتاج إليه قبل أن نسدّدها؛ الديون التي أُخذتْ من كلّ مصدر متيسّر حتى لم يبق مصدر؛ إلى آخر قائمة العناء التي كابد كثيرون منكم ما هو أقسى منها. انفقتْ أمّي مدّخراتها حتى ما خبأته لجنازتها، وباعت ما يمكن الاستغناء عنه، ثم باعت ما لا يَستغني عنه إلا البؤساء، ولم يبق ما يباع. وبحثتُ أنا عن عملٍ متواضع لا يتشدّد سيّده في المطالبة بموافقة السلطات، فلم تتوفر أيّ فرصة. وفيما حالنا ينحدر من قاع إلى آخر دونه، ولأننا توسّمنا مجيء الفرج بعد انتهاء المفاوضات، فقد صرنا نتعجل انتهاءها. لم يستحوذ مجرى المفاوضات ذاته على اهتمامنا ولا طبيعة النتائج المرتقبة. اهتمامنا تركّز على شيء واحد: أن تنتهي هذه المفاوضات إلى نتيجة ما، أيِّ نتيجة!

مع الحاجة، خصوصاً حين تُسلمك الحاجةُ إلى الهوان، تتحلّل التحفّظات أولا بأول، إلى أن تسقط حتى التحفظات التي يُسلمك سقوطها إلى هوان من نوع آخر لكنه يبقيك على خطّ الحياة. وهذا هو ما آل إليه أمري، أنا الذي لا أشك في أن أمور كثيرين منكم آلت إليه أو إلى ما يماثله. ضغطُ الحاجة أنبت، إذاً، الاستعداد للقبول بأيّ شيء، أيّ شيء دون استثناء، وحملني على الذهاب بنفسي إلى المخابرات معتزماً الاستجابة لأيّ طلب مقابل إذن العمل. لكني اكتشفتُ لدهشتي الشديدة أنهم، هناك، نسوا أمري ولم يعودوا بحاجة إليّ، حتى أنهم أعادوا لي جواز سفري القديم، وقالوا إنهم لن يمنعوا حصولي على جواز جديد. أما إذن العمل فقالوا عنه: هذه حكاية أخرى، ثم لم يأذنوا لي حتى بالمناقشة.

ابو سمير قريب من أقرباء أمّي ألف مؤاخذتنا، فادي وأنا، منذ البداية، على تبديدنا العمر في الوطنية دون أن نكنز شيئاً لأنفسنا أو أسرتنا. وبانحدارنا إلى قاع العوز، وجد القريب سبباً ليشدّد اللوم: "راح غيركما إلى الثورة ودبّر لنفسه قرشين انتفع بهما عند الضيق، أما أنتما، فواحد ضحّى بحياته والثاني عاطل عن العمل وبائس". وذات يوم، زارنا أبو سمير، وقال لي بحضور أمّي إنه التقى برجل يعرفني منذ أيام لبنان ووعده بأن يحضرني إليه، وذكر اسم الرجل فلم أتذكّره، لكني قبلتُ أن يأخذني إليه.

وفي سوق مكتظ بالباعة والشارين، قادني أبو سمير إلى رجل قاعد على الأرض وأمامه صينية ترمس يبيعه للعابرين بطريقة أقرب إلى التسوّل. وما أن وقعتْ عيناي على من لاحظت أنه مقعد حتى انفتحت الذاكرة: أبو سلطان الذي كان معي في القاعدة في جنوب لبنان. كان أبو سلطان أفرس مقاتلي تلك القاعدة وأحبّهم إلى قلبي. وكنتُ أنا من أوكل إلى الرجل مهمّة قيادة مجموعة في عملية خطيرة، فأدّى المهمّة بنجاح لا يبلغه إلا بطل، لكنه خرج من العملية بإعاقة دائمة، هو الذي نجا من الموت لأن مقاتلي المجموعة أبوا أن يتركوا قائدهم في الميدان، فتناوبوا حمله. وفي اللقاء مع بطل صار بائع ترمس شبيه بمتسوّل، لم يفلح عزيز القوم الذي أُذِلَّ في حجب أساه، ولم أفلح انا في حجب تأثري؛ بكى البطل العتيق، ولم أَجد أنا، قائده السابق، مما أواسيه به إلّا أن أبكي معه.

وفي منزلنا الذي أرجعتني إليه سيّارة أبي سمير فيما نحن صامتان، إتضح ما توخّاه قريبُ أمّي حين دبّر هذا المشهد. فقد كان في جعبته عرض عمل لي خشي أن أستصغره، فأرجأ الكشف عنه إلى ما بعد اللقاء: "معك شهادة سواقة خصوصّية أستطيع تدبّر تحويلها إلى عمومية. وعندي تاكسيات تستطيع أن تقود واحداً منها، ولي صلات تضمن ألا تعترض المخابرات". وشفع القريب عرضه بالمنّة: "سواقة تاكسي أكرم، حتى لبطل، من بيع الترمس، وأنت قريبي، والأقربون أولى بالمعروف".

كان هذا الرجل الذي لا أشك في أن أمر معيشتنا يعنيه هو أكبر مقرضينا. ولعلّه خشي أن نظلّ طويلاً بغير مورد، فنعجز عن سداد قروضه أو نطلب قروضاً جديدة؛ تفكيره في الأمر أنبت فكرة تشغيلي عنده، ففاتح بها أمّي وهي التي نهته عن مفاتحتي بها، لأنها استصغرت العمل. وها هو أبو سمير لم ينحّ الفكرة: يمدّ لنا يد العون، ويستردُّ بعض مالِه إن لم يستردَّه كلّه، ويوقف مسلسل اقتراضنا منه، ثلاثة عصافير نسج قريبنا تفاصيل عرضه كي يصطادها حتى بدون حجر.

حين قدّم أبو سمير عرضه لي، التفتُّ نحو أمّي لأستطلع رأيها، فتجنّبتْ هي أن يلتقي نظرانا وبقيتْ صامته. أما بعد أن قلتُ للرجل إني أقبل العرض، فإن العجوز عقّبت بعبارة واحدة: "العمل عند الأقرباء أكرم من العمل عند الغرباء". بعدها، فرد أبو سمير ما نسجه ليظفر بالعصافير الثلاثة:

"أضع التاكسي بتصرّفك بصفة ضمان، فتدفع أنت لي من دخله أربعة عشر ديناراً كلّ يوم، فأحسب أنا سبعة منها سداداً منكم لما اقترضتموه مني، فكأنك تضمّنت تاكسي بسبعة دنانير، أي بنصف السعر الجاري في البلد". وذلك، كما قال من سَعِدَ بموافقتي دون مساومة، " كرمى للقرابة وتيسيراً منّي على الولد الذي ضيّع عمره في الوطنية".

كان من وَصَفه ربُّ العمل بالولد قد تجاوز الأربعين حين باشر أول عمل خاص يقوم به في حياته. عملتُ بهمّة المحتاج إلى مورد للعيش، الحريص على سداد الديون المتراكمة. فصرتُ أبدأ العمل مع ضوء الصباح ولا أتوقّف إلا بعد أن يجهدني الكدّ المتواصل. وغالباً ما كنتُ استمرُّ حتى التاسعة أو العاشرة مساء. وحين صارت قواي تخذلني حتى قبل أن يحلّ المساء، كنتُ أتحامل على ما يبقى لي منها وأُرغم نفسي إرغاماً على الاستمرار.

الجهد المتّصل ستّة شهور أثّر على صحتي. وتوالت نذر الأمراض، دون أن أجد وقتاً لزيارة طبيب. ولما تعذّر الاستمرار في هذا النحو، اضطررتُ إلى إنقاص ساعات العمل ومراجعة الطبيب. وبهذا، نقص الدخل وتبدّد جزء منه على العلاج. ولولا ضغط الحاجة القاهرة، لما أمكن أن أستمر. وحتى مع هذا الضغط، لم أتوقّع أن استمرّ طويلاً.

مرة أُخرى، جاءت المبادرة من أبي سمير. أرضى سلوكي صاحب التاكسي، فحرص على أن لا تقعدني المشقّة عن متابعته. ومع تأكيده على حُبِّه إيّانا وإيثارنا بمعروفه، قال ربّ عملي إنه يعرف سائقاً طيباً وإبن حلال مثلي، وبإمكان هذا السائق أن يُقاسمني وقت العمل على التاكسي ذاته، ثماني ساعات لكل واحد منّا، فيصير عليّ أن أدفع سبعة دنانير فقط، يَحتسب هو ثلاثة منها سداداً لقروضه.

نقص الدخل، فزادت الهموم دون أن تنقص متاعبي الصحيّة. وظهرتْ عليّ أعراض الهرم، فتذكرتُ ما حلّ بساجية حين كانت في مثل عمري. وتناوشتني الهواجس؛ لا زوجة، ولا ولد، ولا حاضر، ولا مستقبل، وهذا الليل المعتم الذي يطول دون أن تلوح له نهاية.

فجأة، انفجر النبأ الذي أثار الاهتمام في أربع أرجاء المعمورة: وقّعتْ قيادتنا بالأحرف الأولى اتفاق مبادئ مع حكومة إسرائيل. الاتفاق جرى التفاوض عليه في مدينة أوسلو النرويجية برعاية حكومتها، فحمل اسم هذه المدينة. واستبشر كثيرون بهذه الخطوة التي رأوا أنها تؤسس لمصالحة وسلام دائم بين طرفين امتدّ العداء بينهما مئة سنة. ومع النبأ، تعرفون، توهّجت آمال رغبية فتنت كثيرين منا: السلام آت؛ قوّات الاحتلال الإسرائيلية ستنسحبُ من قطاع غزّة ومدينة أريحا، أولاً، ثم تنسحب من بقية الأرض ومدنها وقراها التي احتلتها في العام ١٩٦٧؛ أرض الفلسطينيين التي احتُلّت في ذلك العام ستعود إليهم، وسيقيمون دولتهم عليها، وستكون القدس العربية عاصمة لها؛

المبعدون، مئات أُلوف الذين هُجّروا في ذلك العام، سيعودون إلى وطنهم؛ مئات أُلوف الذين هُجّروا في الحروب السابقة سيحصلون على حقوقهم، وبضمنها حق العودة كما نصّت عليه قرارات الأمم المتحدة. ألم تكن هذه وما يماثلها هي البشائر التي تضافرت جهود حَسني نيّة وسيّئيها في ترويجها؟ ألم تغالِ قيادتنا في تضخيم بشائر مضخّمة في الأساس، لتسوّغ كلّ ما أقدمت عليه مما لن يتكشّف خطره إلا بعد حين.

كنتُ، مثلكم، توّاقاً إلى ما ينتشلني ممّا أنا فيه، ممّا قوّى هواجسي بشأن حاضري ومستقبلي، فأوقَدتِ البشائرُ ما كان تحت الرماد، وشحذت الهمَّةَ المنطفئة، وجدّدت التوق العتيق إلى الجديد. فتنتني الفرصة التي سطعتْ، وعزمتُ على استثمارها؛ سأستعيد حضوري في الساحة العامة، سأعود إلى ملعبي وأقراني؛ سأتمتّع بالإقامة في وطني، بالحصول على هويّة ليست مستعارة أو مفروضة؛ سأظفر بالكرامة بعد طول امتهان. لم أتقصَّ تفاصيل الاتفاق، طغتْ عاطفتي المهتاجة على تعقّلي، فرفضتُ الانتقادات التي أوردها من تقصّوا التفاصيل. كنتُ، بل كنّا جميعنا عطاشاً غاض ماؤهم، فما أن ظهرت غمامة حتى توسّموا الإرتواء. لم آذن لخيبات الأمل السابقة أن تزعزع افتتاني. وحين قال الطبيب: "إنتبه، هناك ما يجعلني قلقاً على قلبك"، صاغ الافتتان إجابتي: "غداً أذهب إلى الوطن فينصلح كلّ شيء، القلب وغيره"! وحين كرّر الطبيب التحذير وحثّني على أخذه بجديّة، أجابته استهانتي بدواعي أيّ حذر: "سأعالج قلبي في بلدي".

هتف أمير. وغمرني جذل هذا الصديق الرائع وهو يفيض من سماعة الهاتف. قرأ هو الاتفاق بإمعان، وتقصّى التفاصيل. قال هذا وأضاف: "صار في اليد شيء نستطيع أن نبني عليه أشياء كثيرة"، قال إنه عازم على الذهاب مع العائدين إلى غزّة، وتمنّى أن ألاقيه هناك. وبحثتُ عن حازم الذي كانت ظروفه تُنقّله من بلد إلى آخر دون توقّف. واستمعتُ على الهاتف إلى الصديق الذي لا يفارقه تعقّله في أيّ ظرف: "لم أنته، بعد، إلى تكوين رأي باتٍّ في الاتفاق. أما الذهاب إلى غزّة أو أريحا أو أيّ مكان في وطننا، فمن الذي يرفض الفرصة إذا تيسّرت"!

موقف أمّي اختلف عن هذا كلّه. أمي التي لها في الوطن أكثر مما لأي منّا لم يفتنها الاتفاق. ولكَم حاولتْ هذه الأم لجم اندفاعتي، وما أكثر ما كرّرت الحكمةَ الشعبية: "انتظرْ حتى يذوب الثلج ويظهر المرج"! لكنّي، أنا الذي تصوّرتُ أنّي وقعتُ على خشبة النجاة، أبيتُ الاستسلام لأيّ شكوك، المرج ظاهر، الهوية بعد الضياع، الوطن بدل الشتات، الأرض، الحقوق، نقيم الدولة في الضفة والقطاع، والبقيّة تأتي، بعض بلادنا يعود إلينا فلِمَ لا نذهب إليها!

أناة العجوز نبّهتني إلى ما غيّبه تعجلي: "إن كانوا لا يعطوننا شيئاً ونحن نقاومهم، فكيف يعطوننا

أي شيء بعد أن نوقف المقاومة"؟ جبهتني أمّي بهذه الحجّة، إلا أن العناد هو الذي صاغ ردّي: "أنتِ لا تفهمين في السياسة. هذا اتفاق، تعهّدات متبادلة، نلتزم ما نتعهّده ويلتزمون ما تعهّدوه، أقول لك، لكنك لا تفهمين". وإزاء فظاظتي، تسلّحت الحريصةُ على تجنيبي الطيش بمنطقها: "وعود، هذه وعود فما قيمتها عند من خبرناهم طويلاً وعرفنا أنهم لا يلتزمون لا التعهّدات ولا الوعود. اشترطوا أن نوقف المقاومة وقالوا حقكم تأخذونه بعد ذلك، فكيف نأخذ حقوقنا إذا لم نقاومهم، كيف نأخذ منهم أي حق"!

ولأني شططتُ في صدم مشاعر أمّي بعنادي، فإن دماملها القديمة انفتحت ومخزونها انبثق: "لم يبق لي من العمر إلا القليل. والمقدّر قد يجيء قبل أن تقوم دولة الضفة والقطاع. لكن، حتى لو صدّقتُ أن دولةً ستقوم وأنا حيّة، فهل تُريدني، أنا ربيبة يافا، أن أنقل لجوئي من عمّان إلى بلدة في الضفة أو القطاع. ألم يعترف أصحابك في الاتفاق بأن يافا جزء من دولة اليهود، فإن كان كلّه لجوءً، فلماذا استبدل غربة بغربة"؟

نبتتْ في ذهن العجوز الهواجس التي أنبتها الاتفاق في أذهان معظم لاجئينا. ومن مخيّمها في عمّان، أثارت إبنة يافا الأسئلة التي انداحت في أماكن اللجوء جميعها: ما الذي سينوب ملايين اللاجئين ما دام الاتفاق قد ثبّت اغتصاب إسرائيل أربعة أخماس وطنهم ورهن مصير الخمس الأخير بموافقتها هي على تحديد مصيره؟ أما أنا فبقيتُ على ما فُتِنتُ به: التسوية التي يوجبها واقع الحال. وما دامت مقاومتنا أرغمت إسرائيل على القبول بمبدأ التسوية، فأين الضرر إذا أُوقفت المقاومة وتحدّدت بنود التسوية عبر المفاوضات التي ستستمر. في التسوية أنت لا تأخذ فقط ولا تعطي فقط؛ أنت في التسوية تأخذ وتعطي، وما دمت لا تعطي كلّ شيء فإنك لا تأخذ كلّ شيء.

افتتاني هو الذي صاغ الرسالة التي أرسلتها إلى تونس ليدرجوا إسمي في عداد طالبي العودة إلى غزّة. في الرسالة، استعدتُ لغةَ خطاب ظننتُ منذ زمان طويل أني تجاوزتها، أو قولوا إن هذه اللغة تلبّستني من جديد: "أنا المناضل الذي أهّلته الثورة لأقسى الظروف أضع نفسي في تصرفكم ونحن على الطريق إلى نصرنا الكبير". ووجدتني أخصّ القائد بتحية كنتُ أتّهم من يصدرُ عنه مثلها بأنه في المنافقين: "معكم ووراءكم حتى النصر"!

طمر افتتاني بالاتفاق ما تراكم في نفسي ضدّ القائد. جَلَت البشائر الخلابة إيجابيّات الرجل، فهو رجل المبادرة واختراق المحظورات، الجريء، والمحنّك. وفكّرتُ: هل أخطأ الذين قالوا إن قائدنا يعرف ما ينفع الشعب وما يضرُّه وعوّلوا عليه. وأقنعتُ نفسي بأن هؤلاء لم يُخطئوا، ومن أخطأ هو أنا وأمثالي.

حين أرسلتُ الرسالة، تصوّرتُ أن طلبي سيُلبّى بسرعة. فلمّا طال انتظاري دون تلقّي أيّ إشارة، فإني أرسلتُ رسالة ثانية، وذكّرت ناس القيادة بأنّي المسؤول الذي خبروه أيّام المعامع، وأني أخو الشهيد فادي المؤتمن، وأنّي، وأنّي... فلمّا لم يأت بالرغم من إلحاحي أيّ ردّ، نسبتُ التأخير إلى كثرة المتزاحمين على الانتقال إلى غزّة، وأرسلتُ رسالة ثالثة، ثم رابعة، ألحفتُ، وترجّيت، وكرّرتُ الرجاء، ولا ردّ. لم يغب عن بالي كيف يضطرب عمل ناسنا حين تدهمهم المهامّ الكبيرة. وظل في البال كثرة ذوي النفوذ الذين يتوسّطون لمحاسيبهم كي يظفروا بالأفضلية. ولأني خشيتُ أن يُستوفى عدد المسموح لهم بالذهاب إلى الوطن، العدد الذي حدّده الإتفاق، قبل أن أظفر بالفرصة، فقد نخوتُ وسطاء وتلقيتُ وعودهم. وإذ لم أظفر بالمطلوب حتى بعد هذا كلّه، فإنّي عزمتُ على التوجّه بنفسي إلى تونس البعيدة.

فاتحتُ العجوز بما اعتزمته وذكرت لها حاجتي إلى النفقة، فامتعضتْ: "ليس لنا إلا أبو سمير. يريد الرجل أن يستردّ دينه بعملك عنده، أما أنت فتريد أن تترك العمل، وتطلب مني، فوق هذا، أن أطلب منه قرضاً جديداً، ومن أجل أيّ شيء؟ من أجل أن تجري أنت وراء وعود الكذّابين وأقلق أنا عليك". لكن هذه الممتعضة هي أمّ، وهذا هو ما راهنتُ أنا عليه، فلم يخب رهاني.

وهكذا، أمكن أن أشرع في رحلة الأمل الذي حملني إلى تونس ثم إلى غزّة، الرحلة التي استغرقت شهرين وانتهت بخيبة الأمل التي أرجعتني إلى عمّان. ولكم أن تعرفوا أني رويتُ لعجوزي ما وقع لي، واعترفتُ لها بندمي على تجاهلي منطقها، واعتذرتُ عن فظاظتي. نعم، رويتُ كلّ شيء، لكنّي كتمتُ بعض ما قد يُثقل على أمّي. فأنا لم أقل، لمن استقبلتني بمشاعر موّزعة، إني تعرضتُ في غزة إلى أزمة قلبية كادت تودي بي. وحتى وهي تحثّني كي أنهض من نومي، لم أشأ أن أزيد أثقالها بأيّ حديث عن حاجتي إلى الراحة. وكيف أقول لأمي إن الطبيب الذي عالجني في غزة حذّرني: "الأزمة القلبية التالية قد تكون ... قد تكون هي القاضية".

أمّا لماذا ألحّتْ أمّي على عودتي إلى العمل فور وصولي، فلأنّ قريبها المحسن إلينا هجس بما يريب في غيابي الذي لم تبح أمّي له بسببه الحقيقي. وقبل رجوعي إلى عمّان بأيّام فقط، وجّه أبو سمير لأمّي إنذاره الأخير الحاسم: "إن لم يرجع الولد إلى عمله حتى يوم السبت فلن أرجعه إليه بعد ذلك أبداً، ولن أُؤجل المطالبة بما لي في ذمتكم". وكنّا في ذلك الصباح قد دخلنا في يوم السبت.

عشب قادم من الشرق

ليزا خضر

في الشـــرق..

هنا أيضاً يقتنون أعواد الثقاب
ليشيروا بها إلى النجوم..
تاركين أحلامَهم تبرد..
هنا تماماً..
في الشرق..
حيث للظلال أقنعةٌ ومقاساتٌ قمرية..
وللأسوار أعناقٌ تطلّ على السجون..
هنا تماماً..
في الشرق..
يتأبط المسافر الطريقَ كالأمتعة المصابةِ بالغبار..
يحملُ البلدَ معه في زجاجةٍ زرقاء..
يزيلُ عنها الحنين..

ويتعرَّقُ الروائحَ الأليفة
في غربةِ الجهاتِ عنه..
تاركاً كلَّ النوافذِ يدخلُ منها عشبٌ
بأغلالٍ على الخضرة..
عشبٌ قادمٌ ..
من الشرق
**
وفي الشرقِ تجيء المليحة..
يرفلُ خداها بحمرة التنور..
يقول لها جوعُه :
اقرئيني عينيكِ ..
شهدَ الكلامِ ..
دعيني أُلملم نُدَفَ الصوتِ
وأجمعُها كمناخٍ أمثل..
يقول لها عطشُه:
يا المطريّةُ..
انثري بيادرك في رجولتي..
فهنا تماماً..
في الشرق..
يقتنونَ الشفاه لقراءةِ طالعِ القمحِ
ويعتنقونَه كصك حماية من الجوع..
قشّرَ الجوزَ عن لونِ شفتيها..
وحشرَ أبجديةً ناصعة السلامِ
في عينيها..
فأهدتهُ وردة غارديناا..

وقصيدة..

**

هنا تماماً..

في الشرق..

يُرَنُّ الرمّان.. لا للطرب..

بل كي تخرجَ منه الأساطير..

يُساقُ الجنودُ ..لا للحربِ..

بل كي نَعُدَّ معاً قبل النومِ..

أرجلاً مقطوعة..

أبجديـــــــــة...

يقول ابنُ الحياة الشقيُّ..

استلقي فوق غيمةٍ..

دعي الأرضَ تفقد اهتمامَها بانتمائك..

فعندما لا تعيرُكِ الأرضُ أدنى جاذبية..

لا يبقى بينَك وبينَ الله سوى الشِّعرُ الطّلق..

اختبري كيف يلفظُ أحدُهم ظلَّه كخرافة..

دونَ أن يضطرّ للوقوف على حاجز تفتيش..

**

يا شقيُّ..!

ربما في يومٍ ما..

تفيقُ الأساطيرُ على فوضى سُمعتي ..

وتخرجُ منها عنقاءُ ذاتُ سُرّة تشدّني إلى عمري ..

و(أرجوس) عملاق ذو مئة عين ..

يتربّص بانفلاتي..
وربما قد أصيرُ أوديباً عصرياً..
معلقاً في المجرة..
**
يقول ابن الحياة الشقيُّ..
أَحَبُّ الحماقاتِ إلى فضولي النمشُ المذعورُ على وجهكِ ..
إغواءٌ لشفاهِ السِّحر قد لا تعرفينه..
إلا إن أنتِ أُغرمتِ بالأجنحة ..
اغرورقي بالمطرِ المقدّس .. وأسْمعِي ..
أَسمِعي الرغباتِ العطشى رقصَ الصوتِ..
والنساءَ المصاباتِ بحقبةٍ من الزهايمر.. ذاكرةً للأغاني..
**
أيا شقيُّ..
يقلقني الحضن السرياليّ ..
وملامح السماءِ بلا أوتاد..
**
يا ابنة الأرضِ تيممي بالخلاخيل..
جميلةً ترنّ أزرارَ الضوء
أضلاعُها ولّادةُ اللغات..
أصابعُها أبواغُ العطر..
وكما لم يكن يوماً ..
أغوارُها.. إطلالةُ وحيٍ ..
من فـــــوق..
يلهمُ الأرضَ القصدَ البليغَ..
للصلاة..

هاني أبو أسعد .. علامة فارقة في السينما الفلسطينية

يوسف الشايب

شكلت تجربة المخرج السينمائي الفلسطيني هاني أبو أسعد، علامة فارقة منذ تسعينات القرن الماضي، وتطورت ما بعد العام ألفين وصولاً إلى فيلمه الأخير "يا طير الطاير"، وقبله فيلمي "الجنة الآن"، و"عمر"، اللذان حصدا الكثير من الجوائز العالمية البارزة وصولاً للمنافسة على أوسكار أفضل فيلم أجنبي لمرتين. تجربة هاني أبو أسعد، ابن الناصرة، التي بدأت تتشكل فعلياً كمنتج لفيلمي "دار ودور" في العام ١٩٩٠، وفيلم "أيام طويلة في غزة" في العام ١٩٩١، وفيلم "حظر التجول" في العام ١٩٩٣، والأولان وثائقيان، والثالث روائي، تخللها أول فيلم روائي قصير من إخراجه في العام ١٩٩٢ وحمل اسم "بيت الورق"، وسبقه فيلمه الوثائقي الأول "لمن يهمه الأمر" في العام ١٩٩١.

أبو أسعد منتجاً

فيلم "دار ودور"، أول إنتاجات هاني أبو أسعد، من إخراج رشيد مشهراوي، الذي قال عنه مرة "تواجدت في يافا المدينة التي لجأ منها أجدادي، وتواجدت يافا في أفلامي، ومنها دار ودور".(١)، وقال عنه أيضاً: الفلسطيني صار يبكي كما في فيلمي "دار ودور" مثلاً، وهو فيلم كان بمثابة نقطة تحول بالفيلم الوثائقي الفلسطيني، فإذا ما قدر لك أن تترجم معاني الأفلام فستستوحي منها أن الفلسطيني بالطرح الجديد مثله مثل أي إنسان، ويمكن له أن يبكي بسهولة، وأن يكون سيئاً، أو أن يكون عميلاً ويضرب زوجته، وهو في الوقت نفسه المقاتل والمحامي وصاحب القضية. لا أريد أن أتحدث عن أشياء بديهية، أنا يمكن لي أن أشاهد ثلاث دقائق يعرف فيها الفلسطيني كضحية.. ومن ثم أتساءل فقد فهمت أنه ضحية، وما الذي يفعله حتى لا يظل ضحية، وحتى أتمكن من مساعدته، وأتعرف إليه، وأنت ستكتشف أنه جاء من مكان مهم جداً في هذا العالم اسمه فلسطين، ولديه فيها

خصوصيات رائعة، ولديه لهجته ولون إيقاعه، ولك أن تتذوق فيه الفنان أو المخرج أو الراقص. (٢)

وأضاف: مفهوم فيلم "دار ودور" كان غير الأفلام الفلسطينية التي عملوها في الثورة الفلسطينية في لبنان وخارج لبنان .. مفهومنا للقوة مختلف، ويقوم على أنه لو تجسدنا كشعب وحضارة وتاريخ، وكنا موضوعيين، وبتنا حالة كاملة، وخاصة أننا نملك المكان فنحن أقوياء .. وبالتالي من الصعب على أحد احتلالنا أو أن يستمر في احتلالنا، لأن وجودنا عال وراسخ على أرضنا، ففي هذا الفيلم نحن نرسم، ونرقص، ونحكي النكات ... جدي كان يحب جدتي في يافا قبل وجود دولة إسرائيل .. لم يكن هناك شيء اسمه دولة إسرائيل .. ما حاولنا أن نوصله من خلال الفيلم، أن لنا حكايات في يافا، حكايات أناس تنبت في الأرض شامخة كشجر الزيتون.. "أنا الذي في يافا بفيلم دار ودور" (٣)

"فيلم دار ودور الذي أخرجته وأنتجه المخرج هاني أبو أسعد، وكان منتجاً حينها، فيلم وثائقي خرج في فترة حرب الخليج والانتفاضة الأولى .. في الوقت الذي عرض فيه الفيلم هوجم وحورب في بريطانيا، رغم ذلك عرض في الصالات وحصد العديد من الجوائز، وأصبحت مكاتب منظمة التحرير الفلسطينية في العالم تملك الفيلم، وتعرضه، لإحساسهم بأهمية اللغة التي تناولها. (٤)

والفيلم يروي قصة الفلسطيني محمد، الذي يعيش في مخيم الشاطئ للاجئين قرب غزة، وهو في الأربعين من عمره، متزوج وله سبعة أطفال .. يسافر محمد كل أسبوع ليعمل في تل أبيب، إلى أن جلبت حرب الخليج عواقب سيئة على الفلسطينيين، فأصبح من الصعب الحصول على عمل، فتعاظمت التوترات العائلية .. ويتتبع الفيلم محمد وعائلته في غزة وفي تل أبيب أثناء الانتفاضة وحرب الخليج، ويظهر التضحيات التي عليه تقديمها لكي يستمر في الحياة. (٥)

فيلم "دار ودور" الوثائقي الطويل، كان يناقش فترة حظر التجوال في قطاع غزة في فترة حرب الخليج، والشعب الفلسطينى كان يبكى آنذاك من قلة وجود الطعام، وكان مشهراوي "شاهد عيان على تلك الفترة، وقد استطاع الهرب من قطاع غزة إلى تونس". (٦)

وكشف مشهراوي:صنعت فيلم دار ودور، وهذا الفيلم ازعج الاحتلال بشدة لانه رصد وقائع وحقائق يستحيل تكذيبها، وحاولوا نفيها بكل السبل ولكنهم فشلوا، للدرجة التي جعلتهم يقومون بمنع بطل الفيلم الرئيسي من الخروج من منزله لثلاث سنوات كاملة. (٧)

ومن الجدير بالذكر أن رشيد مشهراوي غادر قطاع غزة إلى هولندا، حيث أقام ثلاث سنوات، وأسس مع هاني أبو أسعد، شركة أيلول للإنتاج الفني، التي أنتجت العديد من الأفلام بالتعاون مع شركة أفلام اركوس الهولندية (٨)، كنوع من المأسسة لتعاونهما مشهراوي كمخرج وأبو أسعد كمنتج بعد فيلمي "دار ودور"، و"أيام طويلة في غزة".

ولكن هناك روايات تشير إلى أن شركة أيلول للإنتاج الفني، هي المنتجة لفيلم "دار ودور"، بالتعاون مع القناة الرابعة البريطانية، بمعني أنه إنتاج فلسطيني بريطاني مشترك يقع في ٥٢ دقيقة، عن سيناريو رشيد مشهراوي، وتصوير كلاوس يوليوسبرغ وجورج غوريفيتز، في حين لم يكن هاني أبو أسعد منتجاً فحسب، بل مساعد مخرج في هذا الفيلم، حيث تأسست الشركة في غزة، ومن ثم حملت الاسم نفسه في هولندا. (٩)

أما فيلم "أيام طويلة في غزة" (٣٠ دقيقة)، فهو من إنتاج هاني أبو أسعد، وريتشارد الوين، لصالح التلفزيون البريطاني، وعبر شركة أيلول للإنتاج السينمائي في غزة والتلفزيون البريطاني (بي.بي.سي)، عن سيناريو رشيد مشهراوي، ومن إخراجه، وتصوير كلاوس يوليوسبرغ، حيث ينقل الفيلم تأثيرات حرب الخليج على المجتمع الفلسطيني، وخصوصاً العمال منهم، وذلك من خلال ثلاثة نماذج تعبر عن آرائها في السياسة، وفي المجتمع، وفي الانتفاضة، وفي حرب الخليج، وعن رؤيتها للمستقبل في ضوء ذلك.

"جمعة الذي يعمل في أحد مطاعم تل أبيب ويصبح عاطلاً عن العمل، وإبراهيم الذي يرفض التعايش بين الفلسطينيين والإسرائيليين من حيث المبدأ، ومن ثم يرفض العمل في تل أبيب، ويجد عملاً له في غزة على الرغم من الحرب وظروفها، أما مصطفى الذي يبقى دائماً في تل أبيب ويستمر في العمل، سيجد أنه مرفوض في تل أبيب كما هو مرفوض في غزة". (١٠)

وفاز فيلم "حظر تجول" من إنتاج هاني أبو أسعد عبر شركة أيلول للإنتاج السينمائي، وإخراج رشيد مشهراوي، بجائزة في مهرجان كان السينمائي العام ١٩٩٤ (١١) .. والفيلم هو أول فيلم روائي طويل لمشهراوي، وحصد جائزة "اليونسكو" في مهرجان كان السينمائي الدولي، كما حصد عدة جوائز في مهرجانات سينمائية دولية في روما، وبرشلونة، والقدس، والقاهرة، وتونس. (١٢)، وهو الفيلم الذي قالت مصادر أخرى أنه باكورة إنتاجات هاني أبو أسعد ! (١٣)

ويقول الناقد عدنان مدانات إن فيلم "منع التجول" أو "حظر تجوال" صنع داخل بيت لعائلة فلسطينية في فترة منع التجول، وعبر هذا المنزل وعبر حياة الأسرة والجيران القادرين على التسلل إلى هذا المنزل يقدم مشهراوي واقع الحياة الفلسطينية عن طريق السهل الممتنع. (١٤)

بدايات أبو أسعد

ويعتبر الفيلم الوثائقي "لمن يهمه الأمر" باكورة أعمال هاني أبو أسعد مخرجاً، وهو من إنتاج "جرمق فيلم" لرشيد مشهراوي، وهذا يعكس عمق العلاقة بين الاثنين الذين تبادلا الإنتاج لأفلام بعضهما البعض.

والفيلم الواقع في خمس عشرة دقيقة، عن سيناريو المخرج حنا إلياس، وقام بتصويره إيفون

ميكلوش، وهو إنتاج فلسطيني هولندي مشترك، وشارك إلياس أبو أسعد في إنتاج الفيلم، الذي فاز بجائزة مهرجان كارلوفيفاري السينمائي الدولي العام ١٩٩١، وهو ذات عام إنتاج الفيلم، الذي يقدم قراءة في الموقف الفلسطيني المؤيد للعراق خلال حرب الخليج، ذلك الموقف الذي بدا غريباً لكثيرين من مؤيدي الحق الفلسطيني، كما يقول المخرج، من خلال استقراء آراء شخصين من الناصرة، ومحاولة نقل دوافعهما ورؤاهما التي نبع منها موقف كل منهما. (١٥)

ويرى البعض أن العام ١٩٩١، حيث كانت الإنتفاضة الأولى في أوجها، كانت ولادة المخرج هاني أبو أسعد، عندما قدم عمله الأول "لمن يهمه الأمر"، وهو فيلم وثائقي قصير، أنتجته شركة أيلول للإنتاج السينمائي التي كان أسسها في هولندا بالتعاون مع المخرج رشيد مشهراوي .. في هذا الفيلم حاول أبو أسعد قراءة الموقف الفلسطيني الذي بدا مؤيداً للعراق خلال غزوه للكويت، ونال الجائزة الأولى كأفضل فيلم قصير في معهد العالم العربي في باريس. (١٦)

وفي العام ١٩٩٢، خرج أبو أسعد بفيلمه الروائي الأول "بيت من ورق"، وهو فيلم روائي قصير (٢٨ دقيقة)، عن سيناريو هاني أبو أسعد نفسه، وإنتاج "أيلول للإنتاج السينمائي"، وشاركه في الإخراج حنا إلياس، وهو الفيلم الذي حصد جائزة أحسن فيلم قصير في بينالي السينما العربية في معهد العالم العربي في باريس العام ١٩٩٤، وهو من بطولة: سلوى نقارة حداد، وسليم ضو، وطارق قبطي، وسامية بكري، ورامي كزبري، ويونس يونس، وروحي عيادي. (١٧)

ويروي الفيلم قصة حلم خالد (١٣ عاماً) ببناء منزله الخاص في موازاة خلفية قاسية عن تدمير منزله الأبوي الحقيقي، حيث يقرر خالد، أثناء لعبه مع أخيه أمير وأصدقائه، بناء بيت ورقي، وبالفعل يبدأ مهمته مع أصدقائه، ويحصل على المواد اللازمة من أماكن متعددة. (١٨)، وهو الفيلم الذي وجد فيه بعض النقاد "تحليلاً ذكياً لتفتت البنية الاجتماعية والنفسية للشعب الفلسطيني تحت الاحتلال في ظل غياب الوعي الصائب لدى قياداته" (١٩)، بينما وجد آخرون أن "هاني أبو أسعد اختار الطفولة الفلسطينية بوابة للدخول إلى ميدان الحديث عن الانتفاضة في فيلمه بيت من ورق (١٩٩٢)، فعندما يهدم المحتل بيت أهل الفتى ، يقوم ببناء بيت من ورق، ويتعاون هو وأصدقاؤه لتوفير المواد اللازمة لبناء هذا البيت. (٢٠)

وعن الفيلم قال أبو أسعد: كانت تجربتي الأولى هي فيلم "بيت من ورق"، الذي يتناول قصة ولد فلسطيني هدمت السلطات الاسرائيلية بيته فأصبح حلمه بناء بيت جديد حتى ولو من ورق، ونال هذا الفيلم الجائزة الثالثة من مهرجان الإسماعيلية للأفلام التسجيلية والقصيرة العام ١٩٩٢. (٢١)

وكان أبو أسعد تحدث عن أفلام مغمورة له في بدايات مشواره السينمائي، ولكن دون تفصيل، ومن

بينها إضافة إلى "بيت من ورق"، فيلم "الـ ١٣"، وفيلم "بنت الـ ١٤" .. وقال: فيلمي القصير الثاني (الـ ١٣) لا يتعرض للمقاومة الفلسطينية ويحكي قصة خيالية لشاب يستيقظ فلا يجد سوى نفسه في كل العالم، وأيضاً فيلمي الروائي "بنت الـ١٤" بعيداً عن الهم الفلسطيني ويتناول قصة زواج شاب وفتاة هولنديين في شكل كوميدي. (٢٢)

الألفية الثالثة من "الناصرة"

وبدأ هاني أبو أسعد رحلته السينمائية في الألفية الثالثة العام ٢٠٠٠، عبر فيلمه الوثائقي "الناصرة ٢٠٠٠"، عن سيناريو أبو أسعد نفسه بالتعاون مع أضاليا شبلي، وهو فيلم من إنتاج فلسطيني هولندي مشترك، يحكي قصة مدينة الناصرة التي يعود إليها من هولندا، حيث يجد في كل من "أبو عرب"، و"أبو ماريا" العاملين في محطة وقود مادة لحكايته .. نتعرف إلى عاملي المحطة فنجد أبو ماريا (المسيحي)، وهو من أبناء مدينة الناصرة الأصليين، وأبو عرب (المسلم) من قرية المجيدل، وهو واحد من الفلسطينيين الذين طردوا من قراهم التي دمرت العام ١٩٤٨، حيث تتنوع الموضوعات، وتتعدد في قصة الناصرة، بدءاً بموقف أحد أفراد أسرة المخرج، وصولاً إلى حديث رامز جرايسي رئيس بلدية الناصرة، آنذاك، عن مشروع الناصرة ٢٠٠٠، المعد لاستقبال الألفية الجديدة، وزيارة البابا لمدينة الناصرة، وما فجره هذا المشروع من إشكالات بين المسلمين والمسيحيين، بسبب مقام شهاب الدين والوقف الإسلامي حوله. (٢٣)

وفي العام ذاته، أنجز أبو أسعد فيلمه الوثائقي القصير "تحت المجهر" (٢٣ دقيقة)، وحاول فيه تقصي الأسباب الحقيقية التي دفعت الفلسطينيين لإيقاد شعلة انتفاضة الأقصى، وتحديداً مشاركة أبناء فلسطين المحتلة العام ١٩٤٨ فيها، تلك التي نجم عنها استشهاد ١٣ شاباً من مدينة الناصرة والقرى المحيطة بها. (٢٤)

وحول الفيلم الذي أعده أبو أسعد بالتعاون مع بيرو باير، ونزار جون، يقول المخرج العراقي قيس الزبيدي: في إثر اشتعال انتفاضة الأقصى في الضفة الغربية وقطاع غزة، والتي اندلعت في ٢٨ أيلول/ سبتمبر من العام ٢٠٠٠، اشتعلت أحداث انتفاضة موازية في مدينة الناصرة .. يحضر المخرج من مكان إقامته في هولندا ليصنع فيلماً يتقصى حقائق الأمور، ويسجل مقدمات ومآلات ما جرى في الناصرة، لافتاً إلى أن النواة الأساسية في الفيلم هي حوار يأخذ شكل التحقيق الصحافي مع شباب في مقتبل العمر، لم يدخلوا العقد الثاني، بالتوازي مع حوارات وشهادات لرجال شهدوا النكبة، فيبدو الفيلم كأنه يقارن بين المنطقين، ليبيّن جموح الشباب ونهوضه، في مقابل انكسار وخمود الكهول، ويبدو في النهاية أن هذا الموضوع لن يكتب له الاستمرار، بل هو مهدد بالانفجار في أي حين ما دام هناك احتلال وعنصرية. (٢٥)

فورد ترانزيت .. علامة فارقة

ويمكن اعتبار فيلم هاني أبو أسعد الوثائقي "فورد ترانزيت" علامة فارقة بالنسبة له، هو الفيلم المنتج في العام ٢٠٠٢ من قبل "أوغستوس فيلم" في أمستردام، ويمتلكها أبو أسعد نفسه، فعلى مدار ثمانين دقيقة يرافق المخرج سائق السيارة العمومية رجائي وركابه على طريق رام الله – القدس، مروراً بالحواجز العسكرية الإسرائيلية، والمتاريس التي شكلت بدايات جدار الفصل العنصري، والطرق الالتفافية، ليكون واحداً من بين ركاب متنوعين في أفكارهم وآرائهم بشأن الأوضاع في فلسطين، والصراع مع الاحتلال الإسرائيلي، علماً بأن من بين ركاب "الفورد" ساسة وكتاب وفنانون فلسطينيون وإسرائيليون كالدكتورة حنان عشراوي، والدكتور عزمي بشارة، والأب عطا الله حنا، والمخرج "ب.ز. غولدبيرغ".

واللافت في الفيلم تلك الحساسية التي تناول فيها الفيلم حكاية سائق "الفورد"، رجائي، منتقلاً من حياته الخاصة إلى الوضع العام للشارع الفلسطيني، والذي أقل ما يمكن وصفه بالمعقد والمأساوي .. رجائي كان كرشّة الملح الضرورية لطهي الفيلم على نار هادئة، خاصة حين يطرح وجهة نظره الخاصة والمغايرة بشأن الوضع السياسي والحلول المستحيلة، وحين يتحدث عن "الاسترزاق" من تهريب الأقراص الممغنطة، وعن أحلامه المستقبلية خارج فلسطين، وكذلك عن افتتانه بـ"العمليات الاستشهادية"، دون أن ينكر حالة الإحباط التي تعتريه جراء كونه سائق سيارة عمومية (فورد).

والطريف في الأمر، أن المخرج تطرق في الفيلم إلى أن هذه السيارات كانت تمنح لعملاء الاحتلال، من أجل تأمين تنقلاتهم وتواصلهم مع عناصر الأجهزة الاستخباراتية الإسرائيلية، وإنه بعد افتضاح أمرهم وجدوا أنفسهم مضطرين لبيعها، فتحولت إلى وسائط نقل عمومية، وبالتالي فإن عدد سيارات الفورد يدل على عدد العملاء الذين كانوا، وقد حصل الفيلم على جائزة مهرجان القدس السينمائي العام ٢٠٠٣. (٢٦)

وفي هذا الفيلم التوثيقي، يعمل أبو أسعد، بما يملك من أدوات، على إيواء حلم سائق حافلة في مدينة القدس، اختار مهنة على قدر كبير من الخطورة نظراً لمروره المتواصل عبر حواجز التفتيش الإسرائيلية، والحواجز المفاجئة التي تضيق الخناق على شوارع المدينة إذ تتحول الحافلة باستمرار باتجاه طرق ترابية وعرة وخطرة، حيث رصاص القناصة الإسرائيليين بالمرصاد. (٢٧)

تلتقي كاميرا أبو أسعد لتستجلي موقف الركاب بالأحداث الساخنة على الأرض الفلسطينية، وتستجلي كذلك آراء بعض الخبراء النفسيين والاختصاصيين الاجتماعيين والسياسيين كحنان عشراوي وعزمي بشارة.. تلك الآراء التي تكشف عن الدمار الذي تجاوز هدم البيوت ومس قدسية الحياة والحلم وأوغل تخريباً في أعماق البشر.

يمثل الفيلم وقفة صادقة أمام الموت المرفوض قطعاً من كل بشري، كيف يصبح الموت خياراً وربما رغبة تنتصر أحياناً على الرغبة في الحياة؟!

اختار أبو أسعد مدينة القدس لتصوير أحداث فيلمه المشوق. فالفيلم يحاول بجرأة وصدق وعمق أن يفكك خيوط الصورة المعقدة والمتشابكة على الأرض من خلال العمليات الاستشهادية التي أضحت ظاهرة فلسطينية... ويطرح تساؤله المؤلم: كيف يقودك التوق للحياة والتشبث بها إلى طريق الموت؟ كيف يكون الإنسان هو القاتل والضحية في آن؟ هذه ليست بدعة فلسطينية، بل أسقطها المحتل على الفلسطيني، أولاً من خلال تباكيه وتصوير نفسه على أنه ضحية الفلسطيني، وثانياً حين جرّد هذا المحتل، استناداً إلى تفوقه العسكري والاقتصادي، الفلسطيني من كل أسلحة المقاومة ووضعه في خانة واحدة: الموت أو الاستسلام التام والمهين ما دفع الفلسطيني إلى أن يحول موته إلى سلاح ينال من الذات والقاتل على حد سواء.

ويقدم المخرج، على امتداد ساعة ونصف هي زمن الفيلم، وبحرفية بالغة جملة واسعة من الحقائق والرسائل الإنسانية الحميمة البسيطة المستمدة من صميم الواقع الفلسطيني، حيث سائق الحافلة هو نموذج للكثير من الشباب الفلسطيني الذي يتعرض للضرب والإهانة والتخويف والتجويع بصورة دائمة تبعث فيه اليأس وتشحنه ليكون قنبلة موقوتة. (٢٨)

وقال أبو أسعد عن الفيلم: الفكرة الأساسية في "فورد ترانزيت" محاولة الخروج بفيلم وثائقي ولكن برؤية مغايرة تجعل منه ليس مجرد فيلم وثائقي، فقد حاولت إخراجه في إطار قصة روائية، وبالتالي عملت في خط التماس ما بين الروائي والوثائقي ... لم يكن بطل الفيلم سائق سيارة عمومية (فورد) فحسب، بل كان يقدم دوراً روائياً انطلاقاً من مهنته هذه، واعترف أنني أحياناً كنت أمليه ما يقوله، لإتمام عملية المزج ما بين اللغة الروائية واللغة الوثائقية في الفيلم. (٢٩)

زواج رنا

وفي ذات العام، خرج أبو أسعد بفيلمه الروائي الطويل "زواج رنا"، أو "القدس في يوم آخر" عن سيناريو ليانة بدر وإيهاب لمعي، وبطولة: كلارا خوري، وخليفة ناطور، وإسماعيل دباغ، ووليد عبد السلام، وزهير فاهوم، وبشرى قرمان.

ويتناول الفيلم حكاية رنا الشابة المقدسية التي تقرر ذات صباح ترك منزلها في القدس الشرقية للبحث عن حبيبها خليل الذي تنوي الزواج منه، في وقت يرغب فيه والدها أن ترافقه في سفر خارج فلسطين أو أن تختار عريساً من بين قائمة أعدها لها مسبقاً، وخلال عملية البحث هذه،

يسلط أبو أسعد الضوء على معاناة المدينة، وبشكل ذكي وغير مباشر، عبر إجراءات الاحتلال في المدينة المقدسة.

وبالإسهاب أكثر، يمكن القول إننا في "عرس رنا" لا نتعامل مع مادة فلكلورية تشتغل على تفاصيل خاصة بتقاليد الزواج، حيث يبدأ الفيلم بمشهد مركّب، هو نوع من المقدمة، تستخدم فيه مؤثرات بصرية لصور ثابتة لأشخاص ملتقطة من الخلف فلا نرى الوجوه: أم، أب، أخ وآخرين، ملصقة على لقطات سينمائية لهم مستلقين على الأسرة، بمصاحبة تعليق على كل مشهد على حدة ، يوحي بأنه يتعامل مع حدث مضى، هو ما حصل خلال نهار واحد مع الشابة رنا التي قررت الزواج من حبيبها في نفس النهار.

تعيش رنا مع والدها في القدس، فيما يعيش أخوتها في القاهرة.. الوالد مضطر للسفر إلى القاهرة والتوجه نحو المطار في الساعة الرابعة من بعد الظهر. وهو لا يريد أن يترك ابنته تعيش وحيدة في القدس. لهذا اشترط عليها إما الزواج في نفس اليوم وقبل أن تبلغ الساعة الرابعة بعد الظهر أو مصاحبته للعيش معه خارج البلاد.

كان الوالد قد جهز قائمة بأسماء مرشحين محتملين للزواج: محامين، وأطباء، وموظفين، كان كل منهم قد "طلب يدها"، وجوبهوا جميعهم برفضها، والآن يريد منها أن تختار على عجل أحدهم.

هكذا بات على رنا أن تبحث فورا عن حبيبها خليل، المخرج المسرحي، لكي تتزوج منه قبل المهلة التي حددها الأب في الساعة الرابعة من بعد الظهر.. هذه هي العقدة التي تنبني عليها حكاية رنا والتي تجعل من الحكاية ومساراتها أشبه بلعبة تحمل في طياتها قدرا ما من السخرية أو المفارقة.

تجوب رنا شوارع وأحياء القدس بحثا عن حبيبها، تتصل به مرارا على الهاتف الخلوي فلا يرد، تبحث في المنازل التي يمكن أن يتواجد فيها فلا تعثر عليه، إلى أن تعلم انه أمضى ليلته في صالة المسرح في رام الله لأن في عودته ليلا إلى القدس مغامرة خطرة مليئة بالتوتر والقلق.

تضطر رنا للذهاب إلى رام الله وتعود مع حبيبها لإتمام مراسم الزواج... وينتهي الفيلم بزواج رنا من حبيبها في آخر لحظة، لكن مراسم الزواج وما تبعها من احتفال بسيط ترقص خلاله رنا في الشارع وسط المدعوين والشهود، تتم في الطريق قرب حاجز لجيش الاحتلال الإسرائيلي، لأن المأذون لم يتمكن من عبوره بعد أن احتجز جنود الحاجز هويته.

من لحظة استيقاظ رنا فجرا وحتى زواجها في الساعة الرابعة من بعد الظهر، تعيش رنا مغامرة، ففي كل مكان هناك جنود وحواجز عسكرية .. كل خطوة تحتاج إلى تصاريح من الاحتلال، وكل طلب تصريح مخاطرة غير مضمونة النتائج، فالفيلم يظهر أن الاحتلال واقع يومي يشمل كل نواحي الحياة وجميع الناس والتعامل معه يتم بشكل طبيعي.

فيلم "عرس رنا" يغوص عميقاً في عرض تفاصيل مدينة القدس: تفاصيل الأحياء والأزقة والشوارع القديمة والمنازل، بما يشبه الرحلة في أرجاء القدس تحت الاحتلال، والموازية بدورها لرحلة رنا بحثا عن خليل.. تلك التفاصيل التي برع هاني أبو أسعد والمصور برغيت هيلينيوس في تقديمها، ما يجعل من الفيلم بدوره وثيقة سينمائية وجمالية عن القدس.

قال أبو أسعد عن الفيلم: زواج رنا يحكي عن بنت فلسطينية تسعى للالتقاء بحبيبها قبل الساعة الرابعة عصراً لتتزوجه، وهكذا تبقى في القدس، ومن خلال رحلة البحث عن حبيبها يرى المشاهد ما يحدث على أرض الواقع في فلسطين، وخاصة في القدس. (٣٠)

الجنة الآن

طرح فيلم الجنة الآن (٢٠٠٥) لهاني أبو أسعد، الذي نال جائزة غولدن غلوب لأفضل فيلم أجنبي في الولايات المتحدة، أسئلة عن الحياة والموت وتغيير الواقع الفلسطيني عبر عملية تفجيرية ينوي الصديقان تنفيذها، حيث يتتبع الفيلم مصير خالد وسعيد وهما شابان فلسطينيان من مدينة نابلس اختارتهما جماعة فلسطينية لتنفيذ عملية تفجير في تل أبيب .. وفي العام ٢٠٠٦ بات "الجنة الآن" الفيلم الفلسطيني الأكثر شهرة " والذي حصد جوائز عالمية قبل ترشحه للمنافسة على جائزة أوسكار أفضل فيلم أجنبي، وفوزه إضافة إلى الـ"غولدن غلوب" عن أفضل فيلم أجنبي، بجائزة لجنة النقاد في مهرجان برلين السينمائي، وعدد كبير من المهرجانات العربية والعالمية. (٣١) ما أثار حفيظة جهات صهيونية داخل وخارج إسرائيل، كون الفيلم عمل على أنسنة الاستشهادي.

وكشفت صحيفة"يديعوت احرنوت"الإسرائيلية عن ضغوط إسرائيلية ويهودية على أعضاء أكاديمية فنون السينما الأميركية لحرمان الفيلم الفلسطيني"الجنة الآن"، ومخرجه هاني أبو أسعد من جائزة الأوسكار كأفضل فيلم أجنبي لهذا العام، بعد أن فاز بجائزة الكرة الذهبية غولدن غلوب، لأفضل فيلم أجنبي.

وذكرت الصحيفة أن شخصيات إسرائيلية ويهودية تمارس ضغطاً هائلاً على أعضاء الأكاديمية، مشيرة إلى النفوذ الواسع الذي يتمتع به اللوبي اليهودي في هوليوود. وأكدت الصحيفة أن الضغوط أدت الى انتزاع وعد من الأكاديمية الأميركية بعدم تقديم الفيلم بصفته يمثل فلسطين، بل بصفته السلطة الفلسطينية.

وأفادت الصحيفة بأنه منذ فوز الفيلم بجائزة الكرة الذهبية، قام موظفون في القنصلية الإسرائيلية في لوس أنجلوس، بعملية جس نبض لدى أهل السينما في هوليوود حول فرص حصول الفيلم على جائزة أوسكار. وتبين لهم أن الفيلم هو أكثر الأفلام المرشحة حظاً بالجائزة، فتقرر تكثيف الجهود

السرية لمحاصرته، وحجب الأوسكار عنه.

وكان أبو أسعد أعلن أنه تفاجأ بـ"الغولدن غلوب"لأفضل فيلم أجنبي، وترشيح فيلمه للأوسكار، خصوصاً أنه سبق أن فقد"الدب الذهبي"في مهرجان برلين السينمائي لأسباب سياسية، وضغوط إسرائيلية يخشى تكرارها في الأوسكار.

وصرّح أبو أسعد: بعد توزيع الجوائز في برلين، اقترب مني مدير المهرجان، وهمس في أذني معتذراً عن أن المهرجان لم يمنحني الجائزة الكبرى الأكبر بسبب الجرائم التي اقترفها الألمان أيّام النازيّة". فأجبته:"نحن الفلسطينيين خسرنا أرضنا ووطننا بسبب جرائمكم، والآن أخسر جائزتي التي أستحق بسبب هذه الجرائم".

والفيلم الذي رفضته اسرائيل، لاعتبارات تتعلق بأنسنة الاستشهاديين، أثار جدلاً واسعاً بين الفلسطينيين خلال تصويره في نابلس، وعند عرضه في رام الله ومدن فلسطينية أخرى، خصوصاً مع الأنباء التي تتحدث عن تمويل إسرائيلي لـ"الجنة الآن"، الأمر الذي نفاه هاني أبو أسعد قطعياً، ويوضح: كان هناك مساعدات غير مالية من قبل المنتج المشارك الإسرائيلي، عمير هارائيل الذي لولاه لما تمكنا من التصوير في المدن والمناطق داخل الخط الأخضر... أنا أرفض التمويل الإسرائيلي، ولم تعرض أي جهة إسرائيلية أساساً تمويل الفيلم. أريد أن أقول للعالم إن إسرائيل لا تمول أي فيلم لا يخدم خطها السياسي، أما هارائيل، فتعرض لمضايقات عدة، ولتهديدات من قبل أعضاء في الكنيست الإسرائيلي، ما حدث أيضاً مع مسؤول في صندوق الفيلم الإسرائيلي، بمجرد إعلانه في برلين عن استعداده للمساعدة في عرض الفيلم داخل إسرائيل". (٣٢)

ويرى الناقد إبراهيم العريس أن فيلم "الجنة الآن" فيلم مختلف: مختلف في موضوعه الجديد، والراهن، مختلف في ديناميكية لغته السينمائية، ومختلف في قدرة مخرجه على إدارة ممثليه بحرفية مدهشة، ومختلف حتى، أخيراً، بترجمة ردود الفعل التي يجتذبها. فهنا تحت دائرة التعاطف المسبق، يجد المتفرج نفسه أمام عمل يجمع الدراما بالتشويق، السياسة بالكوميديا، الواقع بالتأمل الفكري، وكل هذا حول موضوع يمس جوهر ما يثير اهتمام العالم اجمع: "موضوع الإرهاب"، كما يطلق عليه في الغرب، فـ"الجنة الآن" اختار ان يطرق هذا الموضوع، مباشرة ومن أوسع ابوابه، طارحاً الكثير من تلك الأسئلة الشائكة التي تدور حول من هو الانتحاري؟ كيف يصبح قنبلة متحركة، جاعلاً من جسده، سيارة "مفخخة"؟ لماذا يصبح انتحارياً، وليس من ناحية الدافع السياسي والديني فقط؟ كيف يجنّد؟ هل هو انسان من لحم ودمّ ام انه مجرد ماكينة قتل؟ ثم ما هي مشاعره الخاصة اذ يُقدم على ما يُقدم عليه؟ ..هذه الأسئلة التي من الواضح ان قلة من الناس

تطرحها او تتجرأ على طرحها، جعل منها هاني ابو اسعد، مركز الصدارة في فيلم، كان عليه في نهاية الأمر ان يسير على حبل مشدود، إذ ان كل ما يمس هذا الموضوع يبدو، قَبْلياً ، من المحظورات او المسكوت عنه. والمشي على الحبل المشدود، هو النتيجة المنطقية لرغبة قول ما لم يكن يقال. (٣٣)

اننا هنا إزاء فيلم فلسطيني كبير، اعتبر وحده تقريباً "الحضور العربي" في دورة ذلك العام لمهرجان برلين... ثم عرف كيف يؤمن خلال المرحلة التالية الحديث عن حضور ما، ومتميز، لسينما عربية متميزة. وهنا لا بد من ان نشير الى ان هاني أبو أسعد ساجل طويلاً خلال ذلك المهرجان مدافعاً عن الأبعاد الفنية لفيلم من المفترض ان يطغى عليه الحديث السياسي والايديولوجيا وسجالاتهما، راح يقول على اي حال انه انما حقق هذا الفيلم لكي يفتح سجالاً حول أمر لا يساجل أحد بشأنه، مؤكداً انه صور فيلمه في نابلس، أي في الموقع الساخن للأحداث خلال فترة عصيبة، ما اضطره احياناً الى استكمال تصوير بعض المشاهد في الناصرة. أما ممثلو الفيلم، وأبرزهم قيس ناشف (سعيد) وعلي سليمان (خالد)، فإنهم آتون من التمثيل المسرحي، في مقابل لبنى الزبال (سهى) المغربية الأصل الحاضرة في السينما الفرنسية ولا سيما في افلام اندريه تيشينه وهيام عباس الفلسطينية المقيمة في فرنسا.

باختصار اتى "الجنة الآن"، وهو كان يومها ثاني أعمال هاني أبو أسعد في مجال الفيلم الروائي الطويل، بعد "عرس رنا"، فيلماً كبيراً وجاداً... فيلماً يجمع المهارة التقنية بالاقتراح السياسي، من دون أن يزعم إيجاد الاجوبة لكل الأسئلة المطروحة... وهاني أبو أسعد اكد هذا على اية حال قائلاً انه يكفيه طرح الاسئلة التي لا يريد أحد أن يطرحها حقاً... الاسئلة التي آن الأوان لكي تطرح من دون أفكار مسبقة وذاتية مفرطة... لأن هذين سيقطّعان الحبل المشدود في نهاية الأمر. (٣٤)

وعن الفيلم قال أبو أسعد: أستاء كثيراً ممن يعيشون تحت وطأة الغرب، وكأنه من واجبنا إقناعه بأننا جيدون .. أرفض من يصنع أفلاماً لهذا الهدف، لأنه في ذلك يضع نفسه في موقع دوني، وكأنه يطلب من الغرب أن يلتفت إليه بأنه جيد .. أنا أرى أنني يجب أن أتساوى مع الكبار أو أتفوق عليهم، لا يهمني ان اقتنع الغرب أم لم يقتنع بعدالة قضيتنا .. كانت بالنسبة لي فكرة مثيرة أن أصنع فيلماً حول ظاهرة من يلفون أنفسهم بأحزمة ناسفة ومتفجرات، ويدخلون حافلات، لينفجر الجميع، وشعرت أن هذه الفكرة قد تكون مثيرة، لأنها تسلط الضوء عما وراء هذه الظاهرة، ولماذا يفعلون ذلك. (٣٥)

وشدد أن "الغرب شعر بأن الفيلم يسيء لسياساتهم، فهم يسعون أن يوصلوا للجمهور أن الانتحاري وحش، وليس لديه مشاعر إنسانية، وبالتالي حينما تقدم في فيلمك وجهاً إنسانياً تعرّيه، وتكشف لا واقعيته .. المنطلق في "الجنة الآن" هو أن من يقدم على تنفيذ عملية انتحارية إنسان، وليس مطلوباً مني القيام بإنجاز فيلم لأثبت ذلك، هو إنسان رغماً عن الجميع وعن إسرائيل. (٣٦)

عمر الفلسطيني

وكعادته، لم يخرج فيلم هاني أبو أسعد (عمر)، وهو أول فيلم فلسطيني خالص الإنتاج، أي أنتج بالكامل بأموال فلسطينية، عن إثارة مواضيع حساسة وجدلية، ولكن بأسلوب رشيق وشفاف، حيث تناول الفيلم، الذي رُشح لجائزة أوسكار كأفضل فيلم أجنبي، قضية الفلسطينيين المتعاونين مع إسرائيل شديدة الحساسية، أو "العملاء" كما نسمّيهم، عبر حكاية خباز فلسطيني شاب يدعى عمر، ليلقي الضوء على الخيارات الصعبة التي يضطر لاتخاذها بعد تورطه في قتل جندي إسرائيلي وتعرضه لضغوط من جانب المخابرات الإسرائيلية للعمل لصالحها، وهنا يضع علاقة عمر بأسرته وأصدقائه والفتاة التي يحبها على المحك.

ويقول مخرج الفيلم، هاني أبو أسعد إن الفيلم "يتناول قصة حب، لكنه أيضا يتعلق بالولاء والخيانة في ظل الاحتلال"، مضيفاً بأن "تجنيد متعاونين مع إسرائيل يعتبر من الموضوعات المحظورة، لكنني شعرت أنه آن أوان مناقشته لأنه شديد الأهمية.". ورأى أبو أسعد أن تجنيد الفلسطينيين "لا يدمر المقاومة الفلسطينية فحسب، بل يقضي على آدمية البشر.. برأيي، هي جريمة كبيرة." (٣٧)

والفيلم المنتج العام ٢٠١٣، ويقوم ببطولته كل من آدم بكري، ليم لوباني، إياد حوراني، سامر بشارات، يعالج عدة مواضيع عبر حبكة فنية يقول أبو أسعد إنها تستلهم مسرحية "عطيل" لشكسبير، مضيفاً: "مشكلة عطيل كانت إحساسه بعدم الأمن. عندما لا تشعر بالأمن تبدأ في التفكير في أمور لا يمكن تصديقها. عندما تعاني من شعور بالاضطهاد، لا يمكنك اتخاذ قرارات عقلانية". ويستطرد قائلاً: "أعتقد أننا جميعاً نعاني من هذه اللحظات في الحياة ومن ثم نشعر بعجز وجودنا. نحن الفلسطينيين نعرف ذلك. (٣٨)

وهنا أستعيد بعض ما كتبه حول الفيلم عند عرضه الأول في فلسطين، وبالتحديد في قصر رام الله الثقافي، حيث سردت حكاية الفيلم بالقول: ويروي الفيلم قصة خباز شاب يدعى عمر، متيم بفتاة فلسطينية على الجانب الآخر من جدار الفصل العنصري، ويسعى بشكل منتظم لتفادي الرصاصات التي يطلقها جنود من أجل تسلق الجدار لرؤية الفتاة. ويتحدث الشاب والفتاة بحماس عن الزواج. لكن خططهما تنحرف عن مسارها عقب اعتقاله بسبب تورطه في هجوم على الجيش الإسرائيلي قتل فيه جنديا. (٣٩)

ويتعرض عمر للتعذيب في السجن من أجل الإدلاء بمعلومات لصالح الاحتلال، ليبدأ بممارسة لعبة القط والفأر مع الإسرائيلي الذي يحاول تجنيده .. ففي الوقت الذي يحاول إثبات أنه ليس "خائنا" يشاع في الشارع أنه كذلك.

ويبدأ فيلم "عمر" (٩٨ دقيقة)، الذي كتبه مخرجه، بالشاب عمر (آدم بكري) يتسلق الجدار لكي

يلتقي مع صديقيْ عمره طارق (إياد حوراني) وأمجد (سمير بشارة)، ومع نادية (ليم لوباني) شقيقة طارق الطالبة التي يتبادل معها الحب. لكنه ما إن يصبح على قمة الجدار ويستعد للنزول من الناحية الأخرى حتى يطلق عليه جنود الاحتلال الرصاص رغم أن الناحية الأخرى ليست إسرائيل، وإنما نفس البلدة التي قسمها الجدار.

يصاب عمر إصابة طفيفة، ويتمكن من اللقاء مع صديقيه ومع حبيبته. وتبدأ أحداث الفيلم مع مشهد يقوم فيه طارق بتدريب عمر وأمجد على إطلاق النار، ويقول لهما في نهاية المشهد "نحن جاهزون يا شباب". وفي مشهد آخر على الطريق الرئيسي خارج البلدة تقوم دورية من جنود الاحتلال بإذلال عمر عندما يأمرونه تحت تهديد السلاح بالوقوف على صخرة صغيرة رافعاً يديه من دون أي مبرر سوى أنه فلسطيني.

وفي الليل يقوم الأصدقاء الثلاثة برصد مجموعة من جنود الاحتلال عند حاجز عسكري، ويطلب طارق إطلاق الرصاص، فيتردد عمر ولا يتردد أمجد ويصوب نحو أحد الجنود ويقتله. ويبدأ الصراع بين أجهزة الأمن الإسرائيلية والشبان الثلاثة لمعرفة من الذي قتل الجندي، وإلى أي فصيل سياسي ينتمون، والعمليات الأخرى التي يخططون لها.

تعرف سلطات الاحتلال من قاموا بالعملية، ويعرف الشباب الثلاثة بالطبع أن هناك من أبلغ عنهم من الفلسطينيين المتعاونين مع الاحتلال، ويتوصل طارق إلى الجاسوس ويعذبه ويقتله.

وتتم مطاردة عمر والقبض عليه وتعذيبه داخل السجن. وهنا تبدأ دراما قوية كتبها وأخرجها هاني أبوأسعد ببراعة واقتدار عن علاقة القط والفأر بين عمر ورامي (وليد زعيتر)، ضابط المخابرات الإسرائيلي الذي يتولى القضية، ويريد أن يعرف بالضبط من يكون قاتل الجندي، وفق ما كتب الناقد المصري الشهير سمير فريد.

وقال أبو أسعد إنه استوحى فكرة الفيلم من واقعة رواها له أحد أصدقائه حين حاولت أجهزة الاستخبارات إجباره على التعاون معهم، لأنهم كانوا يعرفون سرا عنه، وهو الأمر الذي من شأنه أن يتسبب بفضيحة لعائلته.. لم يعرف ماذا يفعل بل أن يقرر "إنك تعرف ماذا أفعل، سوف أدمر عائلتي، ولكن لن أصبح متعاونا مع العدو". (٤٠)

ويقول أبو أسعد إنه لا يخشى رد الفعل السلبي عن الفيلم، مشيرا إلى أن "المجتمع الفلسطيني منفتح جدا، وأكثر انفتاحا بكثير مما يعتقد. نحن منفتحون جدا على الانتقادات".

ويعتبر فيلم "عمر" الفيلم الروائي الأول بهذا المستوى، الذي يصوره أبو أسعد بالإستعانة بطاقم أغلبه من الفلسطينيين ومعظمهم جدد بالمجال، وحول هذا يقول "لقد كانت مخاطرة كبيرة. في بعض

الأحيان قلت لنفسي، يا إلهي، ماذا أفعل، ولكن عندما أرى النتائج أصبح سعيدا جدا لأنني خاطرت".

ويشعر أبو أسعد بأنه فخور خاصة وأن الفيلم أنتج بأموال فلسطينية فقد ساهم رجال أعمال ومغتربون فلسطينيون بـ٩٥٪ من موازنة الفيلم، بينما ساهمت دبي بما تبقى، وهو ما قال صاحب "الجنة الآن" إنه منحه "حرية" كبيرة "فأن تكون أكثر اقتصادا يعني أن تكون أكثر استقلالية". (٤١)

وفي محض تحليل الفيلم، كنت كتبت: الطلقة الأخيرة في فيلم "عمر" لهاني أبو أسعد، كانت بمثابة رسالة على أكثر من اتجاه، أولها أن كرامة الفلسطيني الحر في لحظات تكون أهم من حياته، وأن لا حياة طبيعية لنا في ظل الاحتلال، وأن الحل الأمثل يكمن في التخلص منه، وهو ما حصل حين أطلق عمر (آدم بكري) النار على ضابط المخابرات الإسرائيلي الذي حاول تجنيده بعد اعتقاله. (٤٢)

بعد قرابة الساعتين من "شد الأعصاب"، حيث البكاء، والابتسام، والضحك حتى القهقهة، والصراخ، والتوتر، وغيرها من المشاعر المتناقضة، استطاع الفيلم المبني مع معالجة درامية على قصة حقيقية، فضح عنصرية الاحتلال عبر العديد من المشاهد، من بينها مشهد إجبار عمر على الوقوف فوق حجر صغير نسبيًا لفترة طويلة، بقرار مزاجي من جنود دورية لجيش الاحتلال، وحين احتج هشموه ضربًا، قبل أن يجبروه على الوقوف مرة أخرى على ذات الحجر وبقدم واحدة، ومن ثم التعذيب في غرف التحقيق، على الصعيدين الجسدي والنفسي، وتصوير تفاصيل لا يعرفها إلا الفلسطينيون، كـ"غرفة العصافير"، وإن كان تم توضيح الفكرة لمن هم خارج فلسطين، عبر الحوار بين ضابط المخابرات الإسرائيلي الذي انتحل شخصية قيادي مقاوم، وأوقع عمر في الفخ، إضافة إلى مشاهد اقتحامات المخيم المتكررة، ومشاهد جدار الفصل العنصري الذي لعب دورًا أساسيًا في الفيلم، عكس علاقة الفلسطيني بالاحتلال .. قلة انتقدت ما وصفوه بـ"أنسنة" ضابط المخابرات الإسرائيلي، بل إن أحد المخرجين أخبرني بأنه "حزن عند مقتله برصاصة عمر"، وأرى في ذلك مبالغة، حيث إنني قرأت الصورة بشكل مغاير لما قرأه، فضابط المخابرات الذي "يريك من طرف اللسان حلاوة ويروغ منك كما يروغ الثعلب"، هو صورة حقيقية لعدد من ضباط المخابرات الذين عايشهم الأسرى وذووهم، وأسر المطاردين، وهنا علقت عبارة من شقيقة أحد المطاردين السابقين في ذهني، حين قالت لي، "ذكرني الفيلم بما حدث مع شقيقي .. كان هناك جنود يحاولون أن يكونوا لطفاء، وربما يكون بعضهم كذلك، لكن هذا لا يعني أنهم لطفاء"، بل إن الصورة هذه يمكن أن تقرأ على أنها دلالة رمزية على محاولات دولة الاحتلال الادعاء بأنها الدولة الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط، والظهور بمظهر حضاري، على عكس الواقع، كما هو حال ضابط المخابرات الإسرائيلية رامي. (٤٣)

من الناحية الفنية، الفيلم "مشدود" إلى درجة لا يمكنك معها الشعور بالملل، ومحبوك بطريقة

جيدة، إلا من بعض الهنات هنا وهناك، والتي تعكس حالة الفراغ التي تعيشها السينما الفلسطينية بسبب غياب كتاب سيناريو محترفين، لكنها لا تؤثر على القيمة الإلجمالية للفيلم، كما أن أداء الممثلين كان مدهشًا، علاوة على أن الرؤية الإخراجية وعين أبو أسعد السينمائية بقيت متألقة كعادتها، فبعد ثمانية أعوام على فيلمه الجنة الآن، حقق حضوراً عالمياً لافتاً، ويكفي نجاح "عمر" في الاختبار الأصعب، وأعني استحسان الفلسطينيين له. (٤٤)

وإضافة إلى فوز فيلم عمر بجائزة لجنة التحكيم في مهرجان كان السينمائي العام ٢٠١٣، فاز بالعديد من الجوائز العالمية، حيث حصد غالبية جوائز مهرجان قرطاج السينمائي في دورته الخامسة والعشرين، ومنها جائزة أفضل فيلم (التانيت الذهبي)، وجائزة "التانيت الذهبي" للجمهور، و"التانيت الذهبي" لجائزة التحكيم الخاصة بالشباب، وجائزة أفضل سيناريو العام ٢٠١٤، وكذلك بجائزة "المهر العربي" كأفضل فيلم روائي في مهرجان أبو ظبي السينمائي العام ٢٠١٣.

"يا طير الطاير"

بلغة سينمائية اجتمعت فيها الكوميديا بالتراجيديا بـ»الآكشن» والغناء، ينجح هاني أبو أسعد في فيلمه يا طير الطاير (The Idol)، من إنتاج العام ٢٠١٥، عبر حكاية مقتبسة من سيرة النجم محمد عساف، أن ينقل صورة حقيقية ومغايرة بمقاييس سينمائية عالمية عن الشعب الفلسطيني، ومعاناته، وأحلامه، وطموحاته، دون أن يظهر جندياً واحداً من جيش الاحتلال في الفيلم، مع عدم غياب دلالات ما يسببه لنا من أذى، فهو غائب وليس مغيّبا. إدخال أحداث متخيلة لأسباب درامية، وهو ما أشار إليه الفيلم بصراحة في مطلعه، خدمه كثيراً، ومنح عساف بعض تفاصيل حياته الغائبة للمخرج قدم إضافة أخرى، علاوة على السيناريو ذي الحساسية العالية، وكذلك الكاميرا، وهذا ما اعتدنا عليه من هاني أبو أسعد، إضافة إلى التركيز على الإنساني بعيداً عن الكلاشيهات والشعارات، مع أهمية الإشادة بأدوار الفنانين الفلسطينيين والعرب، وخاصة الأطفال قيس عطا الله (عساف الصغير)، وهبة عطا الله (شقيقته نور)، وأحمد قاسم (صديقه أشرف)، وعبد الكريم أبو بركة (صديقه عمر)، وبالدور الحيوي للموسيقى، والأزياء، والديكور الخارجي، وتحريك الممثلين في المشاهد المتنوعة، فهاني أبو أسعد في فيلمه "يا طير الطاير" أضحكنا وأبكانا، أحبطنا ومنحنا الأمل .. إنها الحياة، إنها السينما، إنها فلسطين. (٤٥)

وقال أبو أسعد عن الفيلم، الذي حقق شهرة عالمية على مستوى المهرجانات، وعلى مستوى عرضه في أكبر عدد من دور العرض السينمائي في العالم تسجل لفيلم فلسطيني: فيلم "يا طير الطاير" ليس فيلماً عابراً .. هو فيلم مهم لي على الصعيد الشخصي، لأنه يتحدث عن غزة التي تصدّر المقاومين

والفنانين والمبدعين رغم أنها تقبع تحت الحصار، وتحت القمع .. هذا الفيلم هديتي لغزة وأهلها. (٤٦)

سينما خاصة

ولهاني أبو أسعد حكاية خاصة مع السينما، عبر عنها ذات مرة بالقول: أما بالنسبة للسينما فأنا أحببتها فعملت بها فأنا مهندس طيران وعملت في هذا المجال لمدة عامين من ٨٧ – ٨٩ ولكن وجدت أن الهندسة تقوم على معاملة واحدة ١+١=٢ وهذه المعادلة ثابتة في كل أنحاء العالم، ولأنني بطبيعتي أعشق المغامرة وأعشق الخيال فقد اتجهت للإخراج السينمائي وأنا عشقت السينما منذ كنت طفلاً، ففي مدينتنا الناصرة كانت هناك سينما (ديانا) تقدم كل أحد فيلمين في تذكرة واحدة أجنبي (كاوبوي) ومصري. وعشقت من خلال مشاهدتي الأبطال المصريين فريد شوقي ورشدي أباظة وتوفيق الدقن ومحمود المليجي وهند رستم وميرفت أمين. لذلك عندما شعرت بقسوة الواقع وضيق مجال الهندسة هربت الى عالم السينما الرحب الواسع الذي كان يساعدني وأنا طفل على الهروب لمدة ٤ ساعات من الواقع الصعب في ظل الاحتلال الاسرائيلي. (٤٧)

وفي نظرة سريعة على الأفلام التي حققها هاني أبو أسعد في تجربته السينمائية الرائدة، والتي باتت عالمية بطبيعة الحال، يمكن القول بأنه مخرج مهووس بالحكاية الفلسطينية، يحاورها، ويسبر أغوارها، ويغازلها دون خجل، ويأتيها من جوانبها المتعددة، على مستوى الواقعي والمتخيل، ففي أفلامه كلها يسعى للقبض على السؤال الذي يشاغله، ويترك فضاء الإجابة مفتوحاً أمام الشخصيات التي يتناولها، ويمنحها فرصة التعبير عن ذاتها، دونما ادعاء أو تصنع، كما إن هاني أبو أسعد متنوع في خياراته الفنية، وإن كان انحاز في تجاربه الأخيرة إلى المتابعة والمعايشة، وهو ما لم يغب عن تجاربه الأولى، ما يجعل من أعماله سؤالاً مستفزاً بالمعنى الإيجابي، ويراكم معرفياً كما هي مراكمته لاحترافية إجادة المتعة البصرية، ما يجعل المشاهد لأفلامه يقف أمام معالجة مبدعة لدقائق تفاصيل الحياة الفلسطينية، بحلوها ومرها، وسلبياتها قبل إيجابياتها، وكأنه يقول "لا تحرر دون حرية".

الهوامش

(١) أسماء الغول، تقرير بعنوان "رشيد مشهراوي: السينما الفلسطينية حققت وطناً لم يحققه السياسيون"، جريدة الأيام اليومية الفلسطينية، ٦ آذار/ مارس ٢٠٠٧.

(٢) تقرير بعنوان "رشيد مشهراوي في انتظار "الانتظار"، لنحاول تحرير السينما الفلسطينية من الاحتلال"، جريدة الحياة اللندنية، ٤ حزيران/ مارس ٢٠١٤.

(٣) فاطمة عطفة، تقرير بعنوان "رشيد مشهراوي: الأم تشكل دقات قلب المخيم في حالة الحصار والمقاومة"، جريدة القدس العربي، ٢٩ كانون الأول/ ديسمبر، ١ محرم ١٤٣٠ هجرية.

(٤) المصدر السابق.

(٥) قيس الزبيدي، فلسطين في السينما، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، الطبعة الأولى، بيروت ، أيار/ مايو ٢٠٠٦.

(٦) موقع النفيس الالكتروني، "السينما الفلسطينية مسيسة وغير موضوعية"، ٣ آذار/ مارس ٢٠١٥.

(٧) منة عصام، تقرير بعنوان "رشيد مشهراوي: حياة الإنسان الفلسطيني في ظل الاحتلال هي قضيتي وشغلي الشاغل"، جريدة الشروق المصرية، ٤ آذار/ مارس ٢٠١٥.

(٨) نوريث غيرتس، جورج خليفي، منظر في الضباب (٢٠٠٥) بالعبرية.

(٩) قيس الزبيدي، مصدر سبق ذكره.

(١٠) لمصدر نفسه.

(١١) تقرير بعنوان "الأفلام الفلسطينية تحصد الجوائز الدولية"، وكالة الأنباء الألمانية (د.ب.أ)، ٧ أيار/ مايو ٢٠٠٩.

(١٢) تقرير بعنوان "فيلم رشيد مشهراوي في السرايا يافا"، موقع العرب الالكتروني التابع لأسبوعية كل العرب، الناصرة، ١٨ أيار/ مايو ٢٠١٢.

(١٣) تقرير بعنوان "هاني أبو أسعد في مهرجان ترايبيكا السينمائي ٢٠١٠"، جريدة الوسط البحرينية، ١ تموز/ يوليو ٢٠١٠.

(١٤) أحمد فضل شبلول، تقرير بعنوان "يوم فلسطيني في عيد ميلاد ليلى"، موقع الجبهة الالكتروني، حيفا، ١٧ تشرين الأول/ اكتوبر ٢٠٠٨.

(١٥) قيس الزبيدي، مصدر سبق ذكره.

(١٦) حسام فتحي أبو جبارة، مقال بعنوان "هاني أبو أسعد ينصر القضية الفلسطينية سينمائياً"، جريدة القدس العربي، ١١ تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٩.

(١٧) قيس الزبيدي، مصدر سبق ذكره.

(١٨) المصدر نفسه.

(١٩) محمد عبيدو، مقال بعنوان "هاني أبو أسعد: سينما فلسطينية حيوية ومتميزة فنياً"، موقع سينما الشعر الالكتروني، ٦ آذار/ مارس ٢٠١٥.

(٢٠) مجدي أحمد علي، مقال بعنوان "السينما الفلسطينية والانتفاضة"، موقع مؤسسة القدس للثقافة والتراث، ٢٩ تموز/ يوليو ٢٠١٠.

(٢١) أمجد صادق، تقرير بعنوان "هاني أبو أسعد: هزمنا إسرائيل سينمائياً"، مجلة الأهرام العربي، ١ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٣.

(٢٢) المصدر نفسه.

(٢٣) قيس الزبيدي، مصدر سبق ذكره.

(٢٤) حسام فتحي أبو جبارة، مصدر سبق ذكره.

(٢٥) قيس الزبيدي، مصدر آنف الذكر.

(٢٦) حسام فتحي أبو جبارة، مصدر سبق ذكره.

(٢٧) تقرير بعنوان "فيلم فورد ترانزيت استجلاء مواقف أوغلت في تخريب الإنسان الفلسطيني"، جريدة الغد الأردنية، ١ تموز/ يوليو ٢٠٠٧.

(٢٨) المصدر نفسه.

(٢٩) الجزيرة نت، مقال بعنوان "هاني أبو أسعد .. مغامراته السينمائية"، ١٨ نيسان/ ابريل ٢٠٠٦.

(٣٠) المصدر نفسه.

(٣١) يوسف الشايب، تقرير بعنوان "افتتاح مهرجان القصبة السينمائي الدولي .. الليلة"، جريدة الأيام الفلسطينية، ١١ تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٦.

(٣٢) يوسف الشايب، تقرير بعنوان "الضغوطات الإسرائيلية بدأت على أكاديمية الأوسكار بعد غولدن غلوب"، جريدة الحياة اللندنية، ١٨ شباط/ فبراير ٢٠٠٦.

(٣٣) إبراهيم العريس، مقال بعنوان "الجنة الآن لهاني أبو أسعد: الانتحاري والإرهابي والاستشهادي"، جريدة الحياة اللندنية، ٤ آذار/ مارس ٢٠١٤.

(٣٤) المصدر نفسه.

(٣٥) الجزيرة نت، مصدر سبق ذكره.

(٣٦) المصدر نفسه.

(٣٧) يولاند نيل، مقال بعنوان "فيلم عمر الفلسطيني ينقل للأوسكار قضية المتعاونين مع إسرائيل"، الموقع الالكتروني لـ"بي.بي.سي"، ٢٨ شباط/ فبراير ٢٠١٤.

(٣٨) وكالة أنباء "رويترز"، تقرير بعنوان "الفيلم الفلسطيني عمر .. قصة حب ومشكلة هوية"، ٢٩ كانون الثاني/ يناير ٢٠١٤.

(٣٩) يوسف الشايب، تقرير بعنوان "عمر لهاني أبو أسعد يفوز بجائزة لجنة تحكيم مهرجان كان"، وكالة النورس للأنباء، ٢٥ أيار/ مايو ٢٠١٣.

(٤٠) المصدر نفسه.

(٤١) المصدر نفسه.

(٤٢) يوسف الشايب، مقال بعنوان "عمر لهاني أبو أسعد .. فيلم عنّا !"، جريدة الأيام الفلسطينية، ٥ أيلول/ سبتمبر ٢٠١٣.

(٤٣) المصدر نفسه.

(٤٤) المصدر نفسه.

(٤٥) يوسف الشايب، تقرير بعنوان "إطلاق فيلم يا طير الطاير لهاني أبو أسعد في فلسطين .. حدث فني بمقاييس عالمية"، جريدة الأيام الفلسطينية، ٢٥ كانون الثاني/ يناير ٢٠١٦.

(٤٦) المصدر نفسه.

(٤٧) محمد عبيدو، مصدر سبق ذكره.

الروائي العراقي أحمد سعداوي في حوار "أوراق فلسطينية":

أكتب عن العراق المعاصر .. والشعب الفلسطيني لن يقهر

حاورته بديعة زيدان

قال لي الروائي العراقي أحمد سعداوي أنه، وبعد "فرانكشتاين في بغداد"، الفائزة بالجائزة العالمية للرواية العربية (البوكر) العام ٢٠١٤، "تتملكني فكرتان لروايتين لم أقر بعد إلى أي منهما سأنحاز، وربما أتجاهل الاثنتين، حيث سبق لي أن كتبت سبعين صفحة في إحدى الروايات، ثم عدلت عنها وأهملتها .. صحيح أنهما تختمران جيداً داخلي، لكن الأمور لم تتبلور بعد، وتحتاج كل منهما عند اتخاذ قرار الانحياز إليها دون الأخرى إلى عمل طويل، وبحث معمق، كعادتي في روايتي السابقة"، ثم قال لاحقاً إن "روايتي المقبلة فيها محور أساسي قائم على علاقة حب معقدة، ولكن ليست هي القصة الوحيدة في الرواية"، ويبدو مما علمت منه مؤخراً، أن الرواية المنجزة وتحمل اسم "باب الطباشير"، هي ليست الأولى ولا الثانية ولا حتى الثالثة، وهو ما يعكس حالة خاصة لروائي تتملكه الكثير من الهواجس عند الكتابة، بل والرعب أحياناً، وله طقوسه التي تجعله مغايراً كما هي آراؤه العميقة.

وعن رواية "باب الطباشير"، قال في حواره مع "أوراق فلسطينية": باب الطباشير هي الباب المرسوم على الحائط بالطباشير، باب الحلم والوهم. الذي لا يفتح، ولكن، كما تقول الرواية، لا نريد ان نتخلى عنه، ونضعه دائماً ضمن خياراتنا .. الرواية بشكل عام ستكون كبيرة الحجم، أكثر من ٣٥٠ صفحة من القطع المتوسط، وتجري احداثها عبر ٢٠ فصلاً في بغداد في زمن معاصر، وكما في رواياتي السابقة فإن للخيال مساحة كبيرة في هذه الرواية، وهي تروي بالاساس قصة حب، داخل مزيج بوليسي وفانتازي واحالات سياسية واجتماعية. . أخذت مني "باب الطباشير" جهداً ووقتاً طويلاً بكل تأكيد، وأتمنى أن تحظى بقبول القراء واعجابهم. خصوصاً اؤلئك الذين أحبوا رواياتي السابقة،

ويترقبون إصداري الجديد، وآمل أن انتهي من المراجعة الاخيرة لها لتصدر خلال هذا الصيف. وأحمد سعداوي روائي وشاعر وسينارست، ولد في بغداد العام ١٩٧٣... أصدر في مجال الشعر "الوثن الغازي" العام ١٩٩٧، و"نجاة زائدة" العام ١٩٩٩، و"عيد الأغنيات السيئة" العام ٢٠٠١، و"صورتي وأنا أحلم" العام ٢٠٠٢ .

وأصدر من الروايات "البلد الجميل"، وحاز عنها العام ٢٠٠٥ على الجائزة الأولى في فرع الرواية بمسابقة الصدى الإماراتية بدبي، ورواية "إنه يحلم أو يلعب أو يموت" العام ٢٠٠٨، وهو الفائز بمسابقة هاي فاستيفال العالمية ومقرها لندن، فيما كان اختير ضمن أفضل ٣٩ أديباً عربياً دون سن الأربعين في مشروع "بيروت ٣٩" العام ٢٠١٠، وكذلك حصل على الجائزة الأولى في مهرجان الصحافة العراقية عن فئة "الريبورتاج" العام ٢٠٠٤، وبالتالي فإن "فرانكشتاين في بغداد" الفائزة بالجائزة العالمية للرواية العربية (البوكر) ٢٠١٤، هي الرواية الثالثة في مشواره كراوٍ محترف، علاوة على كونه عمل مسبقاً كمعد برامج وأفلام وثائقية، وهو رسام له تجارب عديدة في مجال الفن التشكيلي.

• تبدو رواية "فرانكشتاين في بغداد" أكثر من ثلاثية الأبعاد .. ألم يشكل ذلك تحدياً لك؟

روايتي تشتغل على خمسة مستويات: المستوى الواقعي والمجتمعي السياسي، والمستوى الفانتازي، والمستوى الميتافيزيقي، والمستوى البوليسي، ومستوى الرعب، والتحدي، كيف أسيّر هذه المستويات معاً خلال الرواية، ففي المستوى المجتمعي السياسي تتحدث الرواية عن العراق في فترة ما بعد سقوط نظام صدام ودخول الاحتلال الأميركي وما تبعها من متغيرات في العراق.

أما المستوى الفانتازي فتمثل من خلال حكاية "الشسمه" (فرانكشتاين البغدادي)، ودائرة المتابعة والتعقيب حيث تم توظيف منجمين (من يتنبأون بالمستقبل).

أما المستوى الميتافيزيقي فتمحور حول مناقشة فكرة المخلص من خلال مجموعة أفكار ذات بعد لاهوتي وديني مرتبطة بفكرة المخلص، وكيف أن فكرة الخلاص يجب ألا تكون معلقة برقبة شخص واحد، وحينما يتجه شعب ما إلى فكرة المخلص فإنه يحوله إلى دكتاتور .. نحن في العراق لدينا تجربة مريرة في إنتاج الدكتاتوريات، وللأسف ما زلنا نسير على النهج نفسه .. هذا يجب أن يتوقف، فلا يوجد شخص بمفرده يخلص شعباً بأكمله.

• وماذا عن اسم الرواية؟

منذ بداية كتابتي للمسودات الأولى للرواية كان الاسم يلازم العمل، ولاحقا، أي بعد ثلاث سنوات شعرت بالملل من الاسم فحاولت تغييره ..ووضعت عدة مقترحات، ولكني وجدت في النهاية، أن

اسم "فرانكشتاين في بغداد" مرتبط بشكل عميق مع الرواية وتفاصيلها فأبقيت عليه.

• كل هذا ... ؟!

كتابة الرواية عمل مرهق ويحتاج إلى بحث كبير .. الرواية توجب الإبقاء على إيقاع نفسي واحد لفترة زمنية طويلة، وهذا أمر صعب للغاية، ولذلك فإن كتابة الرواية الجيدة تحتاج إلى وقت طويل، وزيارات ميدانية، وإجراء مقابلات، فيجب عدم الاعتماد على "النت" فحسب.

على سبيل المثال، في روايتي احتجت معلومات عن المسيحي الاثوري للكتابة عن العجوز الآثورية أيليشوا "أم دانيال"، وغيره، وبما أنني أقابل العديد من أفراد هذه الأقلية المسيحية بشكل يومي، كان يجب أن اعتمد على أحاديثي معهم، ولا داعي لاستخدام "النت".

الروائي بداخله باحث، فالرواية لا تقدم فقط متعة جمالية وإنما تقدم معرفة.. نحن العرب نعاني نقصاً هائلاً في المعرفة، وعلى الروائي أن يساهم في زيادة التوعية وتقديم المعرفة.. إذا شعر الروائي أنه يعلم كل شي فهذه مشكلة خطيرة.

خلال فترة كتابتي للرواية كنت أزور حي البتّاوين، الذي تدور فيه أحداث الرواية، كثيرا، وأتحدث إلى السكان هناك.. كنت أتفحص كل شي.. أحصي عدد السلالم، وأتفحص الجدران، ونسبة رطوبتها، وكأني مهندس معماري، لأحاول أن أتصور حجم الدمار الذي سيخلفه تفجير ما في هذا المكان.

• هل سارت معك "فرانكشتاين في بغداد" بسلاسة دون عقبات؟

بالطبع لا .. أعددت أربع مسودات للرواية، بمعنى يمكنني القول إنني كتبتها أربع مرات .. وبعد الانتهاء منها عرضتها على عدد من أصدقائي المهتمين داخل العراق وخارجها، وكان أن أثنوا عليها، ولم يقدموا نصائح جوهرية تتعلق بالبنية والتركيب وحتى اللغة، إلا ما ندر.

ما يسعدني أن أكثر قراء الرواية ومبتاعيها هم من فئة الشباب كما علمت، مع أنها قرئت من عدة أجيال، إلا أن التفاعل الأكبر معها كان من جيل الشباب، وذلك لربما كون الرواية تتحدث عما يجري في العراق، وما يهم الشباب داخل العراق .. في الرواية طرحت وجهة نظري الخاصة فيما يجري في العراق، بعيداً عن الصورة النمطية التي يصورها الإعلام، العربي منه والغربي، لذا تقصدت أن أقول شيئاً جديداً لم يقله الإعلام.

يسعدني أن فوز الرواية بجائزة البوكر ساهم في انتشارها بشكل أكبر، وهذا ساعدني على نقل صورة مغايرة عن العراق إلى العالم بأسره، وساعدني في نقل صورة حياتية عما حدث ويحدث في عراق اليوم إلى العالم، وخاصة العرب.

تقنية وجدليات وإسقاطات

• وماذا عن التقنية؟

الآلية المتبعة في الرواية، أو منطقة الاشتغال في رواية تأتي ضمن منطقة اشتغال روايات ما بعد الحداثة، وبشكل شرعي ومعروف في روايات ما بعد الحداثة عالمياً، وأعني هنا تقنية "الاقتباس"، أو "التضمين"، فحينما تأخذ مفردة من نص أدبي أو تاريخي، وتعيد توظيفها في نص جديد، هنا المفردة القديمة تكتسب معاني جديدة، وبشكل عام فإن تاريخ الأدب هو إعادة إنتاج لنصوص وأفكار سابقة، فلو اشتغلنا على إحصائية حول توظيف حكاية شهرزاد وشهريار، الثنائية الأساسية في "ألف ليلة وليلة"، سنرى أن نصوصاً كثيرة اشتغلت عليها، في محاولة لإعادة إنتاجها بإطار جديد، وبمعنى جديد، حتى إن بعضها تناولت الأنثى من خلال الحكاية، ومحاولاتها في الانتصار على قدرها في مواجهة السلطة الذكورية .. هذه التقنية موجودة في الرواية الحديثة (الاقتباس والتضمين).

ما حدث في "فرانكشتاين في بغداد"، أنني استعنت بمفردة "فرانكشتاين" من أفق أدبي غربي تماماً، ومرتبط بمجموعة أفكار ذات علاقة بالعلم وخلق إنسان جديد تتعلق بالقرن التاسع عشر، وأعدت توظيفها في بيئة مختلفة تماماً، حيث باتت المفردة تقصد شيئاً آخر، وتحيل إلى واقع اجتماعي وثقافي عربي، وعراقي تحديداً.

• تبرز في الرواية جلياً جدلية الضحية والجلاد، وتوحدهما ...؟!

عملت في الرواية ما بين الأعوام ٢٠٠٨ و٢٠١٣، وهي الفترة التي لم يكن فيها "الربيع العربي" رائجاً، بل كان الموضوع العراقي هو "الأسخن" في المنطقة، فتحدثت عن وضع عراقي بحت، لكن النموذج العراقي لاحقاً تكرر في مختلف البلدان العربية، حيث طرحت الرواية ما يمكن وصفه بالحدود الفاصلة بين المجرم والضحية، والكيفية التي من خلالها يمكن أن أطمئن إلى أنني مجرد ضحية، واستحق الشفقة والتعاطف، وأن لا علاقة لي بالجرائم المرتكبة في الشارع.. هل هذا الوصف ينطبق ويصدق علينا أم لا، أم اننا مشاركون في صناعة الجريمة دون أن نشعر بذلك؟!

هناك من يمسك بالسلاح الناري ويضغط على الزناد ويبطش به مباشرة، وهناك من يؤيدون عمليات القتل، وتريحهم فكرة الثأر والانتقام، ويطبقون عدالتهم الخاصة، أو مفاهيمهم الخاصة عن العدالة باعتباره مفهوماً مطلقاً حولها .. هؤلاء جميعاً مشاركون في قتل الضحية التي تسقط في الشارع، حتى وإن لم يضغطوا على الزناد بشكل فعلي.

كقراءة اجتماعية وثقافية وسياسية، وقعنا في هذا المطب بالعراق، وهو مطب أخلاقي، فكلنا نصرخ بأننا ضحايا، ولكن يبقى السؤال: من يرتكب الجرائم إذا كنا جميعاً ضحايا، ومن هنا ظهرت

شخصية "الشسمه"، هذا الكائن الخيالي الذي تنسب إليه الجريمة، أو المجرم المطلق، فكل يرى أن هذه الجرائم ترتكب من أطراف أخرى، وهذا الطرف مكون منا جميعاً، ففيه قطعة شيعية وأخرى سنية وتركمانية وكردية، وغيرها .. هذا هو القاتل الذي يرمز إلينا جميعاً، وهو في نفس الوقت مكوّن من أجزاء الضحايا، ويرمز إلينا جميعاً باعتبارنا ضحايا.

"الشسمه" يتشابه في الشكل مع "فرانكشتاين"، لكنه في البنية العميقة كائن ينتمي إلى البيئة المحلية العراقية، ولاحقاً بات يرمز للبيئة الاجتماعية والثقافية والسياسية العربية بشكل عام، وبكونها مجتمعات متنوعة تعاني من ذات الخطوط العامة للمشكلة العراقية، حتى في المجتمع الليبي الذي في تركيبته المجتمعية طائفة واحدة، الذي بات يعاني من حرب لا يعرف لها بداية أو نهاية".

• وماذا عن فكرة المخلّص؟

مجتمع الرواية ينتمي لطبقات متعددة، من القاع (شخصية هادي العتاك، وأم دانيال، وغيرهما)، وصعوداً إلى مؤسسات السلطة (شخصية العقيد المتواصل مع الأميركيين) .. لكل شخصية علاقة، بشكل أو بآخر، بـ"الشسمه" (فرانكشتاين البغدادي)، للإشارة إلى أن الجميع مشتركون في صناعته.

الرواية تناقش فكرة المخلّص، ففي أزمات الشعوب اليائسة تبرز ظاهرة البحث عن حلول سحرية، خاصة الأزمات المتفاقمة حتى على الصعيد الزمني حيث ترتفع نسبة الإحباط، وفي مجتمعاتنا التي لم تأخذ حظها في التقدم الفكري والمعرفي بشكل حقيقي، تبرز فكرة المنقذ أو المخلص عميقاً لديها، ولهذا ظهور الدكتاتوريات لدينا ليس بالأمر الغريب، فثقافتنا المجتمعية تعزز السلطة الفردية، وأن يكون الحل بيد فرد واحد في مواجهة جمعية الحل وتعدد الأطراف المشاركة في صياغته، أي في تقرير مصيرهم، وبالتالي فإن واحدة من مقولات الرواية الأساسية إنه "حتى لو كان ملاكاً هذا المخلّص، فإن السلطة اللامحدودة له ستحوله إلى شيطان يرتكب بالضرورة أخطاء كارثية، ويتحول إلى دكتاتور في النهاية"، فالخلاص الفعلي هو الخلاص الجمعي، بحيث يتحمل الجميع المسؤولية، كما في المجتمعات الحديثة القائمة على المسؤولية الجماعية.

في العام ٢٠١٠ وما قبله بعامين، وما بعده حتى الآن، انتعشت في المجتمع العراقي فكرة القائد الضرورة، أو القائد المخلّص، وهذه الحالة ساهمت وتساهم في إنتاج دكتاتوريين جدد، ولا يمكن علاج هذه المسألة إلا بنهوض المجتمع على المستوى السياسي، أما على المستوى الأخلاقي فلا بد للجميع بالشعور بالذنب، وهو ما لم يحدث حتى الآن، فلا شعور جمعيا بالمسؤولية عما حدث ويحدث في العراق، وهذا ينطبق على العديد من الدول العربية التي تعيش أزمات شبيهة بالأزمة العراقية، وإن في وقت لاحق لها، وكأن لا علاقة لنا بما يحدث، وبالتالي نستسهل إلقاء المسؤولية

على جهات بعينها، وعلينا أن نعترف بإصرارنا على تجاهل مسؤوليتنا في هذا الاتجاه... "إذا كان ثمة أزمة، ويعتقد الجميع أنهم على حق، فإن الجميع على خطأ".

• ذكرت في الرواية أن "الخوف يصنع الوحوش" ... هل هو الوجع العراقي؟

أرى فعلاً "الخوف يصنع الوحوش" .. للأسف لا يزال العراق يقع تحت دائرة الخوف، وهو خوف لم يبدأ منذ العام ٢٠٠٣، مع الاحتلال الأميركي للعراق، بل بدأ منذ سقوط الملكية، وهذا السقوط التدريجي للدولة، وهو سقوط عميق لا يمكن تصحيحه بـ"كبسة زر"، بل يحتاج إلى جهد حقيقي يستغرق زمناً طويلاً، حتى تتحول مؤسسات الدولة إلى مؤسسات حقيقية راسخة، بحيث يشعر المواطن تحت ظلها بالأمان ويغادر الخوف، محيلاً إلى مقولة للخليفة علي بن أبي طالب "لا تستشر جائعاً، ولا خائفاً، ولا محتصراً (أي يتملكه شعور بإفراغ زوائده الجسدية في المرحاض)، بمعنى لا تتوقع الحل من شخص مأزوم، فتحت وطأة الخوف لا يستطيع أي شخص اتخاذ قرارات سليمة، بل سيكون الخوف هو من يملي عليه، ولو دون وعي، قراراته.

ولهذا كانت قرارات البناء السياسي ما بعد العام ٢٠٠٣، وإن كانت السلطة العراقية خرجت عبر صناديق الاقتراع في انتخابات حرة، لكن الحكم كان جمهوراً واقعاً تحت سطوة الخوف، فهناك خوف حرك الناس تجاه اختياراتهم هذه، وهذا الخوف لا يقودهم فحسب إلى خياراتهم السياسية، بل يكاد يشكل قراراتهم أو خياراتهم في مختلف نواحي حياتهم.

• وماذا عن تحولات العتاك، وإسقاطاتها؟

العتاك في الرواية هو صانع الحكاية، ولا يضطلع بأية رؤى أو مهام أخلاقية، لكن الغريب والمثير أن القصص المؤثرة في واقعنا، أو الكثير منها بدأت بهذه الطريقة الاستعراضية التي انطلق منها العتاك للفت أنظار مرتادي المقهى الذي يرتاده .. كثير من الكائنات الخيالية اخترعت في هذه الفترة، وكثير من الأحداث الفنتازية حصلت فيها، واحدة منها أن شخصاً في إحدى المحافظات العراقية ادعى أنه المهدي، وآمن به البعض، والطريف الذي يندرج في إطار "الكوميديا السوداء"، أنه وذات مرة، وبينما كان يسير برفقة أتباعه في أحد الشوارع، استوقفه أحدهم على دراجة نارية، وسأله إن كان هو "الإمام المهدي"، وحين أشار بالإيجاب، عاجله بكلمة "طز"، أو تلك الحكايات التي نسجت خلال معارك الأميركيين في الفلوجة، ومنها أن كائنات هبطت من السماء لتقاتل قوات الاحتلال الأميركي، والأمر ينسحب على رواية العنكبوت الضخم الذي هبط من السماء ليساند جيش المهدي في معركته ضد الأميركيين في النجف، وبدأ في التهام عناصر الجيش الأميركي، وللأسف، بات يتعاطى معها الكثيرون كوقائع، وهذا جزء من المخيال الشعبي المعاصر، الذي اتجه نحو الفنتازيا تحت وطأة الخوف.

في الرواية كان من المستحيل على السلطات العراقية إلقاء القبض على شخصية خيالية كـ"الشسمه"، ولرغبتها في إنهاء أزمة هذا القاتل الذي يثير رعب الناس في بغداد، اتجهت نحو اعتقال صانع الـ"شسمه"، وهو هنا "العتاك"، وفي الحقيقة الكثير من المعالجات في العراق لأزمات حقيقية تجري على هذه الشاكلة، وبعضهم لا علاقة له من قريب أو بعيد بأية حوادث أو أزمات، فالسجون العراقية مليئة بمثل هؤلاء، وهذا يعكس هشاشة النظام بسلطاته كافة .. شخصياً عانيت من كون اسمي الثلاثي يتطابق مع اسم أحد المطلوبين للسلطات العراقية، وعانيت لسنوات حتى تم تزويدي بوثيقة رسمية تفيد بأنني لست الشخص المطلوب للاعتقال، وأنني لست المتهم .. نحن نعيش فنتازيا مؤلمة ومحزنة، وهذا انعكس في رواية "فرانكشتاين في بغداد".

الرواية والجائزة مرة أخرى

• مع انتظار الرواية الجديدة .. ما آخر أخبار "فرانكشتاين في بغداد"؟

تم بشكل رسمي الاتفاق على الترجمة الانكليزية للرواية، بعد أن اشترت دار «وون وورد» البريطانية بالتعاون مع "بنغوين" الشهيرة حقوق الترجمة، ويعمل على الترجمة الآن جوناثان رايت، وهو واحد من ابرع المستعربين البريطانيين، وحاصل على جوائز عدة في مجال الترجمة إلى الانجليزية. كما وقعت عقود كل من الترجمات الفرنسية والاسبانية والايطالية، فيما باتت الترجمة اليابانية كاملة على يد البروفيسور نتسومو اوكادا، وما زال التفاوض جارياً من أجل اختيار دار نشر يابانية مناسبة لنشر هذه الترجمة، وهناك مفاوضات على ترجمات أخرى لم يجر الاتفاق حولها بعد.

الرواية دخلت ضمن مادة البحث الاكاديمي لعدد من الرسائل الجامعية في جامعة قسنطينة الجزائرية وأصفهان الايرانية، وهناك عدد من الرسائل الجامعية في العراق، وخاصة في مجال الادب والعلوم الاجتماعية اختارت الرواية كعينة للبحث، كما أنها قدمت كعينة في رسالة طالب عراقي يدرس الماجستير في احدى الجامعات البريطانية. تحرر من الضوء.

• ما الذي يمكن ان تفعله جائزة بكاتب ؟

أشياء كثيرة تغيرت.. لا شك ان الجائزة وصداها الاعلامي جعلني وجعل الرواية في دائرة الضوء، وهذا ما سهّل التعرف إلى الرواية، وبالتالي قراءتها من قبل قطاع واسع من القراء، وهذا بالتأكيد طموح كل روائي وكاتب، وأعني أن يصل الى اكبر مساحة ممكنة من القراء. الشيء المهم بالنسبة لي أن الرواية حققت قبولاً لدى قطاعات متنوعة من القراء، حتى أن هناك مراهقين قرأوا الرواية وتفاعلوا معها، رغم ان الرواية غير موجهة الى هذه الشريحة. الشيء الثاني المهم بالنسبة لي، ان

الرواية صارت نافذة لتعريف قراء عرب واجانب على جانب من الاوضاع العراقية الحالية، وكم كنت سعيداً بالانطباعات التي تحدثت عن مساهمة الرواية في فهم ما يجري داخل العراق من اوضاع معقدة، وأنها زادت من التعاطف الانساني مع المحن التي يعيشها المواطن العراقي اليوم ... كما أنها فتحت أعين البعض على الادب العراقي الحديث، وزادت من فضولهم باتجاه قراءة الروايات العراقية، وصاروا يبحثون عن الروايات العراقية بغض النظر عن كون من كتبها سعداوي أو غيره، وهذا أمر مهم جداً كما اعتقد. على المستوى الشخصي اضطررت الى التحول الى سكرتير لـ «فرانكشتاين في بغداد»، للرد على الرسائل والاستجابة الى المناسبات والدعوات التي توجه إليّ، والتواصل مع الاعلام، وهو رغم أنه من المكاسب الناتجة عن الفوز بالجائزة، إلا انه أبعدني عن مشاريعي الكتابية، وأربك جدول أعمالي والتزاماتي، ومن حسن الحظ أنه أمر موسمي.

• هل أنت منزعج من الشهرة على الصعيد الشخصي، مثلا في الشارع أو التاكسي أو السوبرماركت ام انه احساس جميل ان يكون الشخص معروفا؟

بالتأكيد هو شعور جميل.. مبادرة اناس في الشارع لمصافحتك والسلام عليك أو التقاط صور معك هو تعبير عن حب وتقدير. ولكن هؤلاء ينقسمون إلى فريقين؛ الأول هو من تعرف علي من خلال التغطية الاعلامية في التلفزيون أو الصحف. إنه يتعرف علي في الشارع او السوق او المكان العام كشخصية قامت بشيء جيد، من دون معرفة التفاصيل. أما الفريق الثاني فهم اولئك الذين اقتنوا الرواية وقرأوها وأعجبوا بها.

النجومية التي تأتي بها وسائل الاعلام تبقى موسمية.. ضوء شديد لفترة محددة ثم تنشغل وسائل الاعلام بمادة جديدة، أما الذي تعرف عليّ من خلال كتابي فبالتأكيد سأبقى حاضراً لديه لوقت أطول. بالنسبة لي لا أتقبل الأمر بمجمله دون قلق، فبالإضافة الى تقييد الحرية الشخصية، بسبب قدرة الآخرين على رصدك والتعرف عليك، فاننا نعيش في بلد مضطرب.

كنت خلال سنوات طويلة أحاول العمل والحركة وراء الستار، مجرد اسم في صحيفة أو صوت في مذياع، أو معد لبرامج لا يظهر اسمي عليها، حتى أدوات عملي كمراسل في بغداد لاذاعة البي بي سي (٢٠٠٥-٢٠٠٧)، كنت أحملها في كيس تسوّق عادي، حتى لا أثير انتباه الآخرين. وبالنسبة لشخص من هذا النوع لن يستطيع ابعاد القلق عن نفسه، حين يوقف سيارة أجرة آخر الليل في بغداد، فيبادره السائق قائلاً: انا اعرفك.. رأيتك في التلفزيون.. أن تكون "رجلاً خفياً" يعطيك حرية أكبر في الحركة والحياة، خصوصاً في بغداد.

• كثيرون لا يعرفون حكاية استقالتك لإكمال الرواية .. هلاّ حدثتنا عنها؟

في فترة سابقة كنت مرتبطاً بالعمل مع إحدى المؤسسات الإعلامية في بغداد .. هذا العمل كان يأخذ كل وقتي، ولكن في مرحلة معينة أحسست أن عملي أصبح عائقا أمام إتمام اللمسات الأخيرة على الرواية، وأدركت أنه بات يجب عليّ التفرغ لإنجاز "فرانكشتاين في بغداد".

لم يكن بالإمكان أن أنهي الرواية وأنا أعمل عملاً ميدانياً يحتاج إلى سفر للمحافظات، وتصوير في الشوارع، حيث كنت أعمل في تصوير البرامج الوثائقية، فقررت أن أقوم بخطوة مجنونة، وهي الاستقالة .. كان لديّ مبلغ في البنك يكفيني لعدة أسابيع .. شجعني بعض الأصدقاء على ذلك لأنهم مؤمنون بأن هذه الرواية سيكون لها شأن مهم.

وفعلاً قدمت استقالتي، وسحبت جزءاً من المبلغ الموجود في البنك، وسافرت إلى مدينة السليمانية في كردستان العراق، وحجزت في فندق هناك، ولم أخرج منه إلا لتناول الطعام فقط .. فرّغت نفسي تماما، وخلقت لنفسي أجواء تساعدني على الاستغراق في الكتابة إلى أن أنهيت العمل خلال ١٥ يوماً.

• تناقل بعض وكالات الأنباء خبراً حول نجاتك بأعجوبة من تفجير إرهابي قبل حفل "البوكر" بأيام .. ما حكاية هذا التفجير؟

كنت برفقة صديق لي في أحد مقاهي العاصمة بغداد، والمعروف بأنه مقهى للمثقفين والفنانين .. أشار لي صديقي بأن أرافقه لتناول الطعام خارج المقهى، وما أن غادرنا المقهى مبتعدين عشرات الأمتار، حصل التفجير .. علمنا فيما بعد أن انتحارياً قام بهذا التفجير، الذي أودى بحياة سبعة من رواد المقهى، وأن المستهدف من التفجير كان مثقفي وفناني بغداد .. لو كان التفجير في وقت الذروة لكان عدد الضحايا أكبر .. هذه حكاية شبه يومية في العراق، وتبدو وكأنها فصل من فصول روايتي، لكن هذا ما حصل بالفعل، حتى إن بعض الصحافيين كتب "أحمد السعداوي يعيش روايته".

• لابد أنك قرأت روايات البوكر العام الماضي ولربما الروايات المنافسة .. ماذا عنها؟

حقيقة، ولضيق الوقت، لم أقرأ الروايات الخمس المنافسة لرواية "فرانكشتاين في بغداد"، لكن بالنسبة لرواية "ساق البامبو" لسعود السنعوسي الفائزة في "بوكر ٢٠١٣" فهي رواية مبتكرة وجديدة وذات بعد إنساني رفيع، ولفتتني رواية "يا مريم" لسنان أنطون فهي رواية مهمة برأيي.

• باتت روايات "البوكر" العربية، وأخيراً روايتك تلقى رواجاً كبيراً في فلسطين رغم الحصار المفروض عليها من الاحتلال، كونها صادرة عن دار نشر لبنانية .. باتت "فرانكشتاين في بغداد" هدية قيمة عندنا؟

هذا يسعدني جداً، خاصة أن الجمهور الفلسطيني كما أعلم جمهور ذواق وناقد، وهو من تربى على إبداعات كبار المثقفين على المستوى العالمي كمحمود درويش، وسميح القاسم، وغسان كنفاني،

وإميل حبيبي، وجبرا إبراهيم جبرا، وغيرهم الكثير .. حضور روايتي في فلسطين المحاصرة له معانٍ كثيرة .. الثقافة فعل مقاومة، والرواية فعل إنساني، وهو ما يميز الشعب الفلسطيني المحاصر، ويحقق كل أحلامه سريعاً، خاصة أن يزول الاحتلال ويعيش الشعب الفلسطيني حراً على كامل أرضه .. ما أريد قوله أن شعباً يقرأ هو شعب حي، ولا يمكن أن يقهر.

سياسة من وحي الأدب

• وصفت مجلة النيويوركر الاميركية روايتك بأنها تمثل اليوم رأس حربة في رواية ما بعد الربيع العربي، والتي تمثل جيلاً جديداً من الكتاب الروائيين في العالم العربي.. هل كنت تفكر بالربيع العربي .. هل هناك مزايا معينة لرواية من هذا النوع؟

الوصف الذي استخدمته المجلة جاء بسبب نشر الرواية ثم فوزها في العام ٢٠١٤، أي ما بعد قيام الربيع العربي ثم تداعيه واضمحلاله كما نرى اليوم، وبالتأكيد لم أكن افكر بهذا الوضع السياسي العام اثناء كتابة الرواية. ذكرت في عدة حوارات ولقاءات سابقة أنني بدأت بكتابة الرواية في منتصف العام ٢٠٠٨، ووقتها لم يكن هناك أي وجود لربيع او خريف عربي، واستغرقت كتابة الرواية اربع سنوات حتى اكتملت وصارت جاهزة للنشر. المثير في الأمر أن الرواية التي كانت تتحدث عن وضع عراقي خاص لا وجود له في منطقة عربية أخرى، صار لاحقاً وضعاً عاماً، فانهيار النظم الديكتاتورية والشروع بعهد الديمقراطية بمصاحبة يقظة الانقسامات الاجتماعية، وحضور أشكال مروعة من العنف والدمار، والذي هو وصف للوضع العراقي سياسياً واجتماعياً صار انموذجاً مكرراً في عدة بلدان أخرى. أنا كنت افكر بوصف جانب من المشكلة العراقية، ويبدو أن هذا الوصف أفاد آخرين في اضاءة اوضاع عربية عامة.

• هل على الرواية الجديدة اليوم ان تكون سياسية لكي تنجح؟ هذا الامر لا يشمل روايتك فقط، وانما العديد من الاعمال الروائية العربية الجديدة.

الموضوعة السياسية بحد ذاتها لا يمكن ان تكون سبباً في نجاح او رواج عمل روائي. الرواية في نهاية المطاف هي عمل فني، وتخضع في المحاكمة والنظر والفحص الى تاريخ النوع الروائي ومجمل الاشتغالات والاساليب والأدوات الفنية، وكذلك اطلالة الرواية، باعتبارها عملاً أدبياً معنيا بالانسان ومشاغله، على المشاكل العميقة لدى الإنسان بغض النظر عن السياق الاجتماعي أو السياسي والتاريخي الذي يتحرك فيه. لا أومن بصلاحية رواية ما لأنها تتحدث عن مشكلة راهنة، وانما باعتبار المشكلة الراهنة تكشف مشاكل جوهرية أعمق لدى انسان ما في مكان وزمان محددين.

غير أن الفن الروائي بشكل عام صار اليوم، اكثر من ذي قبل، مرتبطاً بالفضاء الذي يتحرك فيه، بحيث من الصعب أن يتجاهل ما تبثه وسائل الاعلام والميديا ووسائل التواصل الاجتماعي، والمعالجات التي

يتم طرحها حول مجمل قضايا الانسان، كذلك حضور الصورة باعتبارها ناقلا أساسيا للمعلومات، بحيث تساهم في تنميط الوعي العام وطريقته في تلقي الرسائل المتضمنة في الميديا والفنون والآداب.

وبالعودة الى موضوع السياسة، فإننا نراها حاضرة في كل تفاصيل حياتنا، وحتى لو لم تتحدث الرواية بشكل مباشر عن قضايا سياسية، فإن آثار هذه السياسة تبقى حاضرة ومؤثرة في تفاصيل القصص المروية، حتى وإن بشكل غير مباشر. ومن المهم ليس هو تناول أو عدم تناول السياسة داخل الرواية، وانما كمية المعرفة وعمق النظرة التي يقدمها الروائي تجاه القضايا التي يطرحها.

• بعيداً عن الرواية .. ماذا عن الواقع السياسي في العراق، وهل من انعكاسات للاحتلال الأميركي على عراق اليوم؟

الاحتلال الأميركي زاد مساحة الرعب ... من وجهة نظري الشخصية، لا بد من طرح سؤال حول ما إذا كان الأميركيون يقصدون ذلك، أم أنهم ارتكبوا أخطاء ما فحسب، وفي كلتا الحالتين، هم من أفسحوا المجال لزيادة مساحة هذا الخوف، أو حتى الرعب الذي بسط سطوته على جموع العراقيين .. كنت كتبت مقالاً في صحيفة "نيويورك تايمز" الأميركية في الذكرى العاشرة للاحتلال الأميركي على العراق، وكان من بين ما طرحه، أن "الأميركيين، ومنذ نيسان ٢٠٠٣ إلى تموز ٢٠٠٥، لم يكونوا جادين في فرض القانون في الشارع العراقي، حتى إن أحد أركانهم العسكرية اعترف في رسالة رسمية في تموز ٢٠٠٥ بأن "المهام الأمنية للجيش الأميركي تغيرت الآن من حماية قطاعاتنا العسكرية إلى حماية المواطنين العراقيين"، وهذا اعتراف أنه على مدار أكثر من عامين الشارع العراقي لم يكن يحظى بحماية من الجهة المسؤولة عن توفير الحماية له، وأعني الأميركيين المسؤولين دولياً عن القيام بذلك، فالمجتمع الذي لم يحصل على الحماية الأمنية يحاول اقتراح حلوله الخاصة، التي ظهرت على شكل ميليشيات، تكونت بعد نواة دوريات الحراسة في أحياء بغداد، وهذه الميليشيات بات لها أهدافها الخاصة، وليس تلبية احتياجات المدنيين، وهكذا "دخلت على الخط" جهات دولية استثمرت هذه الميليشيات، وتحت عين الأميركيين، وهناك من وجد قصدية في ذلك من أجل تهيئة الوضع العام في العراق باتجاه الحرب الأهلية، ففي عامي الفراغ الأمني تم العمل على تهيئة المجتمع العراقي من مجتمع يبحث عن سلام مجتمعي وسياسي، إلى مجتمع مسلح ومجهز للقتال.

في كل الأحوال، ما حدث فتح فوهة الجحيم، حتى إن أطفالاً كثراً تحولوا إلى قتلة شرعيين لا يرون أنفسهم مجرمين. كان يجري الحديث عن أن النظام السابق في ثمانينات وتسعينات القرن الماضي عمد إلى عسكرة المجتمع، لكن الوضع الآن فاق عسكرة المجتمع باتجاه مجتمع يشارك في الجريمة، بنسبة أو بأخرى، وحتى نغادر هذا الوضع والعودة إلى السوية الإنسانية يحتاج إلى مجهودات كبيرة، خاصة أنه وضع سوداوي، فالصورة قاتمة.

نثر وشعر

• البعض يربط الكتابة بما يسمى الإلهام أو الوحي سواء كان نثراً أو شعراً .. هل توافق على ذلك؟

لا .. لا يوجد إلهام أو وحي ينزل وتنزل معه الرواية، فالرواية عمل مركب .. عمل تجميعي .. وعمل يستغرق وقتاً، لا أنكر أن الموهبة والخيال لهما دور كبير وحاسم في إنتاج الأعمال العظيمة، ولكن دون العمل لوقت طويل، ودون التأمل وجمع تفاصيل، وبذل كل الجهد، لا تنتج الأعمال العظيمة.

• ولكنك بدأت شاعراً؟

نعم ... التقاليد الشعرية في العراق تكرست منذ العصر العباسي .. الثقافة العراقية ثقافة شعرية .. الشعر طاغٍ في العراق، أي شاب يسعى للبروز على مستوى المشهد الثقافي العراقي، يجد أن آباء الثقافة العراقية هم شعراء، وبالتالي يصبح شاعراً بعد أن يتتلمذ على أيديهم .. أكثر من ٨٠٪من الأدباء العراقيين بدأوا شعراء، فالروائيون العراقيون أغلبهم بدأوا شعراء .. لي ثلاث مجموعات شعرية صادرة في تسعينات القرن الماضي، وهي الفترة التي سبقت دخولي عالم الرواية، إن جاز التعبير.

العراق أبو الحداثة الشعرية .. أرى أن الثقافة القوية الحية هي الثقافة التي تحتوي على الشعر الجيد، والرواية الجيدة، والقصة الجيدة أيضا .. اليوم، وبعد خمسة عشر عاماً من التجريب في الرواية، ثمة حضور قوي للرواية العراقية في المشهدين العربي والعالمي.

• ولماذا ترفض تقديم أي من رواياتك حتى لو كان التقديم لكاتب معروف؟

لا أرفض تماماً، ولكني أرى أن العمل الأدبي لا يحتاج لذلك، فالكاتب لا يحتاج إلى تزكية من كاتب معروف كي تنشهر أعماله، كما أني أرى أن المقدمة يجب أن يكون لها مناسبة معينة، فعلى سبيل المثال رواية "مائة عام من العزلة" لماركيز طبعت نسخة منها في دار نشر مكسيكية كبيرة، وكتب المقدمة لهذه النسخة ماريو باراغاس يوسّا وكانت لهذه المقدمة مناسبة، وهي مرور عقد على صدور الطبعة الأولى من هذه الرواية.

سؤال الكتابة

هل تكتب لقارىء بعينه؟

أعتقد أن الكثير من الكتاب المحترفين يرتبكون أمام أسئلة من هذا النوع، لأنهم حينما شرعوا في الكتابة كانوا ببساطة يشعرون بأن لديهم القدرة على الكتابة والتميز فيها، وامكانية ان يثيروا اعجاب الآخرين؛ من الحلقة الصغيرة من الاصدقاء والأقارب، ثم يأتي حلم النشر الذي يجعلهم

مرئيين من قراء مجهولين غير معلومي العدد، وهذا هو المفهوم البسيط للشهرة. لكن، فيما بعد، يجد هذا الكاتب نفسه أمام مطاليب ثقافية تفرض عليه أن يضع أجوبة أكثر جدية وعمقاً من مجرد الرغبة باثارة إعجاب القراء.

كأن يتحدث عن الالتزام الاجتماعي والسياسي، والرغبة في المشاركة بالتحولات، ومحاولة التصحيح وتطوير الوعي وما الى ذلك. أو محاولة الاضافة على النوع الفني، القيام بنقلة وتطوير الكتابة الأدبية، إضافة تقنيات أساليب جديدة.

وهنا يغدو التفكير بأسئلة "لماذا أكتب ولمن أوجه كتابتي" أكثر كآبة وأقل متعة. لا أنكر أنني أفكر بالأجوبة الكبيرة ذات المحمول بالغ الجدية، ولكني، حتى استطيع الاستمرار بالكتابة، احاول دائماً تذكر الشعور الذي كنت فيه، في العتمة، وانا أخربش على أوراقي قصيدة أو قصة قصيرة، سعيداً بما أفعله، منتظراً اللحظة التي انتهي منها من النص كي أعرضه صباح اليوم التالي على أصدقائي في المدرسة الثانوية، متوقعاً أن يثير أعجابهم.

أحاول تذكر حس المشاركة البسيط مع أناس معلومين عندي، وأن أتذكر أن رغبتي بالحصول على مشاعر كثيفة، وإحساس أعلى بالحضور الوجداني والذهني، هي ما تحرضني، ليس على الكتابة فقط، وانما على مجمل النشاطات الانسانية المعتادة التي أقوم بها كإنسان. وما أتمناه دائماً أن أنقل هذه التجربة في الحضور الوجداني والذهني الى الآخرين، وأن اشاركهم مشاعري الكثيفة، فهذا أكثر أهمية من مجرد القصة نفسها، أو أي انهمام بالاساليب والطرائق والتقنيات. أتذكر غالباً تجربة الكتابة ومتعة الاكتشافات، ولكني أتذكر بمتعة أيضاً، تلك الطرق التي اتبعتها، والمصاعب التي تجاوزتها، في سبيل تهيئة الطرق الموصلة الى طاولة الكتابة، وتحضير القصة مثل عجينة مختمرة على منضدة خبّاز.. معاودة الاتصال بهذه المتع البسيطة، هو ما يجعلني أفتح دفاتري أو حاسبي المحمول كل نهار، كي أشرع بالكتابة.

• أخيراً .. ما هي الرواية؟

الرواية متخيل عن الحياة، لذلك يجب أن يكون مصدرها الحياة .. الرواية هي فن التفاصيل .. التفاصيل التي ربما تراها الفنون الأخرى تافهة .. الرواية تعتمد على نثر الحياة، حتى يكتب الروائي بصدق وإذا أراد أن يكون مؤثراً فيجب أن تكون شخوصه من الحياة.